العدد 53 – المجلد 14 – صيف 2025
Issue 53 - Volume 14 - Summer 2025

عُمران
omran

فصليـــة محكّـــمة تُعنـــى بالعلـــوم الاجتماعيـــة
A Quarterly Peer-reviewed Social Sciences Journal

ISSN 2305-2473

محجوبة قاوقو
وسائط التواصل الاجتماعي وإشكالية المراقبة:
دراسة أنثروبولوجية في سير حياتية رقمية مغربية

ليليان إسطفانوس
النشاط الرقمي داخل المجتمع القبطي في أميركا الشمالية: الفرص الجديدة والتهديدات الناشئة

فاروق الطاهري
نحو أنثروبولوجيا صيدلية بالمغرب:
بيوغرافيا دواء الأوريوميسين من الإنتاج المادي إلى إعادة التأويل الثقافي

حواء الزين والشفاء الأمين
سجال الكلمات والرصاص في السودان: تحليل إثنوغرافي رقمي لخطاب حرب الخامس عشر من نيسان/ أبريل 2023

Editor-in-Chief رئيس التحرير
Mounir Saidani منير السعيداني

Editorial Manager مدير التحرير
Hani Awad هاني عوّاد

Editorial Secretary سكرتير التحرير
Majd Abuamer مجد أبو عامر

Editorial Board هيئة التحرير
Baqer Alnajjar باقر النجار
Hassane Hjij حسن احجيج
Rima Majed ريما ماجد
Saker El Nour صقر النور
Tahar Saoud الطاهر سعود
Kaltham Al-Ghanim كلثم الغانم
Mada Shuraiki مدى شريقي
Morad Diani مراد دياني
Hisham Abu-Rayya هشام أبو ريا

Copy-Editing التدقيق
Mouldi Abbassi المولدي العباسي
Abdelwaheb Souissi عبد الوهاب سويسي
Nabil Mahmoud Hussein نبيل محمود حسين

Design and Layout تصميم وإخراج
Ahmad Helmy أحمد حلمي
Hisham Moussawi هشام الموسوي

Academic Advisory Committee الهيئة الاستشارية
Ibrahim Elissawy إبراهيم العيسوي
Abubakr Baqader أبو بكر باقادر
Ahmed Khouaja أحمد خواجه
Adib Nehme أديب نعمة
Mhammed Malki امحمد مالكي
Burhan Ghalioun برهان غليون
Tayssir Raddawi تيسير رداوي
Tana Fouad Abdallah ثناء فؤاد العبد الله
George Giacaman جورج جقمان
Hazim Rahahleh حازم رحاحلة
Hassan Aly حسن علي
Kheder Zakaria خضر زكريا
Taher Kanaan طاهر كنعان
Adel Al-Shargabi عادل الشرجبي
Abderrahmane Rachik عبد الرحمان رشيق
Abdullah Aldolaimi عبد الله الدليمي
Abdallah Saaf عبد الله ساعف
Abdenasser Djabi عبد الناصر جابي
Ali Khalifa Al-Kuwari علي خليفة الكواري
Fadia Kiwan فاديا كيوان
Fatima Al-Shamsi فاطمة الشامسي
Karima Korayem كريمة كريم
Mohamed Tozy محمد الطوزي
Mustafa Attir مصطفى التير
Mustafa Kamel Al–Said مصطفى كامل السيد
Nadim Rouhana نديم روحانا
Hosham Dawod هشام داوود
Yagoub Al-Kandari يعقوب الكندري

The Designated Licensee
The General Director of the Arab Center for Research and Policy Studies

صاحب الامتياز
المدير العام للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

لوحة الغلاف "قصص بيروت" (2025) واللوحات في داخل العدد لليلى داغر

فنانة لبنانية من مواليد بيروت، حاصلة على الماجستير في الفنون البصرية من الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة، تُدرّس الفنون الجميلة في جامعة سيدة اللويزة، عضو نقابة الفنانين اللبنانيين. شاركت في معارض فردية وجماعية في بيروت، كما عُرضت أعمالها في معارض دولية في طوكيو وسول وباريس. تُقتنى أعمالها في مجموعات خاصة ورسمية، من ضمنها وزارة الثقافة اللبنانية.

Cover Painting "Stories of Beirut" (2025) and Featured Artwork by Layla Dagher

Lebanese artist born in Beirut. She holds a master's degree in Visual Arts from the Académie Libanaise des Beaux-Arts (ALBA) and teaches Fine Arts at Notre Dame University–Louaize. She is a member of the Syndicate of Lebanese Artists. Her work has been featured in both solo and group exhibitions in Beirut, as well as internationally in Tokyo, Seoul, and Paris. Her paintings are included in several private and public collections, including that of the Lebanese Ministry of Culture.

ترسل المخطوطات وجميع المراسلات باسم رئيس التحرير على العناوين التالية:
Manuscripts and all correspondence should be sent to the Editor-in-Chief through:
شارع الطرفة – منطقة 70 – وادي البنات – ص. ب. 10277 – الدوحة – قطر
Al Tarfa Street - Zone 70 - Wadi Al Banat - P.O.Box: 10277 - Doha - Qatar
Phone: +974 4035 4117 - +974 4035 6888 :هاتف
E-mail: omran@dohainstitute.edu.qa

فصليـــة محَـكّمة تُعنـى بالعلـــوم الاجتماعيـــة
A Quarterly Peer–reviewed Social Sciences Journal

العدد 53 – المجلد 14 – صيف 2025
Issue 53 – Volume 14 – Summer 2025

الإنسان مدنيٌّ بالطبع، أي لا بُدَّ له من الاجتماع
الذي هوَ المدنيَّةُ في اصطلاحهم وهُوَ معنى العُمْران.

ابن خلدون

لا تعبِّر آراء الكتَّاب بالضرورة عن اتِّجاهات يتبنَّاها "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"

جميع الحقوق محفوظة لمعهد الدوحة للدراسات العليا
والمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

DOHA INSTITUTE
FOR GRADUATE STUDIES
معهد الدوحة للدراسات العليا
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

حَقِيقَةُ التَّارِيخِ أَنَّهُ خَبَرٌ عَن الاجْتِمَاعِ الإِنْسَانِيِّ الَّذِي هُوَ عُمْرَانُ العَالَمِ، وَمَا يَعْرِضُ لِطَبِيعَةِ ذَلِكَ العُمْرَانِ مِن الأَحْوَالِ مِثْلِ التَّوَحُّشِ وَالتَّأَنُّسِ وَالعَصَبِيَّاتِ وَأَصْنَافِ التَّغَلُّبَاتِ لِلْبَشَرِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِن المُلْكِ وَالدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا، وَمَا يَنْتَحِلُهُ البَشَرُ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَسَاعِيهِمْ مِن الكَسْبِ وَالْمَعَاشِ والْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ، وَسَائِرِ مَا يَحْدُثُ فِي ذَلِكَ الْعُمْرَانِ بِطَبِيعَتِهِ مِن الأَحْوَالِ....

وَكَأَنَّ هَذَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ. فَإِنَّهُ ذُو مَوْضُوعٍ وهوَ العُمْرَانُ الْبَشَرِيُّ وَالاجْتِمَاعُ الإِنْسَانِيُّ؛ وَذُو مَسَائِلَ، وهيَ بَيَانُ مَا يُلْحِقُهُ مِن الْعَوَارِضِ وَالْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى. وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِن الْعُلُومِ وَضْعِيًّا كَانَ أَوْ عَقْلِيًّا....

الاجْتِمَاعُ الإِنْسَانِيُّ ضَرُورِيٌّ. وَيُعَبِّرُ الْحُكَمَاءُ عَنْ هَذَا بِقَوْلِهِمْ: "الإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ"، أَيْ لَا بُدَّ لَهُ مِن الاجْتِمَاعِ الَّذِي هُوَ المَدَنِيَّةُ فِي اصْطِلَاحِهِمْ وهوَ مَعْنَى الْعُمْرَانِ....

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الاجْتِمَاعَ إِذَا حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَتَمَّ عُمْرَانُ العَالَمِ بِهِمْ، فَلَا بُدَّ مِنْ وَازِعٍ يَدْفَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ؛ لِمَا فِي طِبَاعِهِمْ الْحَيَوَانِيَّةِ مِن الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ... فَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَازِعُ وَاحِدًا مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِم الْغَلَبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ؛ حتَّى لَا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى غَيْرِهِ بِعُدْوَانٍ؛ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْمُلْكِ....

وَتَزِيدُ الْفَلَاسِفَةُ عَلَى هَذَا الْبُرْهَانِ... أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْبَشَرِ مِن الْحُكْمِ الْوَازِعِ... بِشَرْعٍ مَفْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ يَأْتِي بِهِ وَاحِدٌ مِن الْبَشَرِ؛ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنْهُمْ بِمَا يُودِعُ اللهُ فِيهِ مِنْ خَوَاصِّ هِدَايَتِهِ لِيَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالقبُولُ مِنْهُ، حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ وَلَا تَزْيِيفٍ. وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لِلْحُكَمَاءِ غَيْرُ بُرْهَانِيَّةٍ كَمَا تَرَاهُ؛ إِذِ الْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ تَتِمُّ مِنْ دُونِ ذلكَ بِمَا يَفْرِضُهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ، أَوْ بِالْعَصَبِيَّةِ الَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَّتِهِ.

ابن خلدون، **المقدّمة**

Contents المحتويات

Articles	5	دراسات
Mahjouba Kaoukaou **Social Media and Surveillance: An Anthropological Study of Moroccan Digital Lives**	7	محجوبة قاوقو وسائط التواصل الاجتماعي وإشكالية المراقبة: دراسة أنثروبولوجية في سير حياتية رقمية مغربية
Lilian Estafanous **Digital Activism within the Coptic Community in North America: New Transnational Opportunities or Emerging Threats**	39	ليليان إسطفانوس النشاط الرقمي داخل المجتمع القبطي في أميركا الشمالية: الفرص الجديدة والتهديدات الناشئة
Farouk Tahri **Toward a Pharmaceutical Anthropology in Morocco: The Biography of Aureomycin from Physical Production to Cultural Reinterpretation**	67	فاروق الطاهري نحو أنثروبولوجيا صيدلية بالمغرب: بيوغرافيا دواء الأوريوميسين من الإنتاج المادي إلى إعادة التأويل الثقافي
Hawa Alzain & Elshifa Elamin **Sudan's War of Words and Bullets: A Digital Ethnographic Analysis of the 15 April War Discourse 2023**	93	حواء الزين والشفاء الأمين سجال الكلمات والرصاص في السودان: تحليل إثنوغرافي رقمي لخطاب حرب الخامس عشر من نيسان/ أبريل 2023

Reports	121	تقارير
Salaheldean Elegla **The Impact of the Israeli War on the Palestinian Economy in the Gaza Strip: The Challenges of Economic Recovery**	123	صلاح الدين العجلة تداعيات العدوان الإسرائيلي على الاقتصاد الفلسطيني في قطاع غزة وتحديات التعافي الاقتصادي
Book Reviews	149	مراجعات الكتب
Kholoud Al-Ajarma **Mecca in Morocco: Articulations of Muslim Pilgrimage in Moroccan Everyday Life** Reviewed by: Rachid Jarmouni	151	خلود العجارمة مكة في المغرب: تمثلات الحج الإسلامي في الحياة اليومية المغربية مراجعة: رشيد جرموني
Dima Issa **Fairouz and the Arab Diaspora: Music and Identity in the UK and Qatar** Reviewed by: Mujahid Eldouma	161	ديما عيسى فيروز والشتات العربي: الموسيقى والهوية في المملكة المتحدة وقطر مراجعة: مجاهد الدومة
Featured Books	169	عروض الكتب

دراسات
Articles

الشرفة، 100×100 سم، مواد مختلطة على قماش (2024).
The balcony, 100x100 cm, mixed media on canvas (2024).

عمران omran
المعرّف الرقمي DOI https://doi.org/10.31430/AOTY3853
القبول Accepted 2025-5-26
التعديل Revised 2025-2-6
التسلم Received 2024-9-30

محجوبة قاوقو | Mahjouba Kaoukaou*

وسائط التواصل الاجتماعي وإشكالية المراقبة: دراسة أنثروبولوجية في سير حياتية رقمية مغربية

Social Media and Surveillance: An Anthropological Study of Moroccan Digital Lives

ملخص: تُسلّط الدراسة الضوء على مفهوم المراقبة الرقمية في علاقته بمفهومَي الحرية الرقمية والحق في الخصوصية. وتكشف عن أبعاد جديدة للمراقبة الرقمية، وذلك عند تحوُّلها إلى فعلٍ مرغوبٍ، أو صدّق عليه مستخدمو وسائط التواصل الاجتماعي في إطار بحثهم عن الاعتراف. تعتمد الدراسة لأجل ذلك مقاربة أنثروبولوجية، تقوم على دراسة تحليلية ـ تأويلية لسِيَر الحياة الرقمية لعيّنة من مستخدمي وسائط التواصل الاجتماعي المغاربة. وتنتهي إلى تأكيد نتيجة، مفادها أنه كلما ازدادت أنشطة الفرد الرقمية، تقلصت مساحة خصوصيته، وتَغيَّر تمثُّله للحرية الرقمية من جراء القيود الإيتيقية المرتبطة باستخدام الفضاءات الرقمية. وتفضي السيرورة المستمرة لرقمنة الفضاءات العمومية والخاصة إلى استدماج الأفراد لفكرة المراقبة الرقمية، وتحوُّلها إلى آلية لممارسة الرقابة الذاتية.

كلمات مفتاحية: الأنثروبولوجيا الرقمية، الاعتراف، وسائط التواصل الاجتماعي، الحرية، المراقبة.

Abstract: This article explores the concept of digital surveillance in the context of digital freedom and the right to privacy. It uncovers new dimensions of digital surveillance sanctioned by social media users in their search for recognition. The article adopts an anthropological approach, conducting an analytical-interpretive study of the digital lives of a sample of Moroccan social media users. It finds that the more an individual engages in digital activities, the tighter their space for privacy becomes and the more their perception of digital freedom changes in light of the ethical constraints associated with the use of digital spaces. The ongoing digitization of public and private spaces leads individuals to internalize the concept of digital surveillance, which becomes a mechanism for self-censorship.

Keywords: Digital Anthropology, Recognition, Social Media, Freedom, Surveillance.

* أستاذة باحثة في علم الاجتماع، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، القنيطرة، المغرب.

Research Professor of Sociology at the Regional Centre for Education and Training Professions (CRMEF), Kenitra, Morocco. Email: hajibakaoukaou@gmail.com

مقدمة

أعلن جون بيري بارلاو، في 8 شباط/ فبراير 1996، استقلالية الفضاءات الشبكية الرقمية، مقدّمًا إيّاها على أنها فضاءات مفتوحة، بلا قيود ولا حدود ولا إكراهات تحصرها[1]. وعزّز مانويل كاستلز لاحقًا ذاك التصوّر، في كتابه الصادر سنة 2001، الذي وصف فيه الإنترنت بأنها "تكنولوجيا الحرية"[2]. وما يبرر ذلك الوصف هو خصوصية المجتمع الرقمي، بما هو فضاء لا يفترض الحضور المادي للأفراد، ولا حتى الظهور بهوياتهم الفعلية، إنْ هم اختاروا ذلك. ولقد سمح هذا الوضع بالقول بتوسّع هوامش الحرية الممنوحة للأفراد، وبأنها تتعزّز أكثر بفضل "ألعاب الهوية"[3] التي تتيحها الفضاءات الرقمية لمرتاديها؛ فتسمح لهم بأن يغيّروا هوياتهم الرقمية، وبأن يعبّروا كما شاؤوا، مع احتفاظهم بالحق في مجهولية الهوية، ومع سيادة الاعتقاد، غالبًا، بأنهم بعيدون عن المراقبة المجتمعية. وما يسِمُ هذه السيرورة هو التدفقات المعلوماتية التي ينتجها مستخدمو وسائط التواصل الاجتماعي، والتي تشكّل مادةً لإعادة الإنتاج، سواء بعلم الأشخاص أو من دون علمهم، بإذنهم أو من غير إذنهم. ولقد أضحى هذا النوع من الاستعمال يطرح عددًا من الإشكالات حول حدود الحرية الرقمية؛ بل أصبح الحديث عن حرية رقمية، بوصفها ممارسة، يبدو أمرًا مفارقًا؛ لأنها بقدر ما تقوم على مبدأ تمكين الأفراد من مساحات أوسع للتعبير، تبرز المراقبة الرقمية بوصفها وضعية ملازمة لها، تتمظهر هي الأخرى عبر أشكالٍ ومستويات متعددة.

وتفيد هذه القوة التي أصبحت تحضر، وتمارس بها المراقبة الرقمية، أنّ إنتاج المعطيات الضخمة واستعمالها ليسا مجرد مراكمة وتجميع لأرقام بهدف الرصد والحساب، بل عبارة عن سيرورات ثقافية واجتماعية وسياسية؛ حيث "لا ينبغي النظر إلى النتائج المحصل عليها من محركات البحث على أنها مجرد معلومات، بل هي معطيات اجتماعية تعكس علاقات السلطة"[4]. وتبرز هنا مسألة تدبير المعطيات الرقمية، بوصفها قضية تطرح أسئلة معقدة، ذات طبيعة اجتماعية وقانونية وإتيقية[5]؛ وهي أسئلة ترتد إلى طبيعة مفهوم المراقبة الرقمية، وممارساته المعاصرة، وذلك في علاقتها بمفهومَي الحرية والحق في الخصوصية. ويمكن صياغتها كما يلي:

كيف يمكن أن نفهم ونؤوّل، أنثروبولوجيًا، المراقبة الرقمية بوصفها معيشًا إنسانيًّا؟ أتتحدّد بوصفها نقيضًا للحرية الرقمية وللحق في الخصوصية، وبوصفها سيرورة لبَنْينة الخوف المعلوماتي، أم أن خصوصية الممارسات المندرجة ضمنها قد تجعلها هي نفسها أحد تمظهرات تلك الحرية؟

(1) John Perry Barlow, "A Declaration of the Independence of Cyberspace," *EFF*, 8/2/1996, accessed on 26/6/2025, at: https://tinyurl.com/yc8n8pu6

(2) Manuel Castells, *La société en réseaux: L'ère de l'information* (Paris: Fayard, 2001), pp. 18, 173, 333.

(3) Christine M. Hine, *Virtual Ethnography* (Newcastle: Sage Publications, 2000), pp. 66–71.

(4) Deborah Lupton, *Digital Sociology* (London: Routledge, 2015), pp. 101–102.

(5) Shaul A. Duke, "AI and the Industrialization of Surveillance," *Surveillance & Society*, vol. 21, no. 3 (2023), pp. 282–286.

تسعى الدراسة لمقاربة هذه الإشكالية، انطلاقًا من أطروحة أساسية مفادها أن الفاعلية الرقمية كلّما امتدت زمنيًّا وتكثّفت، ورافقتها قوة في رأس المال السوسيومهني والرقمي، استتبعها تقليص لمساحة الخصوصية، وتغيّر على مستوى تمثّل الأفراد للحرية الرقمية، ووعي بحدودها؛ بما يفضي إلى استدماج فكرة المراقبة الرقمية وتحوّلها تدريجيًّا إلى آلية لممارسة الرقابة الذاتية القبْلية. وهو تحوّل يمكن أن نسمّيه بَنْينة الخوف المعلوماتي.

تقترح الدراسة، في سياق معالجة هذه الإشكالية، استخدام مفاهيم جديدة في تصوّر المراقبة الرقمية، منها المراقبة الرقمية الأفقية المرغوبة، والمراقبة الرقمية التعاقدية، والتي إمّا يفعّلها **الإنسان – الأثر**[6] في إطار منظومة اقتصاد الهِبة الرقمي، غداة بحثه عن الاعتراف الرقمي، وإما أن تُفرض عليه، ويترتّب عليها خلق شبكة من الإلزامات الرقمية التي تتحوّل إلى سلطة اجتماعية تمارس قهريّتها على مستخدمي وسائط التواصل الاجتماعي، وتؤدي في الكثير من الأحيان إلى إضعاف الروابط الاجتماعية والمهنية، أو تفكيكها.

أوّلًا: نحو مفهوم إجرائي للمراقبة الرقمية

ماذا أقصد أوّلاً عندما أتحدث هنا عن مفهوم المراقبة الرقمية من منظورٍ اجتماعي؟ يعني ذلك عمومًا تعريف الإنسان بوصفه أثرًا رقميًّا، والتعرّف إليه على أنه وثيقة؛ أي من خلال المعطيات الرقمية التي يمكن أن تُجمَع حوله عبر الوسائط التكنولوجية التي توظّف في تلك المراقبة، بصفة مباشرة أو غير مباشرة. ويَفترض نظام المراقبة هذا تغييرًا في منظورنا لهوية الشخص، والعمل على مقاربتها بإضافة بُعد آخر إليها؛ أي بوصفها جُماع الآثار أو "الرواسب الرقمية"[7] التي يتركها المستخدم[8] في المواقع الإلكترونية التي يمرّ بها خلال إبحاره داخل الفضاءات الرقمية، أو خلال استعماله لمختلف أنواع الأجهزة الذكية. وبناء عليه، فأَنْ نجعل الشخص موضوع مراقبة رقمية معناه تعقّب أثره الرقمي، باعتباره إشارةً أو علامةً دالة على صاحبه، بغرض رصد وضعياته التي يظهر عليها، أو تتبّع أنشطته وتحركاته. وذلك إما عبر التقاط الأثر الرقمي وتسجيله وتجميعه في آنه لحظة إنتاجه أو بعدها، أو عبر الاكتفاء بالتتبّع من دون جمع للمعطيات، كما هو الحال مع معظم جموع المراقبين من عامة الناس الذين يكتفون غالبًا بالمراقبة الصامتة أو بالمراقبة الفاعلة، لكن من دون أن يلزم عنهما، بالضرورة، جمعٌ للبيانات الرقمية حول الشخص المعنيّ بها. ويفترض نظام المراقبة الرقمية تغييرًا في البرديم الذي ينظر من خلاله الباحث إلى مفهوم الأثر، عندما يقاربه من زاوية مقولة الرقمنة، وذلك عبر

(6) Béatrice Galinon–Mélénec & Zlitni Sami (dirs.), "L'Homme–trace, producteur de traces numériques," in: Béatrice Galinon–Mélénec & Zlitni Sami (eds.), *Traces numériques: De la production à l'interprétation* (Paris: CNRS, 2013), pp. 7–19.

(7) محجوبة قاوقو، "المجتمع الافتراضي وإشكالية تجديد منهج البحث السوسيولوجي: نحو بناء نموذج لدراسة التفاعلات الإلكترونية بواسطة الحاسوب"، **عمران**، مج 8، العدد 29 (صيف 2019)، ص 91.

(8) طلبًا للاقتصاد في العبارة، سأعمل في الصفحات الموالية من هذه الدراسة على توظيف تسمية "مستخدم" User مُفردة، اختصارًا لتسمية "مستخدم وسائط التواصل الاجتماعي".

استيعاب خصوصيته بوصفه أثرًا رقميًّا، وتجنّب محاولة فهمه اعتمادًا على منهج المماثلة القائم على إسقاط خصوصيات الأثر المادي عليه.

وثمة مداخل متعددة، يمكن أن يقارب منها مفهوم المراقبة الرقمية، وعلى رأسها المقاربة السياسية – القانونية، وهو المدخل الدارج في تناول هذا الموضوع، لأنه يشكّل البعد الأساسي الذي يُطرح أمامنا عندما نستحضر هذا المفهوم. لكنني اخترتُ في هذه الدراسة أن أقارب المراقبة الرقمية من مدخلٍ قلّما يتم استحضاره، عندما يُفتح النقاش حولها؛ وهو المدخل الاجتماعي، في بعده الميكروسوسيولوجي، والذي يتحدد على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغرى (الأسرة، جماعة العمل، جماعة الأصدقاء)، لا في بعده الماكرو الذي يتحدد على مستوى الدولة أو المجتمع ككل. ويعني ذلك أنني أستهدف تناول المراقبة الرقمية بوصفها معيشًا إنسانيًّا، له تمظهراته في الحياة اليومية للأفراد، وله آثاره وتداعياته في محيطهم الاجتماعي (الأسري، المهني ... إلخ). وإنّني في مسلكي هذا أستوحي التصوّر النظري للتأويلية الرمزية، كما صاغه الأنثروبولوجي الأميركي كليفورد غيرتز، والقائم على التركيز على "أنساق الدلالة المنتجة اجتماعيًّا"، وعلى "تصوّر الثقافة الإنسانية باعتبارها أشكال التأويلات التي يضفيها أفراد المجتمع على تجاربهم"[9]. ويفيد استلهام هذا التصوّر أنني سأتعامل مع الإنتاجات الرقمية، وتعبيراتها وأشكال التفاعل المرتبطة بها، على أنها رموز ثقافية. وسأتعامل مع تأويل الأفراد لأساليب استخدامهم لوسائط التواصل الاجتماعي، وطريقة فهمهم وتأويلهم للمراقبة الرقمية، باعتبارها تمثّلاً، ورؤيةً للعالم الرقمي، تعكس تجربةً معيشة خاصة من منظور الفاعل الرقمي المنفعل، في الوقت نفسه، بأثر إنتاجات الثقافة الرقمية.

بناءً على ما سبق، يقوم التأويل الثقافي للتجربة الرقمية، كما أقترحه في هذه الدراسة، في المستوى الأول، على الانطلاق من تأويلات الأفراد أساليب استخدامهم لوسائط التواصل الاجتماعي وللمراقبة الرقمية؛ وهذا هو المستوى الذي سأنقل فيه تصريحات شركاء البحث، كما هي بالأشكال التي عبّروا بها عنها. أما المستوى الثاني من التأويل، فهو الذي ستترجمه البناءات المفاهيمية التي سأعمل على صياغتها، اعتمادًا على تلك التأويلات المتجذّرة ميدانيًّا. وهذا ما يفسر اختياري عدم تخصيص مساحة مستقلة من هذه الدراسة للتعريف بمختلف المفاهيم الموظفة داخلها (باستثناء مفهوم المراقبة الرقمية لكونه المفهوم المحوري في الدراسة)، لأن التوجّه المنهجي الذي سيحكمني، في انسجامٍ مع هذه المقاربة التأويلية المختارة، لا يقوم على أساس إسقاط مفاهيم جاهزة على الموضوع المدروس، بل على انبثاق المفهوم وتولُّده من داخل المتن، خلال سيرورة تحليل المعطيات، وعبر تكثيف الدلالات المستوحاة من تصريحات شركاء البحث، واختزالها في مفهومٍ تركيبي جامع. ويعني ذلك أن تُبنى المفاهيم تدريجيًّا، من خلال عملية تجريد ارتقائية، تنطلق من التجارب الحسّية المباشرة لشركاء البحث، فتقوم عليها في بناء معناها، واستنادًا إلى الدلالات التي ينتجونها بوصفهم فاعلين اجتماعيين

(9) Clifford Geertz, *Islam Observed, Religious Development in Morocco and Indonesia* (Chicago: Phoenix Edition, 1968), pp. 91, 95.

يؤولون بأنفسهم تجاربهم الرقمية الخاصة مع المراقبة الرقمية، كما عاشوها، وكما يتمثّلونها، بحيث تكون مادة للتأويل الأنثروبولوجي.

ثانيًا: منهج سيرة الحياة الرقمية الانعكاسية والانتقال من شبكة الإنترنت إلى شبكة العمل

سأعتمد في تناولي موضوع الدراسة على مقاربة كيفية – جيليّة، تقوم على بحثٍ في السِّير الحياتية الرقمية لعيّنة مختارة من مستخدمي وسائط التواصل الاجتماعي المغاربة، بجهة الرباط سلا القنيطرة، تضمّ عشرة أفراد، نصفهم ذكور ونصفهم إناث، من خلفيات اجتماعية وثقافية وسوسيومهنية مختلفة، وينتمون إلى أجيال متباينة، بدءًا من جيل خمسينيات القرن العشرين، وصولاً إلى جيل الألفية الثالثة. ولقد راعيت هذا الاختلاف في تركيب العيّنة على مستوى الجنس والسن والوضعية الثقافية والسوسيومهنية، قصد معرفة إلى أيّ حدّ قد تتدخل هذه المحددات في تشكيل آراء الأفراد وتمثّلاتهم لمسألة المراقبة الرقمية، وفي فهم الكيفية التي يدبرون بها إشكالاتها، وكيفية تأثيرها في حياتهم اليومية وفي أشكال استخدامهم لوسائط التواصل الاجتماعي. وأودّ التنبيه هنا إلى أن عيّنة البحث جرى تقسيمها إلى صنفين: العيّنة الرئيسة، وهي العيّنة المشار إليها سلفًا، والتي تضمّ عشرة أفراد شكّلوا المصادر المباشرة للمعطيات؛ وعيّنة ثانوية استعنتُ بها، لضرورات منهجية، ارتباطًا بمقتضيات تقاطع السِّير؛ ذلك لأنني وجدتُني مدعوة، بين الفينة والأخرى، إلى الرجوع إلى أشخاص – مصادر من أقرباء أفراد العيّنة الرئيسة، من أجل الحصول على إضاءات بخصوص بعض المعطيات، أو دعمها وتكثيفها؛ لكون سير العيّنة الرئيسة تقاطعت معهم. ويتعلق الأمر بثلاثة أفراد، كلهم إناث. وسأحيل إليهن في الهامش باسم "مصدر داعم للعيّنة الرئيسة". وأودّ أن أشير إلى أنه، باستثناء فرد واحد في العيّنة (رجاء)، فإن بقية الأفراد يشكّلون وحدات، أي عائلات، عددها أربع. ويبرر هذا التقاطعات القائمة بين سيَرهم، والتي فرضت هذه البنية التي تبدو عليها العيّنة، والتي سيقف عليها القارئ داخل المتن.

1. منهج سِيَر الحياة الرقمية الانعكاسية: نحو بناء مفهومي

تتمثّل قيمة هذه الدراسة في خصوصية المقاربة المنهجية المقترحة فيها، والقائمة على اعتماد منهج ناشئ، هو منهج سيرة الحياة الرقمية الانعكاسية؛ وأعتبره تكييفًا لمنهج سيرة الحياة المتجذّرة رقميًّا. يتحدد منهج سِيَر الحياة الرقمية، عمومًا، بوصفه منهجًا يقوم على دراسة سِيَر يجري سردها وعرضها اعتمادًا على وسائط رقمية من قبيل التطبيقات والمنصات الرقمية[10]. ويعود هذا المنهج في أصله إلى تقنية السرد القصصي الرقمي التي تطورت في تسعينيات القرن الماضي بالولايات المتحدة

(10) Silvia Rossi et al., "Digital Life Stories of People with Cancer: Impacts on Research," *International Journal of Qualitative Methods*, vol. 23 (2024), pp. 1–12.

الأميركية[11]، ولكنه لم يلج الحقل الأكاديمي إلا مع بداية العقد الأول من هذه الألفية[12]، حيث برزت إشاراته الأولى سنة 2001 في الأبحاث السوسيولوجية لكلٍّ من كين بلومر[13]، وبرايان روبرتز[14]. وبقدر ما شكّل هذا النمط الجديد من سِيَر الحياة فرصة بالنسبة إلى البحث الأكاديمي، نظرًا إلى تعدد أدواته وتنوعها، ومساهمته في تغيير الصورة النمطية السائدة حول مؤلِّف السيرة، فإنه طَرح عدداً من الإشكالات المنهجية والإتيقية مثل الإشكال المرتبط باختيار أفراد عيّنة البحث وحصرها، ومدى أصالة سيرة الحياة الرقمية وصدقيتها[15]، وغيرهما من الإشكالات الأخرى التي ترتبط بنظام اشتغال الفضاء الرقمي، وخصوصية الهويات الرقمية.

وتكشف لنا الأدبيات التي تناولت سيرة الحياة الرقمية، إجمالاً، أنّ الباحثين قد تناولوها بوصفها قصة حياتية تُروى على لسان صاحبها، وتُمرَّر وتُنشر عبر وسيط رقمي متعدد الأدوات. لكنّ المنظور الذي سأقدّم به سيرة الحياة الرقمية ينطلق من النظر إليها على أنها سيرورة ثنائية، يمتزج فيها الداخل بالخارج. فهي تقوم على مَوْضعة شريك البحث لتجربته الرقمية المعيشة قبْليًّا، وأخذه مسافة منها، ثم إعادة سردها وتقييمها. وبناءً عليه، فإنّني أعرّف إجرائيًّا منهج السيرة الحياتية الرقمية – الانعكاسية، بوصفه منهجًا يقوم على إلقاء الضوء، من الخارج، على تلك التجربة المعيشة رقميًّا؛ وذلك عبر النظر إليها على أنها سيرورة زمنية ممتدة، تتخللها منعطفات وقطائع ولحظات مدٍّ وجَزْر، تساهم في تشكيل تمثّلات الفرد حول التكنولوجيا العالية الدقة وإعادة تشكيلها، كما تؤدي إلى إعادة صياغة رؤيته للعالم، وذلك عبر إعادة ترتيب العلاقة التي يقيمها بين الفضاءين الافتراضي (الرقمي) والمادي (الفيزيقي). ولا أتناول الانعكاسية، في هذا المستوى من البحث، بوصفها سيرورة تقوم على "تضمين الباحث لسيرته الذاتية داخل البحث"[16]، بل بوصفها سيرورة تقوم على تضمين شريك البحث لتجربته الرقمية في روايةٍ شفوية يتقاسمها مع الباحث بصفة مباشرة، من دون وسيط رقمي. ويعني ذلك أنّني أنظر إلى السيرة الحياتية الرقمية – الانعكاسية على أنها سيرة ذاتية حول السيرة المتجذِّرة رقميًّا؛ أي أنّ الأولى لاحقة للثانية وتُبنى عليها، وتعيد إنتاجها من خلال عملية التّبئير السّردي. هذا مع إمكانية توظيف "السيَر الذاتية المتقاطعة"[17]، التي قد يستحضرها الراوي خلال السرد، فينفتح عليها الباحث، لتعميق معطياته وتكثيفها.

(11) Aline Gubrium, "Digital Storytelling: An Emergent Method for Health Promotion Research and Practice," *Health Promotion Practice*, vol. 10, no. 2 (2009), pp. 186–191.

(12) Louise Culot, "Le récit de vie numérique: Un outil pour l'alpha?" *Journal de l'Alpha*, no. 218 (2020), pp. 63–75.

(13) Kin Plummer, *Documents of Life 2: An Invitation to a Critical Humanism* (London: Sage, 2001), pp. 97–99.

(14) Brian Roberts, *Biographical Research* (London: Open University Press, 2001), p. 174.

(15) Michael Hardey, "Digital Life Stories: Auto/ Biography in the Information Age," *Auto/ Biography*, vol. 12, no. 3 (2004), p. 201.

(16) أنتوني غيدنز وفيليب صاتن، **مفاهيم أساسية في علم الاجتماع**، ترجمة محمود الذوادي (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018)، ص 69.

(17) فضيل دليو، "المنهج البيوغرافي: استعمال السير الذاتية والحياتية في علم الاجتماع"، **مجلة العلوم الاجتماعية**، مج 27، العدد 2 (صيف 1999)، ص 141–167.

وتبرّر هذا الاختيار تجربتي السابقة في الاشتغال بالفضاء الرقمي قرابة عقد ونصف العقد من الزمن، حيث قاربْتُ قضاياه، كيفيًّا وكميًّا من زوايا مختلفة[18]. لكن الحلقة التي ظلت مفقودة بالنسبة إليَّ هي السيرورة الفردية الممتدة، أي ذلك المسار الذي يقطعه كل شخص ضمن تجربته الشمولية في الفضاء الرقمي كما عاشها وخبِرها بعمقها وكثافتها، وكما يحكيها ويعيد صياغتها باستمرار، في إطار نوعٍ من التأمل الانعكاسي، بعد أن يقيم معها مسافة تفكير موضعيّة لحظة سرده وتقييمه لها من الخارج. وإنّني لأعتقد أنّ هذا النوع من السرد، الحميمي والمباشر، هو الذي في إمكانه أن يسمح بفهم ممارسة وجودية معقّدة تتمثّل في تجربة الحرية الرقمية وما تتضمّنه من حدود وإشكالات. ويقتضي فهم هذه الممارسة بكل خصوصياتها أن يلج الباحث إلى عمق تجربة شريك البحث بكل تفاصيلها الصغيرة وحميميتها. وهذا النوع من الانفتاح الفهمي هو الذي يحققه منهج سيرة الحياة الرقمية الانعكاسية.

لا بد من أن أشير هنا إلى أنّ الأمر لا يتعلق في هذه الدراسة بكتابة قصة حياة شخصٍ ما، من بدايتها إلى نهايتها، كما هو الحال في كتب السيرة المألوفة، والتي تظل جنسًا أدبيًّا قائمًا بذاته، له خصوصياته ومقامه الخاص الذي يحرص فيه المؤلف على تتبّع سيرة حياة الراوي لحظة بلحظة، وإعادة نقلها كما هي. ليس هذا هو غرض هذه الدراسة. لأن ما أقصده هو التعامل مع سيرة الحياة الرقمية، باعتبارها "سيرورةً ومنتجًا في الآن نفسه"[19]. ويعني ذلك التعامل معها، بوصفها عُدّة بحثية ثلاثية الأبعاد: تقدّم للباحث إطارًا منهجيًّا لمقاربة موضوع المراقبة الرقمية، وتمكّنه من تقنيةٍ لجمع المعطيات الميدانية، وتوفّر له مادةً أولية يعيد الاشتغال بها، قصد رصد المحطات الكبرى في سيَر الرّواة على اختلافها، والوقوف عند المنعطفات والقطائع التي ميزت حياتهم. ويقوم هذا الاشتغال، في مرحلة التحليل وبَنْينة النص، على إعادة التوليف بين مختلف السِيَر الرقمية المحكية في نصٍّ واحد تركيبي، يركّز على الترابطات القائمة بين عناصر السِيَر المُشتَغل بها والتقاطعات القائمة بينها، كما يُبرز نقاط الاختلاف؛ عبر مقارنةٍ بين السير المحكية في تعدّديتها، واستجماعٍ انتقائي للعناصر المشتتة داخلها، وإعادة ترتيبها داخل بنيةٍ واحدة، على نحوٍ متّسق ودالّ. وهذا النوع من العمل التركيبي، هو ما ستسمح به مقولة الجيل بوصفها مقولة تصنيفية، تتيح ذلك التوليف، عبر استنباط الخصائص المشتركة بين أفراد كل جيل، وتحديد ما يميزهم من أفراد بقية الأجيال الأخرى في تعاملهم مع وسائط التواصل الاجتماعي، وفي تمثّلهم لموضوع المراقبة الرقمية.

2. نظرية الفاعل - الشبكة

أنطلق في منهج الاشتغال الذي أقترحه من عُدّة تقنية للعمل، مستوحاة من نظرية "الفاعل – الشبكة" بالمعنى الذي يعرّفها به صاحبها برونو لاتور؛ أي بوصفها نظرية لا تخبرك هي نفسها إن كانت توجد

(18) ينظر: محجوبة قاوقو، "النّتْنُوغرافيا منهجًا للبحث السوسيولوجي والأنثربولوجي: من الملاحظة الإلكترونية إلى إعادة كتابة الأثر الرقمي"، **المجلة الأفريقية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، العدد 5 (2023)، ص 33–34.

(19) Carolyn Ellis, Tony E. Adams & Arthur P. Bochner, "Autoethnography: An Overview," *Historical Social Research*, vol. 36, no. 4 (2011), pp. 273–290.

ترابطات ما داخل خطاب الفاعلين، ولا حتى إن كانت ثمة ترابطات شبكية أو غير شبكية بينهم، بل "تقول لك، فقط، كيف تترك للفاعلين مجالاً للتعبير عن أنفسهم"[20]؛ ثم تعمل بنفسك – أنت الباحث – على كشف تلك الترابطات عبر الوصف الدقيق والمكثّف، وعبر تحويل النص ذاته إلى مختبر تجريبي للبحث والبناء[21].

وعندما أربط منهج سيرة الحياة الرقمية بنظرية الفاعل – الشبكة، فإنني أجمع بين المعنيَين اللذين يفصل لاتور بينهما عندما يحاول شرح نظريته، فيميز فيها بين الشبكة التي يكشف عنها الوصف والشبكة التي تشكّل موضوعًا للوصف. ويفيد ذلك أن منهج سيرة الحياة الرقمية، كما أوظّفه هنا، يشكّل انفتاحًا في مستواه الأول على موضوع استخدام الفاعلين لشبكة الإنترنت، وانفتاحًا في المستوى الثاني على السير المحكية بخصوص تمثلات الأفراد لذلك الاستخدام؛ أي الترابطات التي يقيمونها بين مختلف العناصر التي يستحضرونها في حكْيِهم، بشريةً أكانت أم غير بشرية. وهذا التحليل لطبيعة المنهج البحثي الذي سأعتمده هو الذي يبرر حديثي في عنوان هذا المحور عن الانتقال من شبكة الإنترنت Network إلى شبكة العمل Work–net بوصفها منهجًا في التحليل؛ وذلك بالمعنى الذي يحيل إليه لاتور في تمييزه بين هذين المفهومين.

وأشير هنا إلى أنني، من أجل تفعيل منهج الدراسة، اخترتُ الاشتغال بعيّنة أفرادها معروفون لديّ مسبقًا (أقارب، أصدقاء، جيران)، وتجمعني بهم أُلفة؛ وذلك لتحقيق غرضين: الأول حتى تتاح لي معاينة مساراتهم عن قرب، والثاني هو التلاؤم مع خصوصية البحث في مفهوم المراقبة الرقمية، والذي يطرح كثيرًا من التوجّس والحيطة والحذر لدى الأشخاص؛ وهو الأمر الذي قد يصبح معه الباحث نفسه موضوع شك وريبة، مما يقلص من فرص بوح شركاء البحث بما يفيده في بحثه. وعلى ذلك، فقد اعتمدتُ في تتبّع السِيَر الحياتية الرقمية للأفراد على تقنية الملاحظة بالمشاركة القائمة على الانغماس التام في محيط شركاء البحث، على امتداد ما يقارب السنة (بداية تشرين الأول/ أكتوبر 2023–بداية آب/ أغسطس 2024)، مدعومة بتقنية المقابلة شبه الموجَّهة، لتعميق القول في بعض عناصر الملاحظة التي بدت لي في حاجة إلى المزيد من التوضيح؛ مع الحرص فيها على فتح المجال للرّاوي كي يتحدث بكل حرية عن تجربته المعيشة. وهو ما يعني أن المقابلات، وإنْ كانت تبدأ مُوجَّهة فإنها كانت تنحو، في نمط إدارتها، لتتخذ شكل "مقابلات سردية"[22]، تتناسب وخصوصية المنهج المعتمد في الدارسة والبردايم العام الموجّه لها.

تفيد مختلف خصوصيات المنهج المقترح في هذه الدراسة بأنّها تندرج ضمن حقل الأنثروبولوجيا الرقمية القائمة على منهج الإثنوغرافيا الذاتية، التي يشكّل فيها الباحث طرفًا في مجتمع البحث، وجزءًا

(20) Bruno Latour, *Reassembling the Social: An Introduction to Actor–Network–Theory* (Oxford: Oxford University Press, 2007), pp. 142–156.

(21) Ibid., pp. 12–156.

(22) لمزيد من التوسع بهذا الخصوص، ينظر: حسن احجيج، **البحث السردي في العلوم الاجتماعية: نظريات وتطبيقات**، سلسلة التجديد في البحث الاجتماعي، 1 (مراكش: مؤسسة آفاق، 2023) ص 47–64.

من الأحداث. وبالفعل، لقد كنتُ مواكبة لمعظم الوقائع التي يسردها أفراد عيّنة البحث، وشاهدة عليها. ولكنني، في عرضي لما يهمّ البحث من حصيلة معايشتي لهم، سأحرص على نقل تجاربهم في احترام تامّ لإتيقا البحث، محافِظة على المسافة اللازمة في نقل خطاباتهم بلغتهم[23]، وعلى سرّية هوياتهم، وحريصة على عدم الكشف عن أسمائهم الحقيقية، وعلى تفادي التصريح "الفجّ" بمعطيات حسّاسة قد تؤدّي إلى الإضرار بهم أو بالغير.

ولم تقم منهجية البحث التي سلكتها في اشتغالي ميدانيًّا على لقاء شركاء البحث مرة واحدة مفردة بحيث ينتهي الاتصال البحثي معهم بنهاية اللقاء، بل قامت على أساس التتبع الميداني لمساراتهم عن قرب في فترة زمنية ممتدة، من موقع الملاحِظة - المشارِكة، تتبّعًا شكّل جزءًا من تلك المسارات ذاتها، باعتباري عنصرًا منخرطًا فيها. لذلك سيلمس القارئ، خلال عرض مقتطفات من تلك السير، ذلك التداخل القائم بين الباحثة وشركاء البحث، بما يكشف عن لحظاتِ بوحٍ خاصة وحميمية تقاسمتها معهم، وسأنقلها داخل النص بإذن صريح ومستنير منهم. وليس في ذلك خرق لأخلاقيات البحث، بل هو جزء لا يتجزأ من الممارسة الإثنوغرافية الذاتية، كما وضع أسسها ومارسها منظّروها والباحثون المتخصصون فيها[24]، والتي تقتضي أوّلاً، بوصفها منهجًا كيفيًّا، الغوصَ في عمق تجارب شركاء البحث، وحثّهم على البوح. وتقتضي، ثانيًا: بروز ذات الباحث داخل المتن على نحوٍ واضح وصريح، من دون مواربة؛ والتصريح بالأثر الذي يُحدثه وجوده في مجتمع البحث، والكشف عن عواطفه وانطباعاته؛ عوض تجاهلها، أو التعامل معها كما لو كانت غير موجودة[25]، كما جرت العادة في الإثنوغرافيا الموضوعية. ويعني ذلك أن الباحث، وهو ينقل سِيَر الأشخاص، يتصرّف كما لو كان يحكي مقطعًا من سيرته هو الخاصة، لا البحثية فحسب، وعلى نحوٍ يتقاطع فيه الذاتي بالموضوعي، من دون أن يأتي أيٌّ منهما على حساب الآخر فيُلغِيَه. وعلى ذلك، تكون إعادة الحكي مُوجَّهة نظريًّا ومنهجيًّا، توظّف استراتيجيات أسلوبية - إستطيقية في الكتابة، تسمح بجعل القارئ "يجرِّب التجربة"[26]، بأن يصير جزءًا من المشهد، كما لو كان يعاين سيرورة تولُّد الأفكار، والمشاعر، والأفعال، في لحظات التفاعل بين الباحث وشريك البحث[27]. لا يتعلق الأمر إذًا بحَكْي أجزاء مما قيل فحسب، بل بإعادة تشخيصها ومسرحتها عبر فعل الكتابة.

(23) أشير إلى أن شركاء البحث استعملوا خلال المقابلات لغتهم اليومية أي الدّارجة المغربية، لكنني في الاقتباس سأنقل تصريحاتهم باللغة العربية الفصحى (من دون أي تغيير في المعنى) كي تكون مفهومة لجميع القراء.

(24) ينظر بهذا الخصوص على سبيل المثال:

Victor Witter Turner & Edward M. Bruner, *The Anthropology of Experience* (Urbana/ Chicago: University of Illinois Press, 1986); Carolyn Ellis, *The Ethnographic I: A Methodological Novel About Autoethno–graphy* (Walnut Creek: Altamira Press, 2004), p. 711; Ellis, Adams & Bochner, pp. 273–290.

(25) Ellis, Adams & Bochner.

(26) Ellis, p. 711.

(27) Ibid., p. 142.

ثالثًا: من البانوبتيكون الرقمي إلى جينيالوجيا الذكاء الاصطناعي

يُعدّ كتاب رول جيمس الصادر في بداية سبعينيات القرن العشرين أول كتاب قارب مفهوم المراقبة ارتباطًا بمجال الرقميات[28]. وعلى الرغم من أن دراسته اتخذت طابعًا إمبريقيًّا وأكدت نفسها بوصفها الدراسة الأولى المرجعية في هذا الباب، فقد لزم انتظار صدور كتاب ميشيل فوكو حول **المراقبة والعقاب**[29]، ليتشكّل تيارٌ من المنظّرين السوسيولوجيين الذين تعاملوا مع موضوع المراقبة على نحوٍ جادّ[30]. وإن ما يلاحظه المراجع للأدبيات المتراكمة، حول موضوع المراقبة عمومًا، هو أنّ كتاب فوكو غالبًا ما يشكّل الأرضية النظرية التي يتمّ الانطلاق منها، خاصة استعارة البانوبتيكون Panopticon المستوحاة من جيرمي بنثام Jeremy Bentham، والتي ألقى من خلالها فوكو الضوء على مظاهر المراقبة، وقعّد بذلك للإطار النظري الذي يسمح بفهم طرائق اشتغال أنظمتها في المجتمعات الحديثة والمعاصرة، في علاقتها بمفهوم السلطة. وما لبث الباحثون في العلوم الاجتماعية أن شرعوا في استثمار هذا الإرث الفلسفي في دراسة مفهوم المراقبة، ارتباطًا بالتحولات التكنولوجية الجديدة[31]. فقد بدأ الحديث، منذ منتصف الثمانينيات، عن مفهوم البانوبتيكون الإلكتروني Electronic Panopticon[32] وبَعدها مفهوم "السوبربانوبتيكون" Superpanopticon في التسعينيات[33] و"الأوليغوبتيكون" Oligopticon[34] خلال الألفية الجديدة، وغيرها من المفاهيم الأخرى التي أصبحت تنضوي ضمن الدراسات ما بعد البانوبتيكونية.

ويندرج كتاب **العين الإلكترونية** في هذا الإطار؛ حيث سعى من خلاله دافيد ليون لموقعة المراقبة الإلكترونية[35] داخل سياق تاريخي واجتماعي شمولي، يتجاوز حدود الإطار الاستخباراتي والأمني الضيّق، محاولاً إبراز كيفية تشكّلها، والتساؤل عن الجديد فيها ومستقبلها وتداعياتها[36]. يؤكد ليون أن المراقبة الاجتماعية ليست بالأمر الجديد؛ فحتى وإن لم تتمّ صياغة مفهوم مجتمع المراقبة إلاّ في

(28) James B. Rule, *Private Lives and Public Surveillance: Social Control in the Computer Age* (New York: Schocken Books, 1974).

(29) Michel Foucault, *Surveiller et punir: Naissance de la prison* (Paris: Édition Gallimard, 1975).

(30) David Lyon, *The Electronic Eye: The Rise of Surveillance Society* (Minneapolis/ London: University of Minnesota Press, 1994), pp. 6–7.

(31) Thomas Mathiesen, "The Viewer Society: Michel Foucault's 'Panopticon' Revisited," *Theoretical Criminology*, vol. 1, no. 2 (1997), pp. 215–234; Diana R. Gordon, "The Electronic Panopticon: A Case Study of the Development of the National Criminal Records System," *Politics & Society*, vol. 15, no. 4, (1987), pp. 483–511; Tom Brignall, "The New Panopticon: The Internet Viewed as a Structure of Social Control," *Theory & Science*, vol. 3, no. 1 (2002), pp. 1527–1558.

(32) Gordon, pp. 483–511.

(33) Mark Poster, *The Mode of Information* (Chicago/ London: University of Chicago Press, 1990), p. 93.

(34) Latour, p. 179.

(35) توخيًا للأمانة العلمية في نقل المفهوم، أستخدم هنا تعبير "المراقبة الإلكترونية" ترجمةً لـ "Electronic Surveillance"، وهو المفهوم الذي استخدمه دافيد ليون في كتابه. مع الإشارة إلى أن توصيف "إلكتروني" يتناسب مع مستوى تطور تكنولوجيا الإنترنت في حقبة التسعينيات.

(36) Lyon, p. 4.

سنة 1985، فإن تاريخ المراقبة نفسها، منظورًا إليها بوصفها ممارسة اجتماعية، طويل[37]. ثمّ إنّ البعد الإلكتروني فيها ليس بالأمر الطارئ ولا المستجد هو أيضًا؛ إذ إنه شكّل مكوّنًا أساسًا في عمليات الاستخبارات والتجسس على امتداد عدة عقود. ولكن الجديد الذي سعى ليون لإبرازه، هو الحد غير المسبوق الذي بلغته ممارستها على الأشخاص العاديين الذين أضحوا، وهُم منغمسون في سياق حياتهم اليومية، يجدون أنفسهم مندرجين داخلها؛ بحيث إنّ ما كان يشكّل استثناء أمسى هو القاعدة[38].

إن فكرة البانوبتيكون الكلاسيكية لبِنثام، منظورًا إليه على أنه فضاء مخصوص للسجناء، ثم فكرة الأجساد البشرية المُنتزعة جغرافيًّا، والتي تتحول إلى "ذوات تراكمية تُبنى عبر استثمار المعطيات المضاعفة"[39] لتتحول بعد ذلك إلى موضوع للمراقبة، هما اللتان تُرجمتا لاحقًا على نحو تركيبي وفعلي، من خلال الموقع الإلكتروني "البانوبتيكون الرقمي" الذي شكّل موضوع دراسة بيري غودفري سنة 2022[40]. ويمكن اعتبار هذا التوجه البحثي امتدادًا للدعوى التي سبق أن أطلقها دافيد ليون سنة 2002 في مقالته الافتتاحية للعدد الأول من مجلة **المجتمع والمراقبة**؛ ذلك أنّ الأبحاث التاريخية، ضمن الدراسات حول المراقبة، ظلّت إلى حدود نهاية العقد الأول من هذا القرن مهملة[41]. تلك هي الملاحظة التي أوردها ليون في افتتاحيته التي أكد فيها أن بردايمات المراقبة ونماذجها، التي كانت صالحة في وقت محدد من الماضي، لم تعد صالحة اليوم[42]. لذلك، فإن المنهج المفتاحي للإجابة عن الأسئلة التي أصبحت تطرحها المراقبة هو، في نظره، المقاربة التاريخية والمقارِنة التي من شأنها السماح بمعرفة أصل الممارسات المراقباتية التي أضحت شائعة اليوم، والبحث إن كانت موجودة في الماضي وفهم الأسباب الكامنة وراء التغير الذي حدث[43].

وتشكّل فكرة البانوبتيكون الرقمي، التي استثمرها غودفري بحثيًّا، أحد التمظهرات الإجرائية لهذا المنهج التاريخي، الذي دعا إليه ليون، لكن عبر ترجمته بصيغة مختلفة، تقوم على التنقيب في جماع الهويات الرقمية للسجناء، وإعادة تشكيلها من خلال التراكم التدريجي للمعطيات المستقاة من البحث في سِيَر أصحابها، لتتحوّل تدريجيًّا إلى أرشيف رقمي، يصبح هو ذاته مادة للمراقبة، والتتبّع، والتحليل، والمقارنة[44]. ولقد سمحت هذه المادة المجمَّعة ببروز ما يسمّيه غودفري "البروزوبوغرافيا

(37) Ibid.

(38) Ibid.

(39) Poster, p. 97.

(40) Barry Godfrey, "The Digital Panopticon: Contemporary Investigative Methods in Historical Research," in: Michael Mair, Robert Meckin & Mark Elliot (eds.), *Investigative Methods: An NCRM Innovation Collection* (Southampton: National Centre for Research Methods, 2022), pp. 66–74.

(41) Josh Lauer, "Surveillance History and the History of New Media: An Evidential Paradigm," *New Media & Society*, vol. 14, no. 4 (2012), pp. 566–582.

(42) David Lyon, "Surveillance Studies: Understanding Visibility, Mobility and the Phenetic Fix," *Surveillance & Society*, vol. 1, no. 1 (2002), pp. 1–7.

(43) Ibid.

(44) Godfrey, pp. 66–74.

التراكمية" Aggregated Prosopography أو بروزوبوغرافيا المعطيات الضخمة التي تقوم على البحث عن الأنماط والتقاطعات داخل سِيَر مئات أو آلاف الأفراد، ودراستها بصفة دقيقة، عبر استثمار المعطيات الكمية المتوافرة حولهم[45].

ولئن كان الذكاء الاصطناعي يُقدَّم اليوم، بوصفه الصيغة الأكثر جِدَّة وتطورًا في أنظمة المراقبة بما يجعلنا نتحدث عن ظهور برادايم جديد فيها، فإن الدراسات الأكثر جدة في هذا الخصوص، تَعتبر هي أيضًا أنه لا ينبغي تناول هذه التكنولوجيا بمعزل عن المقاربة التاريخية. ويعرض آيرون غلاك–تالر هذا التصوّر في مقالته الصادرة سنة 2023، والتي ينطلق فيها من استحضار الدعوى التي أطلقها ليون، من أجل صياغة ما اعتبره جينيالوجيا مختصرة ومركزة للذكاء الاصطناعي، عبر التأصيل له داخل الإرث التاريخي للمراقبة، مؤكدًا أن هذا النوع من الدراسة التقاطعية من شأنه أن يمكّن الباحثين من إعادة التقييم النقدي للصيغ التي فُهم بها ذلك التقاطع ما بين السِيَر، وما ترتّب عليه من نتائج[46]. ويفسر غلاك–تالر توجُّهَه البحثي بالرغبة في استجلاء الأخطار المحتملة، التي قد تنجم عن اعتماد دراسة لاتاريخية، وادعاء جدّة الممارسات المراقباتية أو كونيّتها التاريخية؛ ويحصر هذه الأخطار في خطرَين مركزيَّين هما: النزعة اللاتاريخية التي قد تسقط صاحبها في خطر تقديم أشكال من الفهم المتجاوزة حول المراقبة على أنها ممارسات جديدة؛ ثم النزعة الآنية التي قد تؤدي إلى تجاهل مختلف المصادر التاريخية التي يفترض أن تكون الممارسات المراقباتية الجديدة قد نشأت عنها. وبناء عليه، ولتفادي ترويج هذا الخطاب غير النقدي، ينبغي إيلاء الإرث التاريخي للمراقبة القائمة على الذكاء الاصطناعي اهتمامًا خاصًا[47].

تضعنا دراسة غلاك–تالر أمام مفهوم أساسي، يعتبره حلقة الوصل المركزية التي تتقاطع عندها ممارسات المراقبة مع الذكاء الاصطناعي، هو "تَعرُّف الأنماط" Patterns Recognition. ذلك أنّ جينيالوجيا تقنيات الذكاء الاصطناعي تفيد اليوم أن نشأة هذه التقنيات ارتبطت تاريخيًّا بتحوّل إبستيمي في مفهوم الأنماط الذي خرج في أصله من صُلب الدراسات المبكرة حول الثقافة في حقل الأنثروبولوجيا، وكذا الدراسات السيكولوجية، وأُدمج في الحقل التقني خلال منتصف الخمسينيات عبر صيغة جديدة هي تَعرُّف الأنماط؛ وهو الاقتراض المفهومي الذي سمح بتحوّل المفهوم إلى موضوع تقني للمعرفة العلمية[48]. فكما أنّ لمجال الإنسانيات أنماطه الثقافية، فللفضاء الرقمي كذلك أنماطٌ يمكن تعرُّفها.

ولئن تحوّل العالَم المرئي إلى "أنماط مبنية على المعطيات، جاهزة للتصنيف"[49]، فإن ما تفيده الدراسة الجينيالوجية للذكاء الاصطناعي، هو أن الحقل التقني المخصَّص لذلك مرتبط أشد الارتباط بأولويات المراقبة الدولتية؛ إذ يكشف تاريخ تعرُّف الأنماط أن عدداً من تحيّزات أنظمة المراقبة المعتمِدة على الذكاء الاصطناعي متجذر في تاريخ طويل من التصنيف. وعلى ذلك، فالقول إن

(45) Ibid.

(46) Aaron Gluck–Thaler, "Surveillance Studies and the History of Artificial Intelligence: A Missed Opportunity?" *Surveillance & Society*, vol. 21, no. 3, (2023), pp. 259–268.

(47) Ibid., p. 260.

(48) Ibid., p. 261.

(49) Ibid., p. 263.

ابتكار أنظمة الذكاء الاصطناعي، هو الأساس في بروز إمكانات جديدة للمراقبة، يندرج بالنسبة إلى غلاك-تالر ضمن سرديات الحتمية التاريخية؛ إذ إن العلماء، حتى قبل اختراع الذكاء الاصطناعي، استخدموا مفاهيم ونماذج جديدة للجمع بين المراقبة وتقنيات التصنيف المُؤتْمَتة[50]. وكانت تلك، هي البدايات الأولى لخلق "مجتمع المراقبة الرقمي"[51]، كما نعرفه اليوم.

وقد استلهمَت بعض الأبحاث العربية العُدّة المفاهيمية السابقة، وشرعَت خلال السنوات الأخيرة في تطبيقها، وإنْ على نطاقٍ ضيّق، على بعض مجتمعات بلدان شمال أفريقيا، كما هو الشأن مع دراسة أسماء حمايدية حولَ موضوع "المراقبة ما بعد البانوبتيك للدول العربية على مواقع التواصل الاجتماعي"[52]، والتي حاولت من خلالها إلقاء الضوء على الممارسات الأمنية الجديدة للدول العربية تجاه مواقع التواصل الاجتماعي، وخاصة في الحالة المصرية، عبر استثمار العدّة المفاهيمية للتيار ما بعد البنيوي، ممَثّلة في إسهامات ميشيل فوكو وجيل دولوز. ويمكن اعتبار هذه الدارسة أقرب ما تكون إلى قراءة في الأدبيات؛ على اعتبار أن المعطيات الضئيلة جدًّا التي قُدّمت فيها بشأن الحالة المصرية لم تَقُم على دراسة ميدانية، بل على استقراء معطيات عامة جدًا استندت فيها الباحثة إلى بعض الكتابات السابقة حول هذا الموضوع. ويندرج أيضًا في هذا السياق مقال عيدة بلعابد، الذي قدمت فيه مقاربة قانونية مقتضبة لموضوع المراقبة "الإلكترونية" في المجتمع الجزائري. وقد سعت لإبراز الكيفية التي "وازن بها المشرع الجزائري بين حتمية الوقاية من الجرائم المتصلة بالتكنولوجيات الحديثة وبين ضمان الحق في الخصوصية المكفول للأفراد دستورًا وقانونًا"[53]. وتنطبق على هذا المقال الملاحظة السابقة نفسها؛ أي إنه لم يقم على دراسة ميدانية، بل جاء تركيبًا مقتضبًا لبعض الأدبيات الخاصة بمفهوم المراقبة الإلكترونية، مع محاولة رصد بعض آثارها على الحق في الخصوصية.

إن ما يمكن قوله، إجمالاً، هو أن القاسم المشترك بين الأدبيات التي عرضناها، وإن كانت تعالج بصفة مباشرة الموضوع الذي نستكمل الخوض فيه في بقية هذه الدراسة، هو أنها تناولت المراقبة الرقمية من زوايا معرفية مختلفة، ولكنها ظلت بعيدة عن التناول الأنثروبولوجي؛ حيث اختار أصحاب تلك الدراسات مداخل أخرى لمقاربة الإشكالات التي طرحوها، تتماشى وطبيعة مجالاتهم التخصصية، أو اختياراتهم المعرفية والمنهجية. فقد عالجت بعض الدراسات الفرنكفونية والأنكلوساكسونية، التي أشرنا إليها، موضوع المراقبة الرقمية من زاوية تاريخية (غودفري بيري)، بينما قُوربت، في الغالب الأعم، داخل بقية الدراسات، من داخل حقل السوسيولوجيا. ولئن ظلت هذه الفئة الثانية قريبة من التناول الأنثروبولوجي، على اعتبار القرابة المعرفية القائمة بين الحقلين، فإن مقاربتَي الدراستين العربيتين اللتين أشرتُ إليهما آنفًا، وإن كان يُحسب لهما سبقهما في تناول الموضوع في بعض بلدان

(50) Ibid., p. 264.

(51) Tim Bartley, "The Digital Surveillance Society," *Contemporary Sociology*, vol. 48, no. 6 (2019), pp. 622–627.

(52) أسماء حمايدية، "المراقبة ما بعد البانوبتيك للدول العربية على مواقع التواصل الاجتماعي: مقاربة ما بعد بنيوية"، **المجلة الجزائرية للأمن والتنمية**، مج 10، العدد 3 (2021)، ص 965-976.

(53) عيدة بلعابد، "المراقبة الإلكترونية وأثرها على خصوصية الأفراد"، **المجلة الشاملة للحقوق**، مج 3، العدد 2 (أيلول/ سبتمبر 2022)، ص 118-130.

شمال أفريقيا، فإنهما لا تندرجان ضمن أيٍّ من هذين الحقلين؛ أي الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا. وهما الحقلان اللذان سيشكل أحدهما مدخلنا لمقاربة هذا الموضوع، أي المدخل الأنثروبولوجي.

رابعًا: المراقبة الرقمية والمحدد الجيلي

يتأسس تقسيم الأجيال الرباعي الذي اعتمدتُه في بناء عيّنة البحث، كما سأعرضه في المحاور اللاحقة، على التصوّر الحسابي الذي صاغة وليام ستروس لتصنيف الأجيال إلى أربعة. وقياسًا عليه، وُزِّع أفراد العيّنة الرئيسة (10)[54] وفق تقسيم رباعي يتموقع بموجبه أفراد الجيل الأول، بحسب سنة الميلاد، بين سنتَي 1946 و1964، وهو يضمّ وحدتين من وحدات العيّنة. أما أفراد الجيل الثاني فيتموقعون بين سنتَي 1965 و1980، ويضمّ ثلاث وحدات من العيّنة. ويتموقع أفراد الجيل الثالث بين سنتَي 1981 و1999، ويضمّ هو الآخر ثلاث وحدات. أما الجيل الرابع فيتموقع أفراده بين سنتَي 2000 و2018 وما بعدها، ويضمّ وحدتين.

1. البدايات: من الدهشة إلى النّضج الرقمي

"متى كان أول لقاء لك مع الإنترنت ومع وسائط التواصل الاجتماعي؟" كان هذا هو السؤال الذي كنت أستهل به لقاءاتي مع أفراد عيّنة البحث، من أجل الانخراط مبدئيًّا في موضوع اللقاء، وجعلهم يتموقعون في النقطة الأولى التي بدأتْ منها سِيَرهم الرقمية. وكانت نقطة البداية الأولى تختلف من سارد إلى آخر تبعًا للوضعية السوسيومهنية، والجيل الذي ينتمي إليه. ذلك أن ولوج الإنترنت في بداية العقد الأول من هذه الألفية كان في المغرب نوعًا من التّرف الذي لا يحصّله إلا من توافرت لهم الظروف المادية للتردد على مقاهي الإنترنت، والمهارات التقنية اللازمة لاستخدام الحاسوب أولاً، والإنترنت ثانيًا. ويرجع أول لقاء بشبكة الإنترنت تمّت الإحالة إليه من أفراد عيّنة البحث إلى سنة 2001 (فرد واحد/ الجيل الثاني). وحدّد البعض الآخر ذلك التاريخ في سنة 2006 (فرد واحد/ الجيل الثاني)، بينما حدده عدد مهمّ من أفراد العيّنة (خمسة أفراد من الأجيال الثلاثة الأولى) في بداية العقد الثاني من هذه الألفية، أي ابتداء من سنة 2010، وهو التاريخ الذي يحمل رمزيّةً كبيرة في تاريخ المغرب المعاصر بحكم ارتباطه بما أُطلق عليه وقتها "ثورات الربيع العربي". أما بقية أفراد العيّنة (ثلاثة أفراد/ واحدة من الجيل الأول واثنتان من الجيل الرابع)، فلم يشرعوا في استخدام شبكة الإنترنت إلا في النصف الثاني من العقد الماضي.

ولقد جاءت هذه النتيجة التي تفيدها الدراسة الحالية مماثلة للنتيجة التي سبق أن أكدتها دراسة سوسيولوجية أجريتُها سنة 2021، شملت عيّنة مكوّنة من 750 فردًا[55]، وأفادت أن معظم المغاربة

(54) لا بد من التذكير هنا بأن هذا العدد (10) لا يشمل الأفراد الثلاثة الذين شكّلوا العينة الداعمة، أو الثانوية.

(55) جرى إنجاز هذه الدراسة السوسيولوجية في إطار برنامج الزمالة بالمجلس العربي للعلوم الاجتماعية (2021–2022) في موضوع "السلطة الدينية الرقمية: دراسة في أثر المحتوى الديني الرقمي على الهويات الدينية لمستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي بالمغرب"، وقد نُشر جزء من نتائجها في عدد من المقالات، نذكر من منها: محجوبة قاوقو، "الباتريركيّة الرقمية واستراتيجيّات المقاومة الجندريّة الناعمة: دراسة سوسيولوجيّة"، **أوراق العمل**، ورقة عمل رقم 28، المجلس العربي للعلوم الاجتماعية، 2023/11/30، ص 1–46.

من مستخدمي وسائط التواصل الاجتماعي بدأ استخدامهم الأول لها مع بداية الاحتجاجات في بعض بلدان شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وبالضبط سنة 2010. فمعطيات تلك الدراسة تكشف، كما سنوضح، أن معظم التواريخ المحدِّدة لبداية أوّل استخدام للإنترنت من أفراد عيّنة البحث يتموقع قبَيْل الفترة التي انطلقت فيها الانتفاضات، وخلالها، وبعدها، أي بدءًا من سنة 2009، مع ارتفاعٍ ملحوظ جدًّا خلال سنة 2010، وتسجيل نِسَب دالة أيضًا ما بين سنتَي 2011 و2014.

شكل يوضح توزيع استخدام المغاربة لشبكة الإنترنت تبعًا للمؤشر الزمني المتعلق بأول استخدام

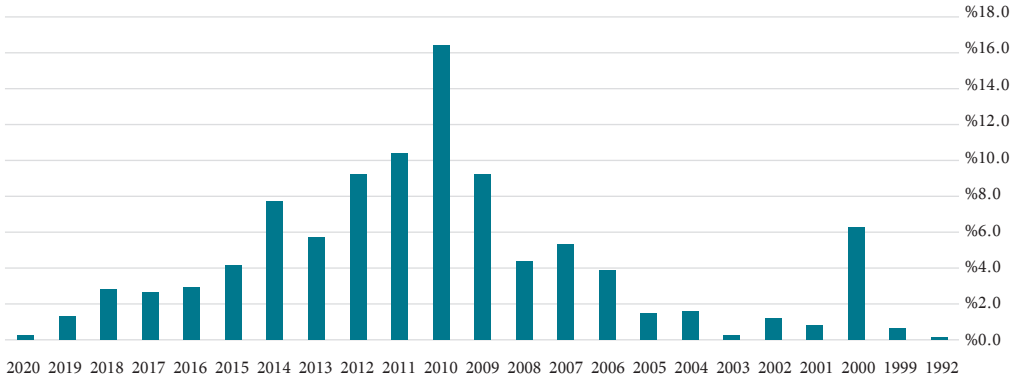

المصدر: دراسة ميدانية وطنية أجرتها الباحثة بالمغرب في الفترة 2021–2022 في إطار مشروع الزمالة بالمجلس العربي للعلوم الاجتماعية. وتجدر الإشارة إلى أنّ المعطيات الواردة في هذا الشكل لم يسبق نشرها؛ إذ إنها جزء من المعطيات التي لم أستثمرها بعد.

كان السؤال التمهيدي الأول الذي كنت أطرحه حول استخدامات الإنترنت، يعقبه سؤال آخر شكّل منطلقًا أساسيًّا لرصد المحطات الكبرى في سِيَر الحياة الرقمية لأفراد العيّنة، ونقطة التحوّل في مسار كل منهم؛ والسؤال هو: هل غيّر شريك البحث حسابه الشخصي على الوسيط أو الوسائط الرقمية التي يستخدمها؟ وفي كل المقابلات، كان هذا السؤال يشكّل منعطفًا في لحظة الحكي؛ لأن الإجابة عنه كانت تأخذني إلى نقطة التحول في السيرة الرقمية للراوي. وهنا بالذات حيث كانت تبرز، تلقائيًّا، إشكالية الحرية والمراقبة الرقميتين.

لقد أفادت الدراسة في هذا السياق أن جميع أفراد العيّنة يؤكدون أنهم اضطروا إلى تغيير حساباتهم على فيسبوك، وواتساب تحديدًا، بمعدل مرتين (ثلاثة أفراد) إلى ثلاث مرات (أربعة أفراد) كحدٍ أدنى. ومنهم من لا يذكر بالمرّة عدد المرات التي غيّر فيها حساب واتساب (ثلاثة أفراد)، نظرًا إلى كثرتها. وأوظّف هنا كلمة "اضطرار"، لأن الأمر لم يكن محض اختيار؛ ذلك أنّ كلّ فردٍ من الرواة وجد نفسه مجبَرًا على ذلك، من جراء أسبابٍ وقصص – وإن تعددت تفاصيلها وشخوصها والفاعلون داخلها، فإنها ظلت كلها تلتقي عند نقطةٍ واحدة هي تفطّنهم لانتهاك خصوصياتهم ولتعرّضهم للمراقبة الرقمية – كانت تتعدد تمظهراتهما تبعًا لعدة محددات، وعلى رأسها محدد الجيل، في علاقته بمحدّدَي النوع الاجتماعي والوضعية السوسيومهنية للراوي.

ويفيد تتبّع السير الرقمية لأفراد عيّنة البحث وجود اختلاف في نوع الوسائط الرقمية التي يوظّفها كل واحد منهم، تبعًا للجيل الذي ينتمي إليه. فقد تبيّن أنّ الحالتين اللتين تنتميان إلى الجيل الأول يقتصر استخدامهما على واتساب بالدرجة الأولى (كلا الحالتين)، ثم فيسبوك بدرجة أقل (حالة واحدة). ويتوزّع الاستخدام عند الحالات الستّ المدروسة، من الجيلَين الثاني والثالث، بين فيسبوك أوّلاً يليه واتساب ثم إنستغرام، وأخيرًا تيك توك. أما الحالتان اللتان تنتميان إلى الجيل الرّابع، فيأتي إنستغرام أوّلاً بالنسبة إليهما، وبعده تيك توك ثم فيسبوك، وأخيرًا واتساب. وإذا ما تأمّلنا معطيات السِيَر الرقمية المحكية في شموليتها، ورصدنا مراحلها الكبرى، فإنه يمكننا التمييز إجمالاً في استخدام أفراد عيّنة البحث للوسائط بين ثلاث مراحل أساسية هي: مرحلة الدهشة والاكتشاف الأول، ومرحلة الألفة التي يميزها التمرّس بالأداة، ثم مرحلة النضج الرقمي المتّسمة بالتأمل الانعكاسي في التجربة الذاتية، وطرح أسئلة الجدوى، والأثر.

لكنّ ما يلاحَظ بهذا الخصوص هو أن الدهشة أمام التكنولوجيا الرقمية تختلف هي ذاتها من جيل إلى آخر ضمن الأجيال الأربعة؛ ذلك أن تجربة الجيل الأول بالذات تختلف عن تجربة الجيلَين الثاني والثالث. لقد عاش أفراد الجيل الأول قدرًا غير يسير من أعمارهم، في زمن لم تكن فيه التكنولوجيا العالية الدقة قد وُجدت أصلاً، أو أنها لم تكن قد وجدت بعد طريقها إلى الانتشار. وحتى حينما وصلت بلادهم، كانت تعوزهم، وقتها، إما المعرفة والدّراية، وإما الإمكانات المادية اللازمة للتعامل معها؛ وظلوا، لأجل ذلك كلّه، بعيدين عنها، لم يقربوها عقودًا طويلة من الزمن. أما الجيلان الثاني والثالث، فقد أمضى أفرادهما نصف أعمارهم أو أكثر معاصرين لهذه الأنظمة التكنولوجية، وشهدوا على كل مراحل ظهورها وتطورها، وانخرطوا فيها منذ البدء. وتختلف تجربة أفراد هذه الأجيال الثلاثة عن نظيرتها في الجيل الرابع، أي "الجيل الرقمي"[56]، الذي نشأ وتربّى في ألفة تامّة مع التكنولوجيا الرقمية وأدواتها.

وتختلف أيضًا مرحلة النضج الرقمي اختلافًا جذريًّا بين الأجيال الأربعة. لأنها، لئن كانت حاصلة ومتحققة لدى الأجيال الثلاثة الأولى، تكاد تكون غائبة لدى الجيل الرابع بحكم حداثة سنّه. لكن سيَرهم الحياتية الرقمية، على قصر تاريخهم الحياتي العام، تبدو في كثير من الأحيان أغنى وأطول زمنيًّا مقارنة بنظرائهم في بقية الأجيال؛ وذلك بحكم أن أفرادها أدركوا العالم، منذ نشأتهم الأولى بصيغة رقمية، إلى الحد الذي يتعذر معه التمييز في هذه السِيَر بين الحياة قبل وسائط التواصل الاجتماعي وبعدها. إنّ سِيَرهم الرقمية متجذرة في مراحل طفولتهم المبكرة، على خلاف الأجيال السابقة التي لا يبدأ التأريخ فيها لتلك السِيَر، إلا مع سنوات الشباب المتقدمة، أو مع مرحلة الكهولة، أو حتى مع مرحلة الشيخوخة أحيانًا؛ بما يسمح بالتمييز بوضوح بين سيرةٍ حياتية رقمية وسيرة حياتية لارقمية صرفة.

(56) John Palfrey & Urs Gasser, *Born Digital: Understanding the First Generation of Digital Natives* (New York: Basic Books, 2010).

2. المراقبة الرقمية والخوف المعلوماتي

تفيد سِيَر الحياة الرقمية لأفراد الأجيال الثلاثة الأولى أنّ استخدامهم للإنترنت يختلف، كمًّا وكيفًا، تبعًا للمراحل الثلاث المشار إليها سابقًا. حيث بدأ ضعيفًا في السنوات الأولى من الاستخدام، ثم شرع يتزايد مع الوقت، لكنه بدأ في التراجع نوعًا ما مع الدخول فيما أسميته مرحلة النضج الرقمي، التي تتّسم باعتماد مستخدِم وسائط التواصل الاجتماعي سياسةً ذاتية لتقنين هذا الاستخدام وعقلنته؛ وذلك نتيجة الوعي بوجود المراقبة الرقمية وأخطارها، وتداعياتها المستقبلية.

لقد كانت الملاحظة الأساسية التي عاينتها، خلال لقاءاتي مع أفراد عيّنة البحث، هي أن الوعي بدرجة المراقبة الرقمية الممارَسة على الأفراد يختلف كثيرًا بين الأجيال الأربعة. فلدى أفراد الجيل الأول وعيٌ حاصل بتلك المراقبة، ولكنه وعي غامض وملتبس، وكأنّ الأمر يتعلق بقوى خفيّة ومخيفة، لا يمكن إدراكها ولا السيطرة عليها أو مقاومتها بأيِّ شكل كان، خاصة إذا ما انعدم أيّ مستوى تعليمي لدى صاحب السيرة الرقمية المعنيّة. فحينما كانت تُستدعَى كلمة مراقبة، وإمكانية إعادة استخدام المعطيات الشخصية من الآخر على نحوٍ فيه إضرار بمُنتِجيها، كانت تبدو علاماتُ خوفٍ وتوجّس على أوجه شركاء البحث من الجيل الأول. إنه خوفٌ سببه أنّ سياق الحكي يذكّر الراوي بأحداث مؤلمة، يستعيد معها خوفًا قديمًا، في حين يتولّد، في الوقت نفسه، خوفٌ جديد من المجهول، ومن إمكانية حدوثٍ متجدد لما كان قد وقع، وإعادة اختبار التجربة ذاتها من جديد، في وقت غير متوقّع.

تفيد سيرة أمينة – وهي سيدة غير متعلمة في أواخر الستينيات من العمر – أنّها حالما أدركت موضوع المراقبة فجأة في سياق تجربة شخصية، غيّرت سلوكها في التعامل مع الوسيط التواصلي الرقمي. فقد واجهت مشكلات عائلية، بسبب تسريب محتوى مكالمة هاتفية، وإعادة تقاسم رسائل صوتية على واتساب لعدد من أفراد الأسرة من دون علمهم، وكان من تداعيات ذلك حصول تفكك في الروابط الأسرية وإضعاف بعضها. ومنذ ذلك الحين، عزفت أمينة عن استعمال ذلك الوسيط التواصلي مدة طويلة، ولم تعد تعمد إلى إرسال رسائل صوتية على واتساب، حتى مع أفراد العائلة المقرَّبين، إلا للضرورة القصوى، ومع تحفّظ كبير في الكلام الذي ترسله؛ وذلك خوفًا من أن يُعاد استخدام تلك الرسائل لاحقًا بطريقة يكون فيها إضرار بها، أو بأحد أفراد أسرتها. وأصبحت مكالماتها محدودة جدًّا، تغلب عليها الرسمية والحذر والتوجس[57]. شيءٌ ما في مفهوم الثقة بالآخر قد تهدَّم. أخبرتني ابنتها الكبرى (أسماء)[58] في أحد اللقاءات، هامِسةً في أذني بكثير من الخوف، أن هذا السلوك الوَجِس من والدتها سببه أنها أصبحت تخشى وجود أجهزة خفية للتنصت مثبتة على هاتفها؛ ومردُّ ذلك أنها لم تستوعب استيعابًا كاملاً كيفية عمل أنظمة الهواتف الذكية، حتى تسمح بهذا القدر من التسريب لمعطيات يُفترض أنها حميمية وخاصة. بدا لها الأمر غامضًا ومريبًا وغير مفهوم على نحوٍ كلّي.

(57) أمينة، ربة بيت، 68 عامًا، مقابلة شخصية، الصخيرات–تمارة، 2024/6/18.

(58) أسماء (مصدر داعم للعيّنة الرئيسة)، ربة بيت، 49 عامًا، مقابلة شخصية، الصخيرات–تمارة، 2024/6/18.

وكان الأمر المثير للانتباه مع حسن، خلال لقائي به، أنه لم يكن يحمل هاتفًا ذكيًّا، بل كان يستخدم هاتفًا بسيطًا وقديمًا جدًّا، ثمنه زهيد، لا يتعدى مئتَي درهم بالعملة المغربية (قرابة 20 دولارًا)، يسمّى بالدارجة، على سبيل التندّر، "لَعْظَمْ"، وذلك في دلالة استعارية على صلابته وعدم قابليته للكسر، وفي دلالة أيضًا على طابعه الصّلد والصّموت، الذي لا يكشف أيّ شيء. أخبرني حسن في أحد اللقاءات، مشيرًا إلى هاتفه بكل زهو وثقة:

> ليس هناك أفضل من هذا الهاتف تستعملينه إن أردت أن تنامي قريرة العين، وتطمئنّي إلى أن هاتفك غير قابل للاختراق، وأنه من غير الممكن التجسس على مكالماتك. صحيح أنه رخيص وبسيط، لكنه فعّال جدًّا وآمن للغاية. في إمكاني أن أشتري آخر إصدار من الهواتف الذكية، لكنني لا أرغب في ذلك[59].

يوازي هذا الانتقال من حالة الاطمئنان التامّ في التعامل مع الوسيط التواصلي الرقمي إلى حالة الحذر "الملغز" المطبوع بالحيرة والتوجس الدائم، كما تعكسه الحالتان المدروستان من الجيل الأول، انتقال مشابه لدى الجيل الثاني والثالث، لكن مع اختلاف ملحوظ في خصوصية المحطتين اللتين تم الانتقال بينهما؛ ذلك أن أفراد هذين الجيلين تشكّلت سيرهم الرقمية على نحو تدريجي وتصاعدي. كانت مطبوعة بالانخراط المحدود في البداية، لكنها سرعان ما دخلت مرحلة الاستخدام المكثف الذي كان يرافقه نوع من التفاؤل والثقة بوعد الحرية المفتوح الذي سبق أن بشّر به جون بيري بارلاو؛ وفي غياب أيّ استحضارٍ لعنصر المراقبة، ولا الحدود المحتملة للحرية وعقباتها، بالمعنى السارتري للكلمة. لقد كانوا وقتها مقتنعين تمامًا بأنهم ولجوا فضاء مشابهًا لذلك الذي يصفه كاستلز، لا قيود تحدُّ من حرية الفاعلين داخله، ولا "عين إلكترونية" تلازمهم في حركاتهم وسكناتهم. لكن واقع الفاعليّة الرقمية المكثفة، والممتدة زمنيًّا على مسار طويل، كشف لهم العكس.

> كل شيءٍ تسيّس. لقد كنتُ منخرطة منذ سنوات في مجموعة فيسبوكية، تضمّ أجانب، كانت تجربة رائعة في البداية، كنا نتواصل في جوٍّ ثقافي ودّي، لكن فيما بعد تمّ إخراج الأمور عن مسارها. أصبحت أتعرّض للعديد من المضايقات التي كان أصحابها يحاولون إخراسي ومنعي من التعبير عن رأيي ارتباطًا ببعض القضايا التي اتّخذت بعدًا سياسيًّا، وأصبحت تخلق حساسية كبيرة في النقاش. اضطررت في النهاية إلى الانسحاب كليًّا من المجموعة. لقد أثّر هذا الأمر لاحقًا في صداقتي الفيسبوكية، ولحق ذلك التأثير حتى علاقتي مع مجموعة من الأشخاص في الواقع[60].

هكذا لخصت رجاء المنعطف الأساسي الذي غيّر من طبيعة التصوّر الذي كانت تحمله حول وسائط التواصل الاجتماعي، وانعكس على فاعليتها الرقمية التي أصبحت تتجه منذ ذلك الحين إلى اعتماد منهج "التقليليّة الرقمية" Digital Minimalism[61]، وعقلنة الاستخدام.

---

(59) حسن، موظف، 57 عامًا، مقابلة شخصية، القنيطرة، 2024/3/14.

(60) رجاء، أستاذة، 46 عامًا، مقابلة شخصية، القنيطرة، 2024/8/31.

(61) Cal Newport, *Digital Minimalism: Choosing a Focused Life in a Noisy World* (New York: Portfolio/ Penguin, 2019), pp. 28–46.

ويكشف تمحيص المعطيات الخاصة بسِيَر أفراد الجيلين الثاني والثالث وعيًا بطبيعة المراقبة الرقمية ومستوياتها وخصوصياتها. تحيل رجاء في حديثها إلى مراقبة أفقية أو "المراقبة من أسفل"[62] الفاعلون فيها أصدقاء فيسبوكيون – بعضهم بهويات رقمية معلومة، وآخرون بهويات رقمية مستعارة – يتابعون ما يُنشر وقد يتفاعلون معه بتعليق إلكتروني أو بنقرة إعجاب، وقد يمرّون عليه في صمت من دون تفاعل يُذكر. وعندما يتفاعلون، قد يكون تفاعلهم منضبطًا لأخلاقيات النقاش، وقد يحيد عنها ليندرج في خانة العنف المادي أو الرمزي، فيراوح بين السبّ والشتم، أو القذف والتخوين والتكفير، أو بين التشهير والتنمر الرقميين، وغيرها من أشكال العنف الرقمي. أما عندما تتم الإحالة إلى تسييس القضايا، أو هاجس الخوف الغامض من المراقبة الأمنية الاستخباراتية، فذلك يعني استحضار المراقبة العمودية، أو "المراقبة من أعلى"[63]، وهو نمط المراقبة الثاني الذي وإن كان مصرَّحًا به لدى أفراد الجيلَين الثاني والثالث، فإن الإشارة إليه كانت إيحائية لدى أفراد الجيل الأول. وفي تجربة حسن على وجه الخصوص، أسرّت لي زوجته (راضية) ذات يوم أنّ فكرة المراقبة الاستخباراتية الرقمية تسيطر عليه هاجسًا دائمًا وتشكّل سببًا رئيسًا لاتّباعه النهج الحياتي الذي يعتمده في تدبير علاقته بالهاتف المحمول[64].

وتشير مريم هي أيضًا إلى هذا النوع من المراقبة الرقمية العمودية، في حديثها عن قصتها مع إحدى صديقاتها التي لم تكن تستخدم مطلقًا أسماء الأشخاص أثناء المكالمات التي كانت تجريها معها عبر الهاتف أو واتساب، ولم تكن تذكُرهم إلّا رمزًا وإيحاءً، حتى وإن كانوا أشخاصًا عاديّين. كانت تعتقد، يقينًا، أنّ هناك دائمًا طرفًا ثالثًا يتجسس على المكالمات. ولقد كانت في سَلْكها ذاك النهج تطبّق سياسة احترازية وقائية لمواجهة الرقابة الرقمية المحتملة، عملاً بنصيحة توجيهية من قريب لها يعمل في الأجهزة الأمنية. لذلك، ولكثرة تخوّفها وإصرارها المستمر على استعمال الإيحاءات والأسماء المستعارة خلال المحادثات، فإنهما (مريم وصديقتها)، على امتداد أعوام، انتهتا تلقائيًّا، وعلى نحو طريف، إلى تطوير نظام من الرموز أشبه بشفرات الأجهزة الاستخباراتية، تستخدمانه أثناء المكالمات الهاتفية، وفي الدردشة الإلكترونية[65].

3. البحث عن الاعتراف الرقمي والمراقبة الرقمية المرغوبة

تبدو الأمور مع أفراد الجيل الرابع مختلفة تمامًا عن أفراد الأجيال الثلاثة السابقة. وما من شيء يعكّر صفو المستخدم وهو ينقّب في هاتفه الذكي أو وهو ينتج المحتوى ويتهيّأ لنشره. كانت ريم[66]

(62) Lupton, p. 36.

(63) Steve Mann & Joseph Ferenbok, "New Media and the Power Politics of Sousveillance in a Surveillance–dominated World," *Surveillance & Society*, vol. 11, no. 1–2, (2013), pp. 18–34.

(64) راضية (مصدر داعم للعيّنة الرئيسة)، ربة بيت، 42 عامًا، القنيطرة، 2024/3/14.

(65) مريم، أستاذة، 43 عامًا، مقابلة شخصية، الصخيرات–تمارة، 2024/6/18.

(66) ريم، تلميذة، 16 عامًا، مقابلة شخصية، الصخيرات–تمارة، 2024/4/12.

وهناء[67]، وهما شابتان في مقتبل العمر، تتصرفان مع الهاتف الذكي كأنه امتداد لجسدَيْهما، وكأنه جزءٌ من العناصر المندرجة في حميميّة المكان. كانتا تأخذان كامل حريتهما لحظة استخدامه، بحيث تتحركان بكل أريحية وأُلْفة عندما تصوِّران مقاطع الفيديو المقتضبة التي تنشرانها على صفحتَيهما على إنستغرام. ومع أنهما تعرفان أنّ المحتوى الذي تصنعانه موجّه إلى الآخرين، فإنهما لم تكونا تستحضران احتمالات أن يستغلها طرف ما في الإضرار بهما. المهم هو الظهور ومتعة أن تشاهَد، وأن تكافأ بعلامات الإعجاب وكرَم التقاسم وسخاء التعليق. المهم هو أن تحظى بالاعتراف الرقمي، بغض النظر عن التكلفة. لذلك لم يكن حديثهما عن علاقتهما بوسائط التواصل الاجتماعي ونمط استخدامهما لها يوحي بأيّ قدر من التخوّف من احتمال التعرّض لمراقبة غير مرغوبة. لأن المراقبة الأفقية، في تصورهما، لها مقابل مادي ورمزي، يؤدَّى لناشر المحتوى على شكل هِبات رقمية، تمثّل نوعًا من الاعتراف المأمول. وهذا هو الأهم ضمن منطق ألعاب الهوية الرقمية المحسوبة والمقصودة.

وفي إحدى الجلسات مع فاطمة الزهراء[68]، والدة ريم، وبينما كنا نناقش، بحضور ابنتها وصديقتها هناء، مسألة استغلال الآخر للمعطيات الرقمية الخاصة، بدأت الأم تسوّق بعض الأمثلة على ذلك، وكنتُ بين الفينة والأخرى أسترق النظر، عمدًا، إلى الشابتَين حتى أرى أثرَ ما يُقال فيهما، ورَدّ فعلهما حياله، فإذا بي أعاين لحظتها علامات خوف ترتسم على وجهيهما فجأة. كانتا تنصتان بتركيز واهتمام بالغَين، وبعينين وَجِستَين، محدِّقتين في اندهاش، وكأنهما تكتشفان أوّل مرّة أشياء جديدة لم تكن في الحسبان. لم تغادرا كليًّا مكان الجلسة التي دامت ساعات. ظلَّتا مسمّرتين في وضعية واحدة، ولم تنطقا بأيّ كلمة. ما زلت أذكر جيّدًا التعابير التي ارتسمت على وجه هناء، والتي ظلت واجمةً مدة طويلة، بوجه شاحب. كانت تبدو كأنها في سيرورةِ تذكرٍ سريعة لأشياءَ تستعيدها بشعورٍ من الضيق البالغ، وكأنها في لحظة تقييمٍ خاطفة، أو في حالة من اليقظة الرقمية المفاجئة.

إن المفارقة التي تثيرها هذه الوضعية، وشبيهاتها، هي أن المحتوى الرقمي يُصنع من أجل الآخر، وعندما ينشره منتجُه على حسابه، يكون على علم، مسبقًا، أنه سيصبح موضوعَ مشاهدة، ومادةً لإعادةِ النشر والتقاسم، بل إعادة الإنتاج بصيغ أخرى. ويعني ذلك أن مستخدم الوسيط الرقمي/ صانع المحتوى يعي قبْليًّا وجود مراقبة، لكنه مع ذلك يرغب في أن يجعل من نفسه موضوعًا لها، إمّا في بعدها المادي (الجسد)، أو في بعدها اللامادي (الأفكار والمشاعر)، وإما عبر الصورة والصوت، أو عبر فعل الكتابة والتدوين واستخدام الرموز الأيقونية. وهذا النوع من عرض الذات، هو الذي سبق أن اختزلتُه في مفهوم الإنسان الأثر، أو ما تسميه ديبورا ليبتون "إنسان-المعطيات"[69]. إن المراقبة في هذه الحالة مطلوبة ومرغوبة، وتشكّل هدفًا في حدّ ذاتها، لأنها بوصفها تَتَبُّعًا مستهدَفًا ومبحوثًا عنه،

(67) هناء، تلميذة، 16 عامًا، مقابلة شخصية، الصخيرات-تمارة، 2024/4/12.

(68) فاطمة الزهراء (مصدر داعم للعيّنة الرئيسة)، ربة بيت، 55 عامًا، مقابلة شخصية، الصخيرات-تمارة، 2024/4/12. يتعلق الأمر هنا بجلسة عفوية، على هامش إحدى زياراتي لمنزل عائلة ريم وهناء، اللتين تجمعهما قرابة عائلية وصداقة وثيقة. كان هدفي الأساس من هذه الجلسة ليس هو معرفة ما ستقوله فاطمة الزهراء، بل هو اختبار رد فعل ريم وهناء على ما سيقال، بعدما عاينتُ تحفظهما في الإجابة والتفاعل مع الأسئلة في لقاءات سابقة.

(69) Lupton, pp. 102–103.

تشكّل الطريق الوحيدة المفضية إلى الاعتراف الرقمي؛ فأنْ تكتسب الشهرة الرقمية، وأن يُعترف بك، يقتضي أن تكون حاضرًا رقميًّا، وأن تكون فاعلاً ومرئيًّا. لكن هذه المراقبة الرقمية المرغوبة تظل، في الوقت نفسه، متحكَّمًا فيها، لأن الشخص يحدّد مكانها وزمانها ودرجتها، عبر انتقاء العناصر التي ستشكّل موضوعًا لها والعناصر التي سوف تُستثنى منها. ويكون الأمر هنا شبيهًا بالوضعيات الطبيعية – اليومية التي ينخرط فيها الفرد في الحياة العامة بهويته الشخصية، لحظة وجوده في الفضاءات العمومية؛ حيث يكون التفاعل الاجتماعي سيرورة مستمرة لعرض الذات، بالمعنى الذي يحيل إليه إرفينغ غوفمان[70].

أن تكون المراقبة الرقمية مؤطَّرة ضمن أفعال القصدية والرغبة، فهذا معناه أن الفرد في هذه الحالة هو من يقرّر أن يحوّل الخاص إلى عام، وأن يجعل من خصوصيته موضوعًا للنشر والتقاسم، بحثًا عن الاعتراف الرقمي والتصديق الاجتماعي. لكن، لئن بدت المراقبة الرقمية، في علاقتها بعرْض الذات، على أنها مجرد استمرار وتمظهر لأنشطة تفاعلية اجتماعية، مبرمجة ومتحكَّم في عناصرها قبْليًّا، وتندرج في إطار ما يمكن أنْ نسمّيه اقتصاد الهِبة الرقمي القائم على تبادل المعطيات بوصفها عطايا رقمية والذي يظل موجّهًا بالرغبة في الظهور والبحث عن تحصيل الاعتراف، فإن السؤال الذي يُطرح هنا هو: متى تتخذ هذه المراقبة بُعدًا إشكاليًا وتتحول إلى سلطة قهرية، ونوع من انتهاك الخصوصية؟ وكيف يعيشها ويختبرها الفرد في هذه الحالة؟ وكيف يمكنها أن تتحول إلى تهديد للتماسك الاجتماعي والأمن النفسي؟ وهل يمكن أن يفضي الوعي بآثارها بالمرء إلى التنازل عن رغبته، أو بالأحرى عن حقه، في المرئية الرقمية؟

خامسًا: الحياة اليومية تحت المراقبة الرقمية

> إنهم يراقبون كل شيء، ويعرفون عنّا كل شيء. ألا تلاحظين كيف أنه حالما تبحثين عن شيء ما على الإنترنت، أو تتحدثين عنه في واتساب أو غيره من الوسائط الرقمية، فجأة وفي رمْشَة عيْن، تبدأ الإعلانات والإشهارات بالتهاطل عليك من كل حدب وصوب؟ الآن، كل شيء مراقب، كل شيء[71].

هكذا نقل عبد الرحيم تجربته مع الهاتف الذكي، حين كان يسرد سيرته الرقمية، ويجرد الأسباب التي جعلته، في السنوات الأخيرة، يراجع أسلوب تعامله مع وسائط التواصل الاجتماعي. حكى لي كيف أنه حين كان هو وأصدقاؤه في المقهى يناقشون فكرة المراقبة الرقمية، وأنها تشمل حتى الحوارات والأحاديث اليومية التي تدور بين الأفراد خارج الفضاء الرقمي، قرّروا الدخول في رهان لأجل التأكّد من مدى صحة هذا الاعتقاد، فانخرطوا على إثر ذلك في حديث مصطنع حول أحد المواضيع التي اختاروها للتجريب، وما إن ذكروا بعض المنتجات التي يرغبون في ابتياعها، حتى بدأت، مباشرة،

(70) Erving Goffman, "Presentation of Self in Everyday Life," *American Journal of Sociology*, vol. 55, no. 1 (1949) pp. 6–7.

(71) عبد الرحيم، عامل، 44 عامًا، مقابلة شخصية، الصخيرات-تمارة، 2024/6/19.

إعلانات حولها تَظهر على المواقع التي يبحرون عليها داخل شبكة الإنترنت. "ما دمتَ مرتبطًا، بالويفي Wifi، وتَستخدم الإنترنت، فاعلم أنك تحت المراقبة"[72]. هكذا جزم عبد الرحيم بلغة حاسمة وقطعية، لا يداخلها أيّ قدرٍ من الشك. إنه اختصار متجذر ميدانيًّا تطابق دلالتُه عبارة ليون: "أن تشارك اليوم في المجتمع الحديث معناه أن تندرج تحت المراقبة الإلكترونية"[73].

يفتح تتبّع السِيَر الرقمية المدروسة، مهما اختلفت تفاصيلها، ومستوى وعي أفرادها بالمراقبة الرقمية، وعينا بصفة متكررة على فكرة مجتمع المراقبة الممتدة والعابرة للفضاءات. كانت عبارة "كل شيء مراقب" تتردد في جميع السير الخاصة بالأجيال الثلاثة الأولى. ولم يكن قائلوها يحصرون بموجبها ممارسة المراقبة في الحواسيب والهواتف الذكية، بل كانوا يقدّمون فهمًا عامًّا للمراقبة المعاصرة التي تقوم على توزيع الكاميرات الرقمية، المرتبطة بالحواسيب والهواتف الذكية، ونَشْرها في مختلف الأماكن العمومية: في المؤسسات والشركات والإدارات، في المقاهي والفنادق والمحالّ التجارية الكبرى والصغرى، في المحطات والشوارع والأزقة وأماكن الترفيه، في بوابات العمارات ومرائبها وأروقتها، في المصاعد وفوق أبواب المنازل. لا مكان مستثنى منها، إلى الحد الذي أصبح معه من المتعذّر على المرء أن يمارس أنشطته اليومية خارج المنزل في غياب كاميرا قد ترصده في هذا المكان أو ذاك، وذلك إلى حدّ أضحى معه الأفراد يطوّرون سلوكًا اجتماعيًّا جديدًا (أشارت إليه الإناث خصوصًا داخل عيّنة الدراسة) يقوم على النظر إلى أعلى السقف، كلما ولجوا مكانًا ما، قصد التحقق من عدم وجود كاميرات للمراقبة ترصد سلوكاتهم.

1. المراقبة الرقمية التعاقدية واقتصاد الهِبة الرقمي

كان الحوار مع أفراد عيّنة البحث حول المراقبة الرقمية في مستواها الأول، أي العمودي، ينفتح في كل مرة على مسألة كيفية التعامل مع أحكام الاستخدام وشروطه Terms and Conditions، والتي تشكل خطوة ضرورية ينبغي أن يمرّ منها كل مستخدم يودّ تحميل تطبيق معيّن على هاتفه أو حاسوبه الشخصي؛ كما تُعدّ شرطًا لازمًا للاستفادة من خدمات عدد من المنصات والمواقع الإلكترونية. كانت الأسئلة التي أطرحها على شريك البحث في هذه النقطة تتمحور حول الطريقة التي يسلك بها في هذه الحالة؛ وكيف يقرر الضغط على زر الموافقة على الشروط أو زر الرفض؛ وفيما إذا كان يقرأ القائمة الطويلة لتلك الشروط والتي تتضمن إفادة من مُلاّك التطبيقات والمواقع الإلكترونية أنّ معطيات المستخدم سوف تتعرض للاستغلال لأغراضٍ محدّدة تُقدّم على العموم على أنها ذات طبيعة تجارية وتستهدف إعلام الزبون بالمستجدات والتحديثات، وأنّ هناك طرفًا ثالثًا مجهول الهوية قد تُحَوّل إليه فيتمتع بأحقية استخدامها في ما يراه من أهداف خاصة. كانت إجابات جلّ أفراد العيّنة تفيد، في هذا السياق، بأنهم يقبلون شروط الاستخدام من دون قراءتها، باستثناء عبد الرحيم الذي صرّح أنه ظل سنوات لا يقرؤها، ومؤخرًا، وبعدما أصبح يسمع ويشاهد الكثير من الوقائع حول قرصنة الحسابات واستغلال المعطيات الشخصية للأفراد، فإنه أصبح يقرؤها.

(72) المرجع نفسه.

(73) Lyon, *The Electronic Eye*, p. 4.

تبدو المراقبة الرقمية العمودية في هذا السياق كأنها مراقبة تعاقدية يؤطرها عقد سوسيورقمي، يحدد للمستفيد شروط الاستخدام، ويترك له حرية الاختيار بين قبول شروط العقد أو رفضها. وإن الحديث هنا عن مفهوم المراقبة الرقمية التعاقدية معناه أن المراقبة تتحوّل إلى فعل حريةٍ رقمية. لكنها حرية إشكالية ومفارقة، لأنها تظلّ محكومة في أساسها بدكتاتورية مُلاّك البيانات، وتشكّل نوعًا من المقايضة المعلوماتية المبهمة، لا يكون طرَفا العقد فيها في وضعية تكافؤ، لأن شروطها توضع من جانب واحد، ولا تكون موجَّهةً بمبدأ التفاوض، لا القَبْلي ولا البَعدي. ولذلك تكون "ضبابية" في الغالب الأعم، خاصة أنّ المستخدم لا يقرأ غالبًا بنود العقد، وإن قرأها لا يفهم الكثير منها، لأنها تكون مكتوبة بلغة أجنبية لا يتقنها، أو لأنها تكون مليئة بالتعابير التقنية غير المستأنسة وغير الواضحة بالنسبة إليه.

وإذا ما تأملنا منطق اشتغال منظومة المراقبة الرقمية الأفقية، وجدناه هو أيضًا يتّخذ بعدًا تعاقديًّا. ذلك أنّ الشخص ما إن ينخرط في وسائط التواصل الاجتماعي، وخاصة عند استخدامه لهويته الحقيقية ومع فاعلية رقمية مكثفة، حتّى يندرج ضمن اقتصاد الهِبة الرقمي بما يقتضيه من ردٍّ للهبّة بما يماثلها، أو بأفضل منها. فالتدوينة تقتضي تعليقًا أو إعجابًا أو تقاسمًا، والتعليق يستوجب تعليقًا أو إعجابًا على الأقل، ومنشور النّعي يقتضي عزاءً، ومنشورات الأعياد والمناسبات والنجاحات تستلزم تهنئة، وصور المآسي تقتضي مواساة وتضامنًا، والنكات والمقاطع الهزلية تقتضي أيقونات ضاحكة، واللائحة تطول. أثرٌ رقمي في مقابل آخر، معطيات رقمية في مقابل أخرى. وكما أن لاقتصاد الهِبة الرقمي عطاياه، فإنّ له أيضًا جزاءاته؛ فالمرور الصامت يقتضي مرورًا صامتًا، والحظر يقتضي حظرًا، والحذفُ يوازيه حذفٌ مشابه، وغيرها من السلوكات الرقمية التي يستلزمها منطق السكن المشترك داخل الفضاء الرقمي ومنظومته الاجتماعية الرمزية.

أخبرتني مريم، في عبارة قوية ومركّزة، ارتباطًا بهذا السياق، أنّ الإفراط في استخدام وسائط التواصل الاجتماعي قد يتحوّل إلى "استعباد". وأوضحت قائلة:

> في الماضي، حينما كنت مدمنةً للفيسبوك، كانت تأتي عليَّ لحظات كنت أحسّ فيها كما لو أنه يسلبني حريتي. لأنني حينما كنت أنشر شيئًا معيّنًا، أو أتفاعل مع منشور ما، كنت أظل أنتظر الرد والتصديق على ما كتبت. بين اللحظة والأخرى، ألج لأتحقق من التفاعلات السوسيو-إلكترونية لأصدقائي على فيسبوك مع المنشور، وكأنني أتوسل إليهم وأنتظر تفاعلاتهم، وكأنني أستجديهم. كما كنت أجدني ملزمة بالتفاعل معهم، حتى عندما لا أرغب في ذلك. تصبح كأنك مجبر على التفاعل، في نوعٍ من المجاملة التي تتحول، مع الوقت، إلى مصدر للإزعاج، وتصير ثقلاً على كاهل الفرد[74].

يفيد هذا القول أنّ ما قد يبدو حرية رقمية قد يكون في حقيقته إجبارًا عليها، أو إلزامًا بالحرية؛ إذ إن المرء يختار أن يدخل في شبكة من العلاقات الاجتماعية على شبكة الإنترنت، فتنتهي كلتاهما إلى تقييده بشروطهما الإتيكنولوجية.

(74) مريم.

أقترح هنا مفهوم "الإتيكنولوجيا" Ethichnology، بوصفه مفهومًا جديدًا ضمن المعجم التكنولوجي، أوظّفه للدلالة على هذه المنظومة الرمزية الرقمية الناشئة والمؤطِّرة لاقتصاد الهِبة الرقمي؛ وهو يشكّل صيغة مركبة جامعة بين الإتيقا والتكنولوجيا Ethic–Technology. ويحيل المفهوم، بعامةٍ، إلى مجال الإتيقا الرقمية بوصفها كليّة مندمجة تختزل منظومةَ الشروط والقواعد الإتيقية التي يُفترض أن تؤطّر مختلف الوضعيات التفاعلية السوسيورقمية. فكما لوسائط التواصل الاجتماعي أخلاقياتها، الصريحة أو الضمنية، التي تحكم العلاقات، وتوجّه التفاعلات بين الأفراد من مستخدميها، فإنّ لشبكة الإنترنت كذلك، في بعدها التقني المادي، العام والمُوَسّع، مجموعة من الشروط والأحكام الخاصة بها، تؤطّر العلاقة بين المستخدِمين وملاّك الخوادم والتطبيقات، والتي تشكّل مواثيق تعاقدية رقمية يوقّعها الأفراد لحظة انخراطهم في وسائط التواصل الاجتماعي، أو لحظة إبحارهم في مختلف المواقع والمنصات الإلكترونية. وتندمج كل تلك القواعد والضوابط والأحكام مع بعضها لتشكّل منظومة متداخلة العناصر، تفرض سلطتها بأشكال متعددة ودرجات متباينة على مستخدمي تلك الوسائط الرقمية، ومستخدمي شبكة الإنترنت عمومًا.

وما يُقال على شبكة فيسبوك يصدق كذلك على واتساب وإنستغرام وتيك توك، وغيرها من الوسائط الأخرى التي تخضع للمنظومة الإتيكنولوجية الرمزية نفسها التي تؤطّر اقتصاد الهِبة الرقمي القائم على المجاملة، أو بالأحرى لزومية المجاملة الرقمية والبحث عن الاعتراف الرقمي. فحركية الفرد الرقمية تظلّ مراقَبَةً ومرصودةً من "كتيبةٍ" من المراقبين الصامتين الذين لا يعرف متى سيتدخلون، ولا كيف سيتدخلون. وإذا حصل أن تدخّلوا، يكون من اللازم عليه أن يتفاعل معهم في احترامٍ لضوابط هذه المنظومة وأخلاقياتها، كما يتصورونها، وكما يفهمونها؛ وكل خرقٍ لها يُواجَه بعقوباتٍ تتباين تبعًا لدرجة الخرق المرتكب وأثره، وتبعًا لطبيعة الشخص الذي كان موضوعًا له والمبادئ الأخلاقية التي تحكمه.

حكى لي بعض أفراد عيّنة البحث (أحمد[75]، ورجاء، ومريم، وعبد الرحيم) أن عددًا من معارفهم (أقارب، وأصدقاء، وزملاء ... إلخ) قطعوا صلتهم بهم، بسبب عدم احترام أحد الطرفين لمقتضيات وضوابط هذا النظام الرمزي الرقمي الذي يندرج المنتمون إليه داخل منظومة المراقبة الاجتماعية الرقمية المعمَّمة والممتدة، تلك التي يراقب فيها الجميعُ الجميعَ، مع ما يرافق ذلك من إعمالٍ لمنطق العقوبات التي تبدأ رقمية ولا تلبث أن تصبح فيزيقية يلحق تأثيرُها حياةَ الأفراد الفعلية. وقد يأتي ذلك العقاب، غالبًا، في صورة قطْعٍ للرابط الاجتماعي، أو إضعافه، أو في صورة حرمانٍ من رأس مالٍ مادي أو رمزي، قائم أو آتٍ؛ كما هو الشأن في العلاقات المهنية والأكاديمية (علاقات تراتبية: موظّف/ مدير، أستاذ/ طالب، أو غير تراتبية مثل علاقات الزمالة).

وفي هذا السياق، تكشف السير الرقمية لأفراد عيّنة البحث، من فئة الموظفين والأجراء، تَشَكُّلَ نمطٍ جديد من الإلزام هو الإلزام المهني الرقمي، الذي يصبح بموجبه الفرد مطالبًا بالاستخدام اليومي

(75) أحمد، تقني، 40 عامًا، مقابلة شخصية، الصخيرات–تمارة، 2024/4/13.

للوسيط التواصلي الرقمي (واتساب مثلاً) الذي تستخدمه مؤسسة الانتماء أو زملاء العمل، والانخراط رغمًا عنه في الجماعات المهنية الرقمية المُحدثة لأجل التواصل الإداري أو المهني، ومتابعتها، أو التفاعل مع محتواها خارج أوقات العمل الرسمية؛ مع ما تطرحه هذه الجماعات الرقمية من مشكلات وضغوط نفسية ناجمة عن التداخل المستمر بين فضاء الشغل والفضاء المنزلي، بين وقت العمل ووقت الراحة، هذا فضلاً عن المشكلات المرتبطة بأخلاقيات التواصل الرقمي وما تخلقه من صراعات ومشكلات بين الزملاء.

وهكذا، فإن ما كان يُعتقد في البداية أنه فِعل حريةٍ رقميةٍ، قد يتحوّل مع الوقت إلى قيد اجتماعي، وسلطة تمارس قهريَّتها على الأفراد، عبر الإلزام بالتوافق والاندراج داخل المنظومة، وعبر البحث المستمر عن الاعتراف والتصديق الرقميَّين، أو اللجوء إلى خيار الإقصاء والتهميش؛ مع ما تفترضه كلا الوضعيتين من ضغطٍ اجتماعي يومي يختبره الفرد تجربةً مؤلمةً، تؤثر في جودة حياته النفسية، بسبب ما يرافقها من تخوّفٍ من احتمال تأثير ذلك كلِّه في حياته الاجتماعية، وتهديدها للتماسك الاجتماعي (الروابط الأسرية، والعائلية) ولفُرَص النجاح والارتقاء المهني والأكاديمي.

2. المقايضة المعلوماتية الرقمية وفقدان الخصوصية

تحيلنا السير الرقمية المدروسة إلى تغيّرٍ في مفهوم الخصوصية أو "البنى التحتية للخصوصية"[76]؛ ذلك أنّ المقايضة المعلوماتية الرقمية التي تطرحها الخوادم على مستخدميها والقائمة على مبدأ: أعطني بياناتك أُعْطِكَ بياناتي، والتي تكون خدمتها المعلوماتية مفتوحةً، لا يحدّها زمان تنتهي فيه، ولا مكان تقف عنده، تشكّل تنازلاً طوعيًّا عن الحق في الخصوصية الذي يتخلّى عنه الفرد بمحض إرادته مقابل الاستفادة من تلك الخدمات. وبهذا فهو يندرج في منظومة المراقبة الرقمية المفتوحة، والدينامية، التي تتحرك معه حيثما تحرّك، لأنها تشكّل "امتدادًا لجسده"[77] عبر الهاتف المحمول الذي يحمله معه حتى في الأماكن الأكثر حميميّة. ويمكن أن ندرج هذا التحوّل ضمن "الأشكال الجديدة للخصوصية"[78].

تقول رجاء واصفةً هذا النوع من التغيّر كما عاشته:

> لقد أصبحتِ الزنقة جزءًا من المنزل، وكأنّ الجميع جالس معك في قلب دارك يراقبك ليل نهار، حتى وإن كنتَ بمفردك؛ وقد يتدخلون في أيّ لحظةٍ ليفسدوا عليك خلوتك، ولحظاتِ صفْوك. لقد أصبحتُ أحنّ إلى الماضي، إلى تلك الأيام التي كانت لنا فيها مذكراتٌ شخصية ندوّن فيها أشياءنا الخاصة والحميمة ونحتفظ بها لأنفسنا، لا يطّلع عليه أحد. اليوم، صار كل

(76) Susanna Paasonen, "Infrastructures of Intimacy," in: Rikke Andreassen et al. (eds.), *Mediated Intimacies: Connectivities, Relationalities and Proximities* (London: Routledge, 2017), pp. 103–116.

(77) Lupton, p. 168.

(78) Larissa Hjorth & Sarah Pink, "New Visualities and the Digital Wayfarer: Reconceptualizing Camera Phone Photography and Locative Media," *Mobile Media & Communication*, vol. 2, no. 1 (2024), pp. 40–57.

شيء مباحًا، ما هو حميمي وخاص صار يُدوّن في الصفحات العمومية ويتم تقاسمه مع الجميع، موثّقًا بالصوت والصورة[79].

لا يطرح مفهوم الخصوصية في هذا المستوى الأول، أي بوصفه غير مانعٍ من الرغبة المقصودة في البوح والتقاسم، إشكالاً كبيرًا، إذا ما قُورب من زاوية المراقبة الرقمية؛ لأنه يندرج في إطار نوعها المرغوب، والموجَّه، لأن المعنيَّ بها يمارس عملية انتقاء للمعطيات الشخصية المتعلقة بهويته قبل عرضها وتقاسمها، خاصة في الحالات التي يكون فيها العارض مندرجًا في خانة ما يسمّى المؤثرين، أو طامحًا إلى بناء شهرة رقمية مأمولة، أو واعيًا على الأقل بأن الأثر الرقمي يتّسم بالديمومة، وأنّ منتجه لا يملك سلطة مطلقة عليه. ففي هذه الحالات جميعها، يكون الفرد واعيًا بالمراقبة، ومقبلاً على تدبير خصوصيته الرقمية بناء على ذلك الوعي الحاصل لديه عبر تبني استخدامٍ رقميٍّ مستنير. لكنّ سؤال الخصوصية يبدو إشكاليًّا في الحالة التي يغيب فيها الوعي الرقمي والاستخدام المستنير، وتتجاوز المراقبة حدود الفضاء الرقمي لتعبُر نحو الفضاء المنزلي أو الفضاءات الحميمية، لتصبح هي الأخرى جزءًا من مجتمع المراقبة.

تقول رجاء معبِّرةً عن هذا العبور بما يطرحه من إشكالات:

> لقد أصبح لديّ شعور دائم بأنني مراقبة، حتى وأنا في غرفة النوم، وفي غرفة الاستحمام، لقد تحوّل الأمر إلى ما يشبه الهوس. أحيانًا وأنا أغيّر ملابسي ألتفت يمينًا ويسارًا، أبحث عن المكان الذي يوجد فيه هاتفي، كي أبعده عني مخافة أن تكون الكاميرا مفتوحة، تصورني من غير علمي. لا أعرف، كل شيء ممكن[80].

إن أساس الإشكال هنا يعود إلى سيرورة "تخصيص العمومي، وتعميم الخصوصي"[81]، وما تُفضي إليه من تداخل الفضاءات بعضها مع بعض، مع ما يرافق ذلك من أخطارٍ قد تنجم عن قرصنة الحسابات، واستغلال المعطيات الشخصية. والسؤال الأساسي الذي يُطرح في هذا السياق يتعلق بتكلفة اختراق الخصوصية، أي: ما الذي سيخسره المرء إذا جرى اختراق فضائه الرّقمي، وأصبح فضاؤه الخاص مكشوفًا كليًّا للغير، وبياناته في يد طرف ثالث؟

أثناء لقاءٍ لي مع كمال، وهو شاب في بداية الثلاثينيات، عاطل عن العمل وقت المقابلة، حينما وصل مسار الحديث معه إلى النقطة المتعلقة بتدبير الخصوصية الرقمية في علاقتها بالمراقبة الرقمية، أخبرني أن هذه المسألة لا تَطرح بالنسبة إليه مشكلةً كبيرة؛ لأنه لا يمتلك رأس مالٍ اجتماعيًّا أو مهنيًّا

(79) رجاء.

(80) المرجع نفسه.

(81) Max Van Manen, "The Pedagogy of Momus Technologies: Facebook, Privacy, and Online Intimacy," *Qualitative Health Research*, vol. 20, no. 8 (2010), pp. 1023–1032.

كبيرًا يخشى ضياعه[82] (الملاحظة نفسها أدلى بها رضوان[83]). يقول كمال معبّرًا عن ذلك: "ليس لديّ ما أخسر؛ من يخاف المراقبة يكون لديه في الأصل ما يخاف عليه، منصبٌ سياسي، منصب إداري، مكانة اجتماعية مرموقة، وغيره، أما نحن، فلسنا سوى أناس بسطاء (دْرَاوَش)، معطياتنا هي مجرد صور عادية"؛ لكنه سرعان ما استدرك: "لديَّ تخوّفٌ واحد فقط يتعلق باحتمال تعرّض بريدي الإلكتروني الرسمي للاختراق، لأنه يتضمّن وثائق رسمية (جواز السفر، ومعطيات بنكية، وأوراق تتعلق بالهجرة)، أرسلتها إلى بعض المؤسسات، سبق أن تعاملتُ معها"[84].

يكشف هذا التعليق عن محدّدَين أساسيَين، يتدخلان في تشكيل تمثّلات الأفراد للمراقبة الرقمية وسؤال الخصوصية، وهما: النوع الاجتماعي، والوضع السوسيومهني. في هذا المستوى، كانت إحدى الملاحظات اللافتة التي خرجنا بها من الدراسة الميدانية تفيد أن سؤال الخصوصية الرقمية يبدو، إلى حدٍّ بعيد، سؤالاً جندريًّا، وفئويًّا/ طبقيًّا.

لقد كانت التجربة المعيشة، التي ينقلها لنا نص رجاء، متوافقة على نحو كلّي مع التجارب التي نقلَتْها لي بقية الإناث من الأجيال الثلاثة الأولى، واللواتي عبّرن عن قلقهن الدائم من اختراق خصوصيتهن، خاصة في الجانب المتعلق باستغلال الصور والفيديوهات، أي ما يتعلق بأجسادهن بالدرجة الأولى، بوصفها أجسادًا أنثوية، وبالتمثلات الاجتماعية السائدة حولها. كان هاجس التصوير حاضرًا باستمرار في كل النماذج المدروسة لعيّنة الإناث، وهو التخوّف الذي لم يستحضره أيٌّ من الذكور الذين كان تخوّفهم يرتبط بالأساس باحتمال استغلال بعض الوثائق المرقمنة، الرسمية، أو شبه الرسمية.

كما برز المحدد السوسيومهني عنصرًا أساسًا، يفسّر التخوّف من مسألة اختراق الخصوصية لدى كلا الجنسين؛ إذ إنّ معطيات الدراسة تكشف أنه كلما ارتفع منسوب رأس المال الاجتماعي والمهني لدى الفرد المعنيّ، ارتفعت معه درجة التخوّف من اختراق خصوصيته واستغلال معطياته الرقمية؛ وانعكس ذلك على تمثّله لمفهوم الحرية الرقمية، وشكل ممارسته لها. وقد يقوده هذا التخوّف إلى اختيار التقليليّة الرقمية أو التعتيم الرقمي بديلاً من المرئية الرقمية "المفرطة". ويعني ذلك أن هوامش الحرية تضيق وتتسع تبعًا لحجم رأس المال الفيزيقي والرقمي، وتبعًا لتكلفة اختراق الخصوصية. فقد اعتبر معظم أفراد العيّنة أن حرية التعبير في بُعدها السياسي، بمعناها الموسَّع، داخل الفضاءات الرقمية، تظلّ ممارسة نخبوية تحوزها فئة معيّنة (صحافيون، ونقابيون، ونشطاء سياسيون، وحقوقيون ... إلخ)، وأنّ ما يحدّد هذه الحرية، وما يشجّع عليها، وما يكفل استمراريتها في الغالب، هو مكانة الفرد الاجتماعية وحجم شبكة العلاقات التي يمتلكها؛ أي علاقته مثلاً بسلطة نافذة في مركز القرار يمكن أن تحميه، وتدافع عنه، إذا ما تجاوز "الخط الأحمر" المحدّد لنهاية حرية التعبير، كما تسطّرها وتفهمها الدولة، وأجهزتها السياسية والأمنية.

(82) كمال، عاطل عن العمل، 32 عامًا، مقابلة شخصية، مدينة الصخيرات، 2024/6/19.

(83) رضوان، عاطل عن العمل، 28 عامًا، مقابلة شخصية، الصخيرات-تمارة، 2024/4/13.

(84) كمال.

خاتمة

فيمَ تفيدنا المقاربة الأنثروبولوجية لسؤال المراقبة الرقمية استناداً إلى نظرية الفاعل – الشبكة؟ إنها تسمح لنا بتغيير زاوية النظر، واستكشاف أوجه جديدة للمراقبة عبر التركيز على التأويل الثقافي الذي يقدمه منتجو المعطيات الإنسانية – الرقمية الخام أنفسهم، عن أنفسهم، لا تأويلات محلِّلي البيانات الضخمة من خبراء المناهج التكميميّة الصرفة الذين يختزلون التجارب الإنسانية في أرقام وخوارزميات تُؤَوَّل بمعزل عن منتجيها، ومن دون استحضار للدلالات التي يمنحونها إيّاها، والسياقات التي تُنتج داخلها، والترابطات التي يقيمونها بين ذكائهم وذكاء الآلة، عندما يُطرح سؤال التعايش بينهما، وسؤال الهجانة بين الإنسان والآلة، في علاقته بسؤال الحرية الإنسانية والحق في الخصوصية.

ويفيد مدخل الفاعل – الشبكة، كما تقدمه السِيَر الرقمية المدروسة، أنّ الفرد داخل المنظومة الرقمية ليس شخصًا خاضعًا لأنظمة المراقبة، ومنفعلاً بها فحسب، بل هو أيضًا فاعل داخلها، ومشارك فيها، بقدْرٍ معيّن، بوصفها منظومة تجمع بين ما هو بشري وما هو غير بشري. صحيح أن المراقبة الرقمية العمودية تتأسس على منطق تراتبي وسلطوي، وتتسم بقدر كبير من اللامرئية التي تُطرح معها إشكالات الحق في الخصوصية، إلا أنها تضعنا أيضًا أمام سؤال المسؤولية الأخلاقية والقانونية للمستخدم تجاه بياناته. وبناء عليه، فإننا حينما استحضرنا مفاهيم، من قبيل المراقبة الرقمية التعاقدية في البحث، بدت لنا كما لو كانت مراقبة تواطئية، يفترضها اقتصاد الهِبة الرقمي ودافعُ البحث عن الاعتراف، بناءً على منطق الهِبة الرقمية والهِبة المقابِلة، بما يستلزمه ذلك من استثمارٍ لرأس المال الاجتماعي، الفيزيقي والرقمي، وإعادة استثمارهما؛ مع ترابط ذلك كلّه بأنظمة المكافأة والعقاب الرقميَّين، وآثارهما في حياة الفرد عمومًا. ولا تشكّل المراقبة الرقمية الأفقية، التي تتّخذ شكلاً جُذْموريًّا، استثناء داخل هذه المنظومة الرقمية؛ إذ تندرج هي الأخرى ضمن اقتصاد الهِبة الرقمي، بما يفترضه من تواطؤ صريح أو ضمني بين الأطراف الباحثة عن المنفعة الرقمية المتبادلة، في شبه تعادل وتكافؤ.

لكنّ المقاربة الأنثروبولوجية لسؤال المراقبة الرقمية لا تقتضي أحادية المنظور، ولا اختزال الإشكالات عبر استبعاد النقائض، بل ينبغي التفكير فيما بينهما. فإلى جانب هذا القدر من الفاعلية الرقمية التي تكشف عنها أنماط المراقبة الرقمية المرغوبة، تنكشف أنماط أخرى من المراقبة، تتأطر داخل الأوليغوبتيكون[85] الرقمي المفتوح، الذي تتوزع فيه مواقع المراقبة بالتوازي بين العالمَين الرقمي والمادي، على نحوٍ ممتد ومُستعرض، مكانيًّا وزمانيًّا. فقد سمح هذا الفضاء الوسيط ببروز أنواع جديدة من المراقبة، غيَّرت من مفهومَي العمل والخصوصية مثلاً، وأصبحت تسائل من جديد فهمنا للحرية، نظريةً وممارسة، فضلاً عن ظهور مفاهيم جديدة مثل الاستلاب الرقمي، والاستعباد الرقمي.

(85) أستعير هنا مفهوم الأوليغوبتيكون من برونو لاتور، الذي يطرحه مقابلاً لمفهوم البانوبتيكون. ينظر: Latour, p. 181.

ويفيد تأمّل الطريقة التي أصبح الأفراد يفكرون بها في موضوع الحق في الخصوصية، وكيف يختبرون إشكالاتها اليومية، وكيف يدبرونها، أن سيرورة الرقمنة وما رافقها من تطوير وإشاعة لأنظمة المراقبة الرقمية في مختلف المواقع، الإلكترونية والفيزيقية – الفعلية، قد أفضت إلى خلق سيرورة موازية، تقوم على بَنْيَنَة الخوف المعلوماتي، وذلك باستدماج مستخدمي وسائط التواصل الاجتماعي لفكرة المراقبة وتحويلهم إيّاها إلى نوع من الرقابة الرقمية الذاتية التي يفكر صاحبها من داخل مقولة الإنسان – الأثر؛ أي الإنسان الذي يخشى أثره الرقمي، فيستحضر خشيَتَه قبْليًّا، ليتحوّل الخوف المعلوماتي إلى آلية للرقابة والضبط الذاتيَّين. وإننا نعاين اليوم أن هذا الخوف، في بعض السياقات الاجتماعية، تحوّل إلى بنية نفسية واجتماعية تؤطر العلاقات الإنسانية القائمة على وسائط التواصل الاجتماعي، وتهدد تماسكها عبر تفكيك مفهومَي الثقة والتواصل الاجتماعي الآمن. ولقد صارت الثورات غير المسبوقة التي شهدتها ولا تزال تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي، وتعاظم دورها في المراقبة وتجميع البيانات وتحليلها، كما صار الحديث عن تطوير وَعيٍ آلي ينافس الوعي الإنساني أو يتجاوزه، يستدعيان اليوم من الباحثين تطوير عُدَّتهم النظرية والمنهجيّة لأجل الانخراط في نقاشات أكاديمية جادة تقوم على الانفتاح والتكامل التخصُّصي على طريق الإحاطة بالإشكالات المطروحة حاليًّا بخصوص الآثار المحتملة لهذه التكنولوجيا في نظرية المعرفة، وفي منظومة القيم الإنسانية، ومآلات سؤال المراقبة والعقاب في ظل مستقبل مبهم حول مفهوم المسؤولية الأخلاقية عن الفعل.

المراجع References

العربية

احجيج، حسن. **البحث السردي في العلوم الاجتماعية: نظريات وتطبيقات**. سلسلة التجديد في البحث الاجتماعي 1. مراكش: مؤسسة آفاق، 2023.

بلعابد عيدة. "المراقبة الإلكترونية وأثرها على خصوصية الأفراد". **المجلة الشاملة للحقوق**. مج 3، العدد 2 (أيلول/ سبتمبر 2022).

حمايدية، أسماء. "المراقبة ما بعد البانوبتيك للدول العربية على مواقع التواصل الاجتماعي: مقاربة ما بعد بنيوية". **المجلة الجزائرية للأمن والتنمية**. مج 10، العدد 3 (2021).

دليو، فضيل. "المنهج البيوغرافي: استعمال السير الذاتية والحياتية في علم الاجتماع". **مجلة العلوم الاجتماعية**. مج 27، العدد 2 (1999).

غيدنز أنتوني وفيليب صاتن. **مفاهيم أساسية في علم الاجتماع**. ترجمة محمود الذوادي. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018.

قاوقو، محجوبة. "المجتمع الافتراضي وإشكالية تجديد منهج البحث السوسيولوجي: نحو بناء نموذج لدراسة التفاعلات الإلكترونية بواسطة الحاسوب". **عمران**. مج 8، العدد 29 (صيف 2019).

_____. "النِّتْنوغرافيا منهجًا للبحث السوسيولوجي والأنثربولوجي: من الملاحظة الإلكترونية إلى إعادة كتابة الأثر الرقمي". **المجلة الأفريقية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**. العدد 5 (2023).

_____. "الباتريباركيّة الرقمية واستراتيجيّات المقاومة الجندريّة الناعمة: دراسة سوسيولوجيّة". **سلسلة أوراق العمل**. ورقة عمل رقم 28. منشورات المجلس العربي للعلوم الاجتماعية، 2023/11/30.

الأجنبية

Andreassen, Rikke, Michael Nebeling Petersen, Katherine Harrison & Tobias Raun (eds.). *Mediated Intimacies: Connectivities, Relationalities and Proximities*. London: Routledge, 2017.

Bartley, Tim. "The Digital Surveillance Society." *Contemporary Sociology*. vol. 48, no. 6 (2019).

Brignall, Tom. "The New Panopticon: The Internet Viewed as a Structure of Social Control." *Theory & Science*. vol. 3, no. 1 (2002).

Castells, Manuel. *La Société en réseaux: L'ère de l'information*. Paris: Fayard, 2001.

Culot, Louise. "Le récit de vie numérique: Un outil pour l'alpha?" *Journal de l'Alpha*. no. 218 (2020).

Duke, Shaul A. "AI and the Industrialization of Surveillance." *Surveillance & Society*. vol. 21, no. 3 (2023).

Ellis, Carolyn. *The Ethnographic I: A Methodological Novel about Autoethno–graphy*. Walnut Creek: Altamira Press, 2004.

Ellis, Carolyn, Tony E. Adams & Arthur P. Bochner. "Autoethnography: An Overview." *Historical Social Research*. vol. 36, no. 4 (2011).

Foucault, Michel. *Surveiller et punir: Naissance de la prison*. Paris: Édition Gallimard, 1975.

Galinnon–Mélénec, Béatrice & Sami Zlitni (dirs.). *Traces numériques: De la production à l'interprétation*. Paris: CNRS, 2013.

Geertz, Clifford. *Islam Observed, Religious Development in Morocco and Indonesia*. Chicago: Phoenix Edition, 1968.

Goffman, Erving. "Presentation of Self in Everyday Life." *American Journal of Sociology*. vol. 55, no. 1 (1949).

Gordon, Diana R. "The Electronic Panopticon: A Case Study of the Development of the National Criminal Records System." *Politics & Society*. vol. 15, no. 4 (1987).

Gubrium, Aline. "Digital Storytelling: An Emergent Method for Health Promotion Research and Practice." *Health Promotion Practice*. vol. 10, no. 2 (2009).

Hardey, Michael. "Digital Life Stories: Auto/ Biography in the Information Age." *Auto/ Biography*. vol. 12, no. 3 (2004).

Hine, Christine M. *Virtual Ethnography*. Newcastle: Sage Publications, 2000.

Hjorth, Larissa & Sarah Pink. "New Visualities and the Digital Wayfarer: Reconceptualizing Camera Phone Photography and Locative Media." *Mobile Media & Communication*. vol. 2, no. 1 (2024).

Lauer, Josh. "Surveillance History and the History of New Media: An Evidential Paradigm." *New Media & Society*. vol. 14, no. 4 (2012).

Latour, Bruno. *Reassembling the Social: An Introduction to Actor–Network–Theory*. Oxford: Oxford University Press, 2007.

Lupton, Deborah. *Digital Sociology*. London: Routledge, 2015.

Lyon, David. "Surveillance Studies: Understanding Visibility, Mobility and the Phenetic Fix." *Surveillance & Society*. vol. 1, no. 1 (2002).

_____. *The Electronic Eye: The Rise of Surveillance Society*. Minneapolis/ London: University of Minnesota Press, 1994.

Mair, Michael, Robert Meckin & Mark Elliot (eds.). *Investigative Methods: An NCRM Innovation Collection*. Southampton: National Centre for Research Methods, 2022.

Mann, Steve & Joseph Ferenbok. "New Media and the Power Politics of Sousveillance in a Surveillance–dominated World." *Surveillance & Society*. vol. 11, no. 1/2 (2013).

Manen, Max Van. "The Pedagogy of Momus Technologies: Facebook, Privacy, and Online Intimacy." *Qualitative Health Research*. vol. 20, no. 8 (2010).

Mathiesen, Thomas. "The Viewer Society: Michel Foucault's 'Panopticon' Revisited." *Theoretical Criminology*. vol. 1, no. 2 (1997).

Newport, Cal. *Digital Minimalism: Choosing a Focused Life in a Noisy World*. New York: Portfolio /Penguin, 2019.

Palfrey, John & Urs Gasser. *Born Digital: Understanding the First Generation of Digital Natives*. New York: Basic Books, 2010.

Plummer, Ken. *Documents of Life 2: An Invitation to A Critical Humanism*. London: Sage, 2001.

Poster, Mark. *The Mode of Information*. Chicago/ London: University of Chicago Press, 1990.

Roberts, Brian. *Biographical Research*. London: Open University Press, 2001.

Rossi, Silvia et al. "Digital Life Stories of People with Cancer: Impacts on Research." *International Journal of Qualitative Methods*. vol. 23 (2024).

Rule, James B. *Private Lives and Public Surveillance: Social Control in the Computer Age*. New York: Schocken Books, 1974.

Thaler, Aaron Gluck–. "Surveillance Studies and the History of Artificial Intelligence: A Missed Opportunity?" *Surveillance & Society*. vol. 21, no. 3 (2023).

Turner, Victor Witter & Edward M. Bruner. *The Anthropology of Experience*. Urbana/ Chicago: University of Illinois Press, 1986.

صدر حديثًا

تحرير: عبد الوهاب الأفندي

ترجمة: بدرالدين حامد الهاشمي
عبد الوهاب الأفندي

كوابيس الإبادة

سرديات التوجس ومنطق الفظائع الجماعية

يقدّم الكتاب شرحًا جديدًا لدوافع الأشخاص "العاديين" للانخراط في أعمال العنف الجامح (بما في ذلك الإرهاب وانتهاك الحقوق)، غالبًا بأعداد وبأساليب غير متوقعة. ويحاجّ مؤلفوه بأن سرديات انعدام الأمن (قصص الرعب التي يروج لها أناسٌ حول عالمهم والآخرين ويصدقها كثيرون) يمكن بسهولة أن تجعل الأفعال المتطرفة تبدو مقبولة، بل ضرورية وبطولية، كما هي الحال في تبرير سرديات أفلام المغامرة أو الرعب لتصرفات "بطل" يواجه أشرارًا. ويقدّم الكتاب تفسيرات نظرية وأمثلة عملية، متجاوزًا الدراسات السابقة بما يرقى إلى اختراق جوهري في مجال دراسات العنف الجامح والإبادة ورسم خريطة سياقات العنف الجماعي. ويدعم الكتاب هذا الكشف بطائفة من دراسات الحالة تغطي أربع قارات، كتبها باحثون بارزون من البلدان ذات الصلة. وقد قدم للكتاب فرانسيس دينق، المستشار الخاص السابق للأمين العام للأمم المتحدة لمنع الإبادة الجماعية، مؤكدًا أهمية المساهمة التي قدمها هذا العمل.

المعرّف الرقمي DOI https://doi.org/10.31430/NGWV1331
القبول Accepted 2025–6–25
التعديل Revised 2025–2–4
التسلم Received 2024–9–28

ليليان إسطفانوس | Lilian Estafanous*

النشاط الرقمي داخل المجتمع القبطي في أميركا الشمالية: الفرص الجديدة والتهديدات الناشئة**

Digital Activism within the Coptic Community in North America: New Transnational Opportunities or Emerging Threats

ملخص: تحلل الدراسة الأثر المزدوج للتقنيات الرقمية في الفاعلية السياسية للشتات القبطي، مع التركيز على الفرص التي تتيحها تقنيات المعلومات والاتصال والقيود التي تفرضها. فقد ساهمت المنصات الرقمية في تعزيز ظهور الجاليات القبطية وحشد الموارد والانخراط في دعوة عابرة للحدود، بيد أنها أوجدت في الوقت نفسه مخاطر كبيرة، كالمعلومات المضلّلة والحظر والمراقبة. وقد عرقلت هذه التحديات المتزايدة قدرة جماعات الشتات على التعامل مع بنى القوة؛ ما قلّل من فاعلية جهودها الدعوية. تجادل الدراسة بأن سلبيات النشاط الرقمي باتت تفوق فوائده الأولى؛ وهذا الأمر يفرض قيودًا جديدة على التأثير السياسي القبطي. وبالنظر إلى هذه الضغوط، تدعو الدراسة إلى إعادة تقييم قدرة جماعات الشتات على مواصلة جهودها في بيئة رقمية عدائية على نحو متزايد.

كلمات مفتاحية: الشتات القبطي، الدعوة الرقمية، الحشد العابر للحدود، نظرية الحراك الاجتماعي، المراقبة.

Abstract: This article critically examines the dual impact of digital technologies on the political agency of the Coptic diaspora, emphasizing both the opportunities and limitations posed by information and communication technologies (ICTs). Digital platforms have enhanced diaspora visibility, resource mobilization, and transnational activism, but they also introduce major risks, including misinformation, censorship, and surveillance. These growing challenges have hindered the diaspora's ability to navigate power structures, reducing the effectiveness of advocacy efforts. The article argues that the drawbacks of digital activism now outweigh its initial benefits, creating New constraints on Coptic political influence. In light of these pressures, it calls for a reassessment of how diaspora groups can sustain activism in an increasingly hostile digital landscape.

Keywords: Coptic Diaspora, Digital Advocacy, Transnational Mobilization, Social Movement Theory, Surveillance.

* باحثة ما بعد الدكتوراه في برنامج العلوم السياسية والعلاقات الدولية في معهد الدوحة للدراسات العليا.

Postdoctoral Research Fellow in the Department of Politics and International Relations at the Doha Institute for Graduate Studies. Email: lilian.estafanous@dohainstitute.edu.qa

** ترجم الدراسة من الإنكليزية إلى العربية عمرو عثمان.

مقدمة

زاد الوعي العالمي بالمحنة القبطية، في 15 شباط/ فبراير 2015، وذلك حينما نشر تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام "داعش" مقطعًا مصورًا صادمًا يُظهر إعدام عشرين قبطيًا، إضافة إلى غانيّ واحد، على شاطئ ليبيا. استشهد هؤلاء الأسرى لأنهم رفضوا التخلي عن دينهم[1]. وقد تسبّب نشر هذا المقطع في ردّ فعل قوي، ولا سيما بين أفراد الشتات القبطي الذي احتشد احتشادًا واسعًا على شبكة الإنترنت. ويعدّ هذا الحدث مثالاً بارزًا على أسلوب تطور الشتات القبطي ليصبح ما يجوز أن نطلق عليه "الشتات الرقمي" Digital Diaspora الذي يوظّف ساحات شبكة الإنترنت لتقوية المجتمع وتعزيز النشاطين الدعوي والسياسي.

أسّس المجتمع القبطي الأرثوذكسي - وهو يمثّل أقلية دينية في مصر - وجودًا بارزًا في أميركا الشمالية ضمن انتشار عالمي أوسع. فقد بدأت هجرة الأقباط، في منتصف القرن العشرين، بموجات من المهاجرين الذين ذهبوا إلى الولايات المتحدة الأميركية وكندا، بحثًا عن فرص اقتصادية أفضل، وهربًا أحيانًا من الاضطهاد الديني في مصر[2]. تلاحظ نادية مرزوقي أن الهجرة القبطية إلى الولايات المتحدة زادت وتيرتها، خصوصًا في خمسينيات القرن العشرين؛ الأمر الذي جعلها ظاهرة أحدث نسبيًا مقارنة بهجرات جماعات مسيحية أخرى من الشرق الأوسط[3]. وزادت جماعة الشتات هذه على نطاق واسع على مر السنين، مع تأسيس مجتمعات قبطية في حواضر كبيرة في أميركا الشمالية، كمدن لوس أنجلوس في الولايات المتحدة، ومونتريال وتورنتو في كندا. ولا يعكس هذا التوسع أنماطًا من هجرة أوسع فحسب، بل يجعل الشتات القبطي في أميركا حالة دراسية جاذبة في العصر الحديث المرتبط بالعولمة والترابط الرقمي والحفاظ على الهوية الثقافية، ولا سيما بسبب جهوده في الحفاظ على التراث الديني واللغوي والتفاعل السياسي العابر للحدود، فضلاً عن توظيفه النشط للمنصات الرقمية في الدعوة[4].

أعادت التقنيات الرقمية تشكيل مشهد النشاط العابر للحدود، وهو ما مكّن مجتمعات الشتات من حشد صور التواصل عبر الحدود والدعوة إليها والحفاظ عليها. ويبرز في هذا السياق دور وسائط التواصل الاجتماعي في تيسير الحشد الرقمي والدعوة العابرة للحدود، بوصف ذلك الدور بعدًا أساسيًا لهذه الدراسة. وقد وفّرت هذه المنصات لأقباط المهجر الأفراد أدواتٍ للتواصل والتعبير عن

(1) Athens Bureau, "Coptic Orthodox Martyrs Are Beheaded by ISIS in Libya," *Greek City Times*, 16/2/2022, accessed on 23/6/2025, at: https://tinyurl.com/np3e56nf; Bill Hutchinson, "ISIS Releases Video Purporting to Show Beheading of 21 Egyptians in Libya," *New York Daily News*, 16/2/2015, accessed on 23/6/2025, at: https://tinyurl.com/yhesad63

(2) Youssef Zaki, "A Theban Legion on the Banks of the Potomac: Coptic Political Activism in the Diaspora, the U.S., and the Egyptian Polity," *IMES Capstone Paper Series*, George Washington University (2010).

(3) Nadia Marzouki, "The U.S. Coptic Diaspora and the Limit of Polarization," *Journal of Immigrant & Refugee Studies*, vol. 14, no. 3 (2016), pp. 261–276.

(4) تستخدم الباحثة كلمة Advocacy كثيرًا في الدراسة، وهي تعني الدعوة إلى أفكار أو الدفاع عن قضايا معيّنة. آثرت استخدام كلمة الدعوة مقابلًا عربيًا لها، وهي تتضمن معنى الدفاع والمناصرة، بيد أنها أوسع منهما في مضامينها. (المترجم)

مطالبهم ومخاوفهم، والدعوة إلى حقوق المجتمعات القبطية في مصر وسلامتها. وقد رفع أقباط الشتات الوعي العالمي من خلال الأدوات الرقمية، وعبّروا عن المظالم السياسية، وصاغوا خطابًا متمركزًا حول حقوق الإنسان. في حين عزّز النشر السريع للأخبار والتطورات عبر تلك الشبكات من التضامن والعمل الجماعي؛ ما قوّى الشعور بالجماعة عبر الحدود الجغرافية.

تموضِع هذه الدراسة، من خلال الاشتباك مع مفهوم "تغيّر السياق الإقليمي" Deterritorialization، لأرجون أبادوراي، الشتات القبطي في سياق مناقشات أوسع عن العولمة والنشاط الرقمي[5]. ويجادل أبادوراي بأن العولمة فصلت الهويات الثقافية عن الأقاليم الجغرافية المحددة؛ فسمح ذلك لمجتمعات المهاجرين بالحفاظ على تراثهم في سياقات عابرة للدول، بل بإعادة تشكيلها. ويمثّل الشتات القبطي نموذجًا لهذه العملية، وذلك في سعي أفراده للحفاظ على التراث الديني واللغوي، والاشتراك في نشاط سياسي عابر للدول، وتوظيف المنصات الرقمية للدعوة إلى أفكارهم بدرجات نجاح متفاوتة.

تحلّل هذه الدراسة الشتات القبطي في أميركا الشمالية، بوصفه حالة دالة على تشكّل الهوية في سياق أوسع من العولمة والترابط الرقمي والنشاط العابر للحدود. وتستكشف مفهوم الشتات الرقمي، مبرزةً أهمية فهم هذا المصطلح في سياقاته السياسية والجغرافية والتاريخية المحددة.

أولًا: أسئلة الدراسة وطرحها

تستكشف الدراسة أسلوب تجاوز الشتات الرقمي القبطي في أميركا الشمالية للحدود المادية، وحشد الفاعلية السياسية من خلال منصات رقمية. وتطرح هذا السؤال تحديدًا: إلى أيّ حدّ تسهّل وسائط التواصل الاجتماعي وتقنيات المعلومات والاتصالات ICTs، أو تعوق قدرة جماعات الدعوة الخاصة بالشتات القبطي على تعزيز الهوية القبطية، وحشد الموارد واستثمار الفرص السياسية؟ وما العوامل السياقية التي تؤثّر في قدرة تلك الجماعات على توظيف وسائط التواصل الاجتماعي بهدف دعم المجتمع القبطي في مصر؟ وما التحديات الأساسية التي يواجهها الشتات القبطي الرقمي؟

ومع أن تقنيات المعلومات والاتصال أثّرت تأثيرًا مهمًا في المشهد السياسي، ولا سيما بالنسبة إلى مجتمعات الشتات، فإن أثرها يظل مركّبًا ومتعدد الأبعاد. تلاحظ فيونا ماكالوم أن جماعات الشتات عادةً ما توظف هذه التقنيات للدفاع عن قضاياها، والحفاظ على التواصل مع أفرادها في الوطن الأصلي وحول العالم[6]. ومع ذلك، تجادل الدراسة بأنه على الرغم من تمكين المنصات الرقمية الشتاتَ القبطي من تعزيز الظهور وحشد الموارد والاشتراك في النشاط العابر للحدود، فإنها أوجدت

(5) Arjun Appadurai, *Modernity at Large: Cultural Dimensions of Globalization* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996).

(6) Fiona McCallum, "Religious Diaspora and Information Communications Technology: The Impact of Globalization on Communal Relations in Egypt," in: Marc Lynch (ed.), *The New Arab Media: Technology, Image and Perception* (Reading: Ithaca Press, 2011), pp. 81–101.

أيضًا أوجه ضعف معتبرة، بما في ذلك المعلومات المغلوطة والحظر ورقابة الدولة. وقد أدت الطبيعة التركيبية المتزايدة، والخاصة بالتفاعل الرقمي، إلى مزيد من إعاقة قدرة الشتات على التعامل مع بنى القوة بقدر أكبر؛ فحدَّ ذلك من فاعلية جهودها الدعوية. ومع زيادة عمق هذه التحديات، تزيد مثالب النشاط الرقمي في الوقت الحاضر على منافعه الأولى؛ وهو ما من شأنه أن يفرض قيودًا على التأثير السياسي الخاص بالشتات الرقمي القبطي. ويتطلب ازدياد حواجز النشاط الرقمي – بما في ذلك الرقابة الإلكترونية والمعلومات المغلوطة والتشتت الداخلي وتحديات صوغ إطارات للسرديات القبطية – إعادةَ تقييم نقدية للطريقة التي قد تمكّن دعوة الشتات من الحفاظ على جهودها في مشهد رقمي، يغلب عليه التغير المستمر والعدائية.

تبدأ الدراسة بعرض المقاربة المنهجية والإطار المفاهيمي، واضعةً نشاط الشتات الرقمي في سياق جدالات أوسع في دراسات الشتات ونظرية الحراك الاجتماعي. ثم تحدد بعد ذلك الفرص المهمة المتاحة لأقباط أميركا الشمالية لتحقيق الحشد الرقمي، كوسائط التواصل الاجتماعي والحشد الدولي والشبكات العابرة للدول. ثم ينتقل التحليل إلى التحديات الكبيرة، كأوجه التفاوت في المعرفة الرقمية والرقابة والحظر الذاتي والاختلافات الداخلية وصعوبات صوغ سرديات قبطية لقطاعات أكبر من الجماهير. وتنظر الخاتمة في المضامين الأوسع لهذه الديناميكيات، وتقدّم مقترحات لبحوث مستقبلية.

تساهم الدراسة، من خلال تناول أوجه التوتر هذه، في الجدالات الحالية حول النشاط الرقمي وسياسة الشتات ودور التقنية المتطور في الدعوة العابرة للحدود. وهي تقدّم الشتات القبطي، بوصفه حالة مهمة ومناسبة للوقت الحالي، يمكن من خلالها دراسة أسلوب تعامل المجتمعات المهمشة مع فرص الحشد الرقمي ومخاطره في ظروف مقيّدة تقييدًا متزايدًا.

ثانيًا: مراجعة الأدبيات: التنظير للشتات الرقمي

يكشف مشهد الهجرة الحالي عن تفاعل ديناميكي بين الحركية الإنسانية والتواصل الرقمي، حظي باهتمام علمي متزايد. يركّز الباحثون على نحو خاص على دور المنصات الرقمية في سياسة الشتات[7]، إذ إنها تسهّل أوجه التعبير والأداء عن بُعد؛ وهو أمر ثبتت أهميته الكبرى لفواعل من غير الدول، وفي إعادة تشكيل هويات الشتات بهدف تعزيز تخيّل الوطن وتفعيل المعارضة السياسية[8]. وبناء عليه، أوجد التقدم في تكنولوجيا الفضاء الرقمي مفهوم "الشتات الرقمي"، مبرزًا أسلوب جماعات الشتات في تأسيس منظمات لا حدود لها، وتوظيف تقنيات التواصل لتعزيز رأس مالها الاجتماعي؛

(7) Koen Leurs & Kevin Smets, "Five Questions for Digital Migration Studies: Learning from Digital Connectivity and Forced Migration in (to) Europe," *Social Media + Society*, vol. 4, no. 1 (2018), pp. 1–16.

(8) Priya Kumar, "Rerouting the Narrative: Mapping the Online Identity Politics of the Tamil and Palestinian Diaspora," *Social Media + Society*, vol. 4, no. 1 (2018), pp. 1–18.

أي الشبكات والعلاقات والموارد التي تسهّل العمل الجماعي ودعم المجتمع[9]. ويشمل هذا المصطلح تعبيرات متعددة، مثل "جماعات الشتات الرقمي" Web–diasporas و"الشتات الشبكي" Net–diaspora[10]، ويعكس كل منها منظورات مختلفة عن تفاعل مجتمعات الشتات مع الفضاءات الرقمية[11]. وتُبرز هذه المفاهيم التكامل بين الخبرات على الإنترنت وخارجه وطبيعة الدراسة ذات التخصصات البينية؛ ما يجسّر العلاقة بين دراسات الإعلام والهجرة وعلم الاجتماع. واخترنا مصطلح الشتات الرقمي Digital Diaspora; e–diaspora لمرونته في تناول السياقات السياسية والجغرافية والتاريخية لنشاط جماعات الشتات.

ولمزيد من فهم هذه الحركيات، أعاد بعض الباحثين تعريف مفهوم الشتات استناداً إلى مفهوم بندكت أندرسن عن الجماعات المتخيَّلة[12]. ويلاحظ مارتن سوكافلد أن الأفراد المشتّتين يوحّدهم خيال مشترك عن أساسٍ وهويةٍ مشتركَين؛ فيؤدي هذا الأمر إلى تجاوز البعد الجغرافي ويعزّز من الإحساس الجمعي بالهوية[13]. وبالمثل، تصف فيونا آدمسون ومايكل ديميتريو الشتات بأنه تجمّع اجتماعي، يحافظ على هوية وطنية أو ثقافية أو دينية مترابطة مع مرور الزمن، من خلال الروابط الدائمة بالوطن الأصلي الحقيقي أو المتخيَّل[14]. وهكذا، أصبح ربط أفراد جماعات الشتات من خلال الإنترنت جزءًا أساسيًا من الثقافة العالمية الحديثة؛ إذ يُربط الأفراد بأوطانهم من خلال الميلاد أو مكان الإقامة السابق أو الروابط العاطفية.

يَبرز هذا التداخل كذلك من خلال اعتماد جماعات الإنترنت على رأس المال الاجتماعي، ويشمل الانتماء الفردي والشعور بالجماعة[15]. ويعزز رأس المال الاجتماعي الثقة ويسهّل تبادل المعلومات ويخلق توقعات مشتركة، ويصنّف عادة بأنه جسر (ترابطات عبر الجماعات المتعددة) ورابط (علاقة

(9) Bahar Baser & Amira Halperin, "Diasporas from the Middle East: Displacement, Transnational Identities and Homeland Politics," *British Journal of Middle Eastern Studies*, vol. 46, no. 2 (2019), pp. 215–221; Jennifer Brinkerhoff, "Digital Diasporas and Governance in Semi–Authoritarian States: The Case of the Egyptian Copts," *Public Administration and Development*, vol. 25, no. 3 (2005), pp. 193–204; Donald A. Westbrook & Michael Saad, "Religious Identity and Borderless Territoriality in the Coptic E–Diaspora," *Journal of International Migration and Integration*, vol. 18, no. 1 (2017), pp. 341–351.

(10) نسبة إلى شبكة الإنترنت. (المترجم)

(11) Victoria Bernal, *Nation as Network: Diaspora, Cyberspace, and Citizenship* (Chicago: University of Chicago Press, 2014); Dana Diminescu & Benjamin Loveluck, "Traces of Dispersion: Online Media and Diasporic Identities," *Crossings: Journal of Migration and Culture*, vol. 5, no. 1 (2014), pp. 23–39.

(12) Benedict Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism* (London: Verso, 1997).

(13) Martin Sökefeld, "Mobilizing in Transnational Space: A Social Movement Approach to the Formation of Diaspora," *Global Networks*, vol. 6, no. 3 (2006), pp. 265–284.

(14) Fiona Adamson & Michael Demetriou, "Remapping the Boundaries of 'State' and 'National Identity': Incorporating Diasporas into IR Theorizing," *European Journal of International Relations*, vol. 13, no. 4 (2007), pp. 489–526.

(15) Vicente Navarro, "A Critique of Social Capital," *International Journal of Social Determinants of Health and Health Services*, vol. 32, no. 3 (2002), pp. 423–432.

أوثق بين أفراد العائلة والأصدقاء)[16]. ويناقش باحثون، مثل آغنيشكا كاناس وزميليها[17]، ولارسن وزملائها[18]، ومارتن[19] عمليات "الربط والتجسير" التي تمكّن من تطوير الموارد ونقلها من الوطن إلى الدولة المضيفة.

وفضلاً عن ذلك، يستكشف هاري هيلر وتارا فرانتس أثر التواصل عبر الكمبيوتر في نشاطات جماعات الشتات[20]. ويجادلان بأن هذا التواصل، الذي يعززه الاشتباك على الإنترنت، يسهّل التفاعلات خلف الحواجز المادية؛ وهو ما يولّد روابط ثقافية وحسًّا بالمجتمع المتمركز حول هوية الجماعة. كما يمكّن جماعات الشتات الرقمي من التأثير في المشهد الاجتماعي – السياسي لأوطان آبائهم في الوقت الذي يؤكدون فيه على هوياتهم الإثنية في الدول المضيفة. ويؤيد دبليو لانس بينيت هذه النظرة، مبرزًا كيف أن المنصات الرقمية، ولا سيما منصات التواصل الاجتماعي، ولّدت تجارب سياسية أكثر شخصانية. وتساهم هذه التجارب الفردية عادة في حركات سياسية جمعية أكبر حين يقع تبادلها في فضاءات الإنترنت[21].

وعلى الرغم من هذه الأفكار، فإن الجدل ما زال مستمرًا حول إذا ما كانت جماعات الإنترنت تعزز العزلة الاجتماعية، أو تزيد من رأس المال الاجتماعي. يشير النقد الأولي إلى أن استخدام الإنترنت قد يؤدي إلى العزلة من خلال إزاحة النشاطات الاجتماعية. ومع ذلك، تدلّ الأدبيات الأحدث على أن الأثر يعتمد إلى حد بعيد على نوع التفاعل على الإنترنت[22]. فمجتمعات الإنترنت، التي تقوم غالبًا على مصالح مشتركة، لا على القرب الجغرافي، يمكن أن تعزّز من بناء مجتمعات وروابط اجتماعية غير متجانسة. ومع ذلك، تستمر بعض التحديات، كالبنى المغلقة التي تخلق انقسامات داخل الجماعات وخارجها، وهو ما يبرز أهمية الثقة والقيم المشتركة للجماعات داخل شبكة الإنترنت وخارجها[23].

(16) Saijun Zhang, Steven G. Anderson & Min Zhan, "The Differentiated Impact of Bridging and Bonding Social Capital on Economic Well–Being: An Individual Level Perspective," *The Journal of Sociology & Social Welfare*, vol. 38, no. 1 (2011), pp. 119–142.

(17) Agnieszka Kanas, Frank van Tubergen & Tanja van der Lippe, "Immigrant Self–Employment: Testing Hypotheses about the Role of Origin–and Host–Country Human Capital and Bonding and Bridging Social Capital," *Work and Occupations*, vol. 36, no. 3 (2009), pp. 181–208.

(18) Larissa Larsen et al., "Bonding and Bridging: Understanding the Relationship between Social Capital and Civic Action," *Journal of Planning Education and Research*, vol. 24, no. 1 (2004), pp. 64–77.

(19) Michelle E. Martin, "The Political Power of Diaspora as External Actors in Armed Civil Conflict: Ethnonationalist Conflict–Generated Diaspora Use of Social Media in Transnational Political Engagement in Homeland Conflict: The Case of Rwanda" PhD. Dissertation, Department of Peace Studies, University of Bradford, 2013.

(20) Harry H. Hiller & Tara M. Franz, "New Ties, Old Ties and Lost Ties: The Use of the Internet in Diaspora," *New Media & Society*, vol. 6, no. 6 (2004), pp. 731–752.

(21) W. Lance Bennett, "The Personalization of Politics: Political Identity, Social Media, and Changing Patterns of Participation," *The Annals of the American Academy of Political and Social Science*, vol. 644, no. 1 (2012), pp. 20–39.

(22) Norman H. Nie & Lutz Erbring, "Internet and Society: A Preliminary Report," *IT & Society*, vol. 1, no. 1 (2002), pp. 275–283.

(23) Ibid.; Hiller & Franz; Navarro.

استنادًا إلى هذه الأفكار النظرية، تطبّق الدراسة نظريات الحراك الاجتماعي لوضع تصوّر للشتات القبطي بوصفه شتاتًا رقميًا يشترك بنشاطٍ في الدعوة العابرة للحدود والعمل الجمعي. وعلى الرغم من أن البحوث عن وسائط التواصل الاجتماعي والنشاط الرقمي تزيد باستمرار، فإن عددًا محدودًا منها وظّف نظرية الحراك الاجتماعي أو ناقش وسائط العمل الجمعي الخاص بجماعات الشتات الرقمي. وبناء عليه، تتناول هذه الدراسة هذه الفجوة، من خلال البحث في أسلوب توظيف الناشطين الأقباط للوسائل الرقمية في تعظيم نشاطهم في الدفاع عن قضاياهم والحفاظ على الروابط العابرة للحدود. وتساهم، من خلال توظيف نظريات الحراك الاجتماعي ودراسة تقنيات التواصل، في فهمٍ أعمق للعمل الجمعي الرقمي العابر للحدود، وتسلط في الوقت نفسه الضوء على هذه الجماعة التي لم تنل قدرًا كافيًا من البحث. وهكذا، تجسر الدراسة فجوة مهمة في الأدبيات الحالية عن نشاط جماعات الشتات والحركية الرقمية. وفي حين يفسّر البعد الهيكلي لنظرية الحراك الاجتماعي آلياته المؤسسية التي تشكل الحراك القبطي في كندا والولايات المتحدة، يُبرز بعدها البنائي الأسس المثالية لهذا الحراك؛ وهو ما يوضح أسلوب تأثير السرديات والهوية والذاكرة الجمعية في التفاعل الرقمي.

ثالثًا: المنهج: المقابلات وتحليل المضمون

توظّف الدراسة مقاربة مختلطة المناهج؛ إذ تجمع بين المقابلات وتحليل المضمون، لدراسة دور المعلومات وتقنيات الاتصالات في النشاط الرقمي القبطي. وتستند البيانات الأساسية إلى 23 مقابلة معمّقة مع أفراد من الشتات القبطي في مدن لوس أنجلوس وتورنتو ومونتريال، وهي من كبرى مراكز الإقامة القبطية في أميركا الشمالية. أُجريت 15 مقابلة من تلك المقابلات في كندا، وثمانٍ في الولايات المتحدة في الفترة شباط/ فبراير–أيلول/ سبتمبر 2022، ومقابلات أخرى في الفترة تموز/ يوليو–أيلول/ سبتمبر 2023.

1. اختيار العينة وجمع البيانات

كان من بين المشاركين في المقابلات قادة وأفراد من منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان القبطية ومتطوعون من جماعات خيرية وسياسيون أقباط مستقلون وناشطون إعلاميون وباحثون أقباط ورجال دين، إضافة إلى أقباط من الجيل الثاني لتكوين فكرة عن الاختلافات بين الأجيال في النشاط الرقمي. واختير المشاركون بأسلوب كرة الثلج؛ إذ بدأت المقابلات مع شخصيات مهمة في المجتمعات القبطية في كندا والولايات المتحدة، ثم مع أفراد تعرّفنا إليهم من خلال مصادر إنترنت عامة ومواقع ناشطين ووسائط التواصل الاجتماعي وتقارير إعلامية. وكان التواصل معهم عن طريق البريد الإلكتروني أساسًا.

راوح زمن المقابلات بين 45 دقيقة وساعتين، بمتوسط 90 دقيقة. وكانت وسيلتها الأساسية على منصة "زوم" Zoom، لكن ثمة مقابلات شخصية مبدئية أُجريت في الكنائس والبيوت والمؤتمرات في تورنتو ومونتريال وكنغستون في كندا، ولوس أنجلوس في الولايات المتحدة. وفُرّغت المقابلات

نصيًّا ورُمّزت ودُرست باستخدام تحليل يستند إلى الموضوع، من أجل تحديد الأنماط المتكررة في استراتيجيات الدعوة الرقمية والمخاوف الخاصة بالمراقبة والأثر الأكبر لتقنيات التواصل في الحشد الجماعي. ولضمان سرّية المشاركين، أعطيت أسماء مستعارة (مثل "أ 6")، باستثناء الحالات التي طلبوا فيها تعريفهم تعريفًا صريحًا.

اشتملت إرشادات المقابلات على أسئلة مفتوحة وأخرى مغلقة غطّت الموضوعات الأساسية، كاستراتيجيات التفاعل مع الموضوعات والجهود ذات الصلة، وأثر الإعلام الرقمي في الهوية الجماعية، والمخاوف الخاصة بالمراقبة والتحكم والخصوصية. وقد وفّرت هذه الأفكار أساسًا كيفيًا لفهم تعقيدات نشاط الإنترنت داخل الشتات القبطي[24].

جاءت الموافقة الأخلاقية للدراسة وفق تعليمات هيئة المراجعة المؤسسة The Institutional Review Board (IRB). وأُخبِر المشاركون قبل كل مقابلة عن طبيعة المشاركة الطوعية وحقهم في الامتناع عن الإجابة عن أيّ سؤال أو إنهاء المقابلة في أيّ وقت. واستنادًا إلى فهمهم الكامل لطبيعتها، حصلنا من كل مشارك على الموافقة على إجرائها، ولم تسجَّل إلا بموافقتهم الصريحة. واستطاعت الباحثة، بوصفها مهاجرة قبطية إلى كندا ومتقنة للغتين العربية والإنكليزية، إجراء المقابلات باللغة المفضّلة لكل مشارك، وهو ما حقّق لهم قدرًا من الارتياح وسهّل إجراء مناقشات صريحة. وساعدت الهوية المشتركة في بناء الثقة والتخفيف من التردد المحتمل، وخاصة ما يتعلق بالموضوعات ذات الطبيعة السياسية الحساسة، كالمراقبة والاضطهاد. وكان وضع الباحثة الداخلي والخارجي – أي كونها جزءًا من مجتمع الشتات ومدرّبة على البحث الأكاديمي في الوقت نفسه – حاسمًا في الوصول إلى المشاركين المهمين وإجراء المناقشات بما تتطلبه من توازن بين التعاطف والألفة الثقافية والمسافة التحليلية.

2. تحليل مضمون الدعوة الرقمية

تحلل الدراسة، إلى جانب المقابلات، مضمون المادة الرقمية المرتبطة بالدعوة القبطية. وتتضمّن هذه المادة منشورات من منظمات قبطية كبرى وخطاب منصات التواصل الاجتماعي ومقالات الإعلام الإلكتروني والمواقع المرتبطة بالكنيسة القبطية ومنتديات الإنترنت. وجرت متابعة التعليقات ذات الصلة الخاصة بسبع إلى عشر منظمات دعوية قبطية، فضلاً عن مراسلات مع مواد ترتبط بجمعيات الشتات ومؤتمراته. كما جرت مراجعة نشاط منصات التواصل الاجتماعي مراجعة منتظمة أسبوعيًا لمتابعة التغير في سرديات الدعوة وجهود الحشد وأنماط الاستجابة للأحداث السياسية التي تؤثّر في المجتمعات القبطية.

صُنّف المضمون وفقًا لموضوعات تركيز معيّنة في الدعوة القبطية، مع التمييز بين الدفاع عن حقوق الإنسان والمنظمات الخيرية ومبادرات الحفاظ على الهوية الثقافية. وأُعطيت الأولوية داخل كل فئة للمنظمات ذات الحضور الرقمي القوي على منصات التواصل الاجتماعي، كفيسبوك وإكس

(24) ينظر: الملحق.

(تويتر سابقًا) ويوتيوب وإنستغرام. ويضم قطاع الدفاع عن حقوق الإنسان منظمات توظّف المنصات الرقمية لزيادة الوعي وحشد الدعم الدولي وتسجيل انتهاكات حقوق الإنسان ضد الأقباط. ومن أكثر هذه المنظمات نشاطًا على مواقع التواصل الاجتماعي منظمة التضامن القبطي Coptic Solidarity، والجمعية القبطية الأميركية American Coptic Association، وجميعة أقباط الولايات المتحدة US Copts Association، والتجمع القبطي لأميركا Coptic Assembly of America، والهيئة القبطية الدولية International Coptic Federation. تنشر هذه المنظمات باستمرار تقارير وتحديثات الأخبار، وتنظّم التماسات على الإنترنت، وتنقل مؤتمرات واحتجاجات عبر تقنية البث المباشر. ولمنظمة التضامن القبطي خصوصًا حضور قوي على منصتَي إكس وفيسبوك، حيث تتفاعل مع صنّاع السياسة ومنظمات حقوق الإنسان الدولية.

يشمل القطاع الخيري منظمات توظّف منصات التواصل الاجتماعي لجمع التبرعات وتبادل الشهادات وتعزيز المبادرات الإنسانية. وتشمل المنظمات البارزة ذات الحضور الرقمي جمعية الأيتام الأقباط Coptic Orphans، وجمعية سانتا فيرينا الخيرية Santa Verena Charity، وجمعية رعاية الأقباط من ذوي الحاجة Needy Copts 4 Care، وجمعية ضوء لأيتام الولايات المتحدة Light for Orphans USA، وجمعية الخروج من الرماد Rising of the Ashes. وتنشر هذه الجمعيات باستمرار قصص نجاح وحملات تمويل جماعي وصورًا خلفية لجهودها الخدمية على إنستغرام وفيسبوك. فعلى سبيل المثال، لجمعية الأيتام الأقباط استراتيجية تواصل رقمية راسخة، تشمل مقاطع مصورة على اليوتيوب والدعوة على منصة إكس وإعلانات تفاعلية على إنستغرام، بهدف إبراز أثرها وحشد مساهمات مجتمع الشتات.

ويشمل القطاع الثقافي منظمات ذات مواد تاريخية مصنّفة رقميًا، تدعم التراث القبطي، وتشترك مع جماعات الشتات من خلال المبادرات التعليمية. وتشمل أكثر تلك المنظمات نشاطًا رقميًا جمعية الكاهن القديس شنودة القبطية St. Shenouda the Archimandrite Coptic Society، ومتحف كندا القبطي The Coptic Museum of Canada، وجمعية دراسات الكنيسة القبطية The Society of Coptic Church Studies، والمشروع القبطي الكندي التاريخي The Coptic Canadian History Project. وتستضيف هذه المبادرات باستمرار محاضرات افتراضية، وتنشر أرشيفات رقمية، وتتفاعل مع الجمهور من خلال النشرات الصوتية والمعارض والمحاضرات على شبكة الإنترنت. ولمتحف كندا القبطي حضور قوي على فيسبوك وإنستغرام، وينشر باستمرار تحفًا تاريخية وأفكارًا ثقافية، في حين ينشر المشروع القبطي الكندي التاريخي بنشاط منشورات بحثية ومشروعات تاريخ شفهي على منصتَي إكس ويوتيوب.

تضمن الدراسة، من خلال إعطاء الأولوية لمنظمات ذات نشاط مهم على منصات التواصل الاجتماعي، تحليلاً أكثر مرونة للدعوة الرقمية والعمل الخيري والحفاظ الثقافي داخل الشتات القبطي. وستركز جهود المتابعة المستقبلية على متابعة توجهات محتوى تلك المنظمات، واستراتيجيات تواصلها مع جمهورها، وأساليب حشدها الرقمي المتطورة عبر منصات متعددة.

رابعًا: اغتنام الفرص: تقنية المعلومات في الدعوة القبطية

يضطلع تصوير الاضطهاد القبطي في عملية التذكر بدور حيوي في بناء الهوية والمقاومة السياسية. يتجذر الشعور بالاضطهاد في تجارب تاريخية ومعاصرة من التهميش، ويشكّل ذاكرة جمعية، ترسخ شعورًا مشتركًا من الصراع والمقاومة. ولا يؤكد الأقباط هذه الهوية المتميزة من خلال حشد هذه السرديات فحسب، بل يقوون أيضًا الروابط العابرة للحدود، موظِفين المنصات الرقمية وشبكات الدعوة لربط المجتمعات المشتتة. وتحوّل هذه العملية الذاكرة الجمعية إلى أداة حشد سياسي؛ فيمكّن ذلك الأقباط من تأطير صراعهم في خطاب حقوق الإنسان العالمي، وطلب الاعتراف والدعم الدوليين.

رسخت التقنيات الرقمية، ولا سيما منصات التواصل الاجتماعي، هذه العملية ترسيخًا أكبر، فكان أن مدَّ هذا الأمر منظمات الدعوة القبطية في أميركا الشمالية بسبل جديدة، لتعظيم أصواتها وتنظيم الحملات والاستمرار في النشاط العابر للحدود. وتعمل منصات الإنترنت هذه بوصفها امتدادًا لشبكات الشتات، ممكّنةً لأشكال أكثر مباشرة وأثرًا من النشاط الذي يجسّر المخاوف المحلية وجهود الدعوة العالمية. وتتوافق هذه التواصلية الرقمية مع مفهوم "الشتات الرقمي" الأكبر، حيث تصبح الفضاءات الافتراضية ساحات حيوية لتشكل الهوية والعمل الجمعي والحفاظ على التراث القبطي. ويمكن الأقباط، من خلال هذه المنصات، تحدي التهميش وتشكيل الخطاب العام وبناء حسّ التضامن المتجاوز للحدود الجغرافية. وستستكشف الأجزاء التالية كيف تعظّم المنصات الرقمية أصوات الأقباط الجمعية عبر الحدود، الأمر الذي يخلق فرصًا للشتات القبطي. وتشمل عناصر التركيز الأساسية تحسين التواصل والظهور، وتعزيز الاستقلال السياسي والمالي، والحفاظ على الهوية الدينية والثقافية لدى أقباط الجيلين الأول والثاني.

1. تحسين التواصل والظهور

أحدثت تقنيات التواصل والمعلومات ثورة في طرائق منظمات الدعوة القبطية. تسهل هذه الأدوات الرقمية تفاعلات أسلس داخل الشبكات القبطية ومع الكيانات الخارجية كالهيئات الحكومية؛ وهو ما يعزز من التعاون وتحقيق الانسجام في جهود الدعوة. فضلاً عن ذلك، تمنح تقنيات التواصل والمعلومات القائمين على الدعوة فرصة مباشرة، للحصول على معلومات حيوية وتحديثات تشريعية وأخبار؛ ما يمكّنهم من الاستمرار في الاطلاع على المعلومات، والتفاعل مع صناع السياسة تفاعلاً نشطًا.

وبخلاف تعزيز التواصل، تمنح تقنيات المعلومات والاتصالات المنظمات القبطية فرصًا لتعظيم ظهورها وتعزيز خططها السياسية. وتسمح منصات التواصل الاجتماعي، مثل فيسبوك وإكس وإنستغرام ويوتيوب، لهذه المنظمات بتجاوز وسائل الإعلام التقليدية التي لا تعبّر عادة عن قصصهم تعبيرًا صادقًا أو تقلل منها؛ وهو الأمر الذي يحقق تواصلاً أكثر مباشرة مع الجمهور الأكبر. واستنادًا إلى تحليل مضمون منصات التواصل الاجتماعي ومواقع المنظمات الإلكترونية الذي قامت به الباحثة، تستخدم منظمة التضامن القبطي منصات، كفيسبوك وإكس وإنستغرام @copticsolidarity، استخدامًا نشطًا، لإشراك المتابعين في أنحاء العالم. ونشرت قنوات يوتيوب، مثل:

Coptic Advocacy, Coptic Solidarity, Coptic Orphans، بصفة دائمة، قصصًا شخصية ومضمونًا افتراضيًا، يزيد الوعي بقضايا حقوق الإنسان ويعزز ظهور الشتات.

أصبحت وسائط التواصل الاجتماعي، في بيئة تهيمن عليها سلطة الدولة التحكمية وحظر الأخبار، أداة تواصل حاسمة للأقباط الأرثوذكس في مصر. وتتجلى هذه الأهمية في العنف الذي يواجهونه من الحكومة والجماعات الدينية. وتكشف الدراسة عن تناقض صارخ في تغطية الحوادث، كمذبحة ماسبيرو، بين وسائل الإعلام الخاضعة للدولة وتلك المستقلة؛ إذ تظهر منصات التواصل الاجتماعي بوصفها بديلاً مهمًا. فعلى سبيل المثال، كان لمنصة إكس دور أساسي في دعم التضامن مع الأقباط، من خلال الشهادات الشخصية والصلوات الإسلامية – المسيحية المشتركة[25]. ولا تسهّل هذه المنصات تبادل الصور ومقاطع الفيديو فحسب، بل توفر أيضًا ساحة للأصوات المستقلة للتعبير عن خبراتها المباشرة؛ أي المساعدة في ملء الفراغات التي تهملها سرديات الإعلام الواقع تحت هيمنة الدولة.

يستخدم صنف آخر مهم من أصناف مجتمع الإنترنت الاجتماعي لأقباط الشتات وسائل الإعلام التقليدية، مثل البث الحي والتلفزيوني. وتستند هذه الملاحظات إلى مراجعة الباحثة للأرشيفات الرقمية وقصص الإعلام التي وثّقها مايكل سعد، فضلاً عن تحليل محتوى بث جماعات الشتات، والمتاحة من خلال منصات الأقمار الصناعية واليوتيوب[26]. لقد أدّت قنوات التلفزيون والصحافة القبطية في أميركا الشمالية دورًا مهمًّا في الحفاظ على التراث الثقافي وتوفير منصات للجماعات للتعبير عن آرائها في القضايا الاجتماعية والسياسية. فعلى سبيل المثال، كان هناك جهد في عام 1997 لتأسيس قناة تلفزيونية قبطية في ولاية نيوجيرسي الأميركية تحت إدارة سامي بولس، وهو شخصية بارزة في المجتمع القبطي. وأدار بمستواه الرفيع في التعليم والكتابة الدينية برنامجًا عُرض على مدار ساعتين في مساء كل يوم جمعة على مدار اثنَي عشر أسبوعًا[27]. هدفت هذه المبادرة إلى تقديم برنامج ديني واجتماعي مصمم لحاجات الشتات القبطي. ومع ذلك، قد يُعزى قِصر عمر البرنامج، على الرغم من نجاحه المبدئي، إلى غياب الموارد المادية الكافية.

بنت محاولة بارزة أخرى لتأسيس حضور تلفزيوني قبطي على الأساس الذي وضعته هذه المبادرات، وهي تأسيس قناة *OCTV Orthodox Christian TV*، في مدينة لوس أنجلوس تحت إدارة المهاجر القبطي وحيد بقطر. بُثت قناة *OCTV* في الفترة 2003–2007 مدة ثلاثين دقيقة صباح كل يوم سبت. ومع أنها حصلت على دعم من الكنائس الأرثوذكسية، فإن القيود المالية عرقلت قدرتها على الاستمرار على المدى الطويل[28]. في المقابل، تغير المشهد في عام 2007 مع ظهور قناتين للكنيسة

(25) Amal Bakry & Mohammed F. Alkazemi, "Social Media Coverage of 'Maspero': Solidarity between Muslims and Christians Post the Egyptian Uprising," *Romanian Journal of Communication and Public Relations*, vol. 16, no. 3 (2014), pp. 61–74.

(26) Michael Saad, "The Contemporary Life of the Coptic Orthodox Church in the United States," *Studies in World Christianity*, vol. 16, no. 3 (2010), pp. 207–225.

(27) Ibid.

(28) Ibid.

القبطية تبثّان من مصر وتسعيان للوصول إلى جمهور أوسع، من خلال البث القمري على مدار الساعة أيام الأسبوع كافة. وقد تمكنت قناة **تلفزيون أغابي** *Aghaby TV* التي أدارها القس بطرس من خلال "شبكة دِش" القمرية Dish Network من الحفاظ على استمراريتها من خلال التبرعات والاشتراكات، بينما موّل القناة الثانية، وهي **التلفزيون القبطي** *Coptic TV*، ثروت باسيلي الذي أقام في مدينتَي القاهرة وشيكاغو معًا. وقد اكتسبت القناتان شعبية كبيرة داخل الولايات المتحدة، وهو ما دعم دور التلفزيون في ربط الشتات القبطي وتعزيز حسه بالجماعة[29].

بنت الأسقفية القبطية للوس أنجلوس على هذا الزخم في عام 2010؛ إذ بادرت بإنشاء قناة **لوغوس** *Logos TV* القمرية ذات الأهداف الأربعة الرئيسة: التبشير، والتعليم، والمداواة، والدفاع عن المستضعفين والمضطهدين. ورعت قناة **لوغوس**، التي بُثت باللغتين العربية والإنكليزية، أسقفيات أخرى في أميركا. ومثلت هذه المبادرة تطورًا مهمًا في المشهد الإعلامي للشتات القبطي، وفّر منصة قوية لإبراز التراث القبطي والحفاظ عليه وتعزيز حضارته الغنية ودعم توسّع مجتمع متطور ومترابط. وقد استضاف سعد مايكل سعد برنامج "الحضارة القبطية" على القناة باللغتين العربية والإنكليزية منذ عام 2013.

2. دعم الاستقلال السياسي والمادي

تمكّن التقنية الرقمية أيضًا منظمات الدعوة القبطية من الحصول على استقلال سياسي أكبر. ويتمثل التحدي الأساسي الذي تواجهه هذه المنظمات، في السياقات التقليدية، في التأثير الهائل للكنيسة في الشؤون السياسية؛ إذ تسعى دائمًا للحفاظ على تحكّم حصري في تمثيل المجتمع القبطي. وظلّ موقف الكنيسة من أيّ شكل من أشكال العمل السياسي المعارض داخل المجتمع القبطي سلبيًا ومقيّدًا دائمًا. وفي هذا الصدد، يصف تادروس معاملة الدولة للأقباط على أنها علاقة سيد وتابع؛ فهي تقدّم خدمات قليلة – مثل تصريحات بناء الكنائس وترميمها – لضمان ولاء المجتمع القبطي السياسي[30]. وبالمثل، يشير بول رو إلى سياسة الكنيسة هذه بوصفها شراكة ملّية من نوع جديد تتأكد من الطرفين؛ ذلك أن الكنيسة تدعم الدولة وتمنح الدولةُ الكنيسة الشرعية[31]. وعلى الرغم من هذه التفاهمات، فإن هذه الخدمات لا تتناول السياسات القانونية والمؤسسية غير العادلة التي تستهدف الأقباط في الدولة. ويوضح عادل جِندي أن وجود الكنيسة، بوصفها "الوسيط الأساسي" بين الدولة والأقباط، يبدو كأنه استراتيجية للضغط غير المباشر على الأقباط، بإسكاتهم لتجنّب تكدير العلاقة غير المستقرة بالفعل بين الكنيسة والحكومة المصرية، فيزيد ذلك وضع الأقباط في مصر سوءًا[32].

(29) Ibid.

(30) Mariz Tadros, "Vicissitudes in the Entente between the Coptic Orthodox Church and the State in Egypt (1952–2007)," *International Journal of Middle East Studies*, vol. 41, no. 2 (2009), pp. 269–287.

(31) Paul S. Rowe, "Neo–Millet Systems and Transnational Religious Movements: The Humayun Decrees and Church Construction in Egypt," *Journal of Church and State*, vol. 49, no. 2 (2007), pp. 329–350; Paul S. Rowe, "Building Coptic Civil Society: Christian Groups and the State in Mubarak's Egypt," *Middle Eastern Studies*, vol. 45, no. 1 (2009), pp. 111–126.

(32) Adel Guindy, *Sword over the Nile: A Brief History of the Copts under Islamic Rule* (London: Austin Macauley, 2020), p. 325.

نبّه معظم من قابلناهم أن تردد الكنيسة في دعم المنظمات المستقلة يحد بقدر كبير من نطاق الدعوة السياسية القبطية. وينشأ هذا التردد من رغبة الكنيسة في تجنّب دعم المبادرات التي قد تهدد علاقتها بالحكومة المصرية. وتُعقّد هذه الرغبة في احتكار التمثيل جهودَ جماعات الدعوة المستقلة، التي قد تجاهد لاكتساب الشرعية من دون تأييد الكنيسة. وبتوظيف الأدوات الرقمية، يمكن أن تؤكد جماعات الدعوة القبطية استقلالها، وتعزّز قضاياها بحرّية أكبر، وتعمل خارج قيود بنى القوى الكنسية التقليدية.

وفضلاً عن ذلك، تسمح المنصات الإلكترونية للمنظمات بتعزيز مشاريعها ومبادراتها الثقافية؛ فيخلق هذا فرصًا جديدة للتمويل، ويخفّف الاعتماد على الدعم المالي الحكومي أو الكنسي؛ ما يمنح المرونة للدفاع بحرّية عن القضايا بلا خوف من عواقب سلبية. وكما أوضحت "ي 8" (إحدى المشاركات في المقابلات)، فقد أعيى عبءُ العمل والإدارة منظماتٍ كتجمع أقباط مونتريال Association Copt de Montreal, ACOM، التي أُنشئت للعمل مع السياسيين على مستويات متعددة؛ ما أدى في النهاية إلى توقفها عن العمل[33]. وغالبًا ما يواجه المتطوعون إرهاقًا، بسبب متطلبات العمل الدعوي الهائلة. وفي هذا السياق، يقول "د 5"، وهو محامٍ وسياسي: "إنها ليست مجرد قضية قبطية. إن الدعوة في ذاتها مرهقة. فالناس يبدؤون بعاطفة ما تلبث أن تخبو سريعًا". ويضيف: "كم منا يستطيع العمل بدوام كامل بلا مقابل؟"[34]. وبالمثل، يبرز "ج 7"، وهو محامٍ وناشط قبطي، ندرة المنظمات القبطية الممولة تمويلاً جيدًا وتمتلك بنى إدارة مناسبة، مشيرًا إلى أن قلّة منها لديها خطط للخلافة المؤسسية أو القدرة على الاستمرار في الدعوة على المدى الطويل[35]. وتنبّه "ي 8" أيضًا، وهي سياسية وعضو مجلس شركاء جمعية صعيد مصر Les Partenaires de L'Association de la Haute–Egypte، أن الأقباط في أميركا الشمالية يواجهون تحديات تمويل جسيمة؛ إذ "تذهب معظم التبرعات مباشرة إلى العمل الخيري في مصر، لا إلى منظمات الدعوة هنا". وتشدد على أن "كثيرًا من الأقباط ليسوا معتادين على فكرة التبرع للأغراض السياسية، إذ لم يتعلموا سبب كونها أمرًا مهمًا"[36].

3. الحفاظ على الهويتين الدينية والثقافية لأقباط الجيلين الأول والثاني

في محاولة الحفاظ على الهوية الثقافية القبطية، تضطلع تقنيات المعلومات والتواصل بدور أساسي. فهي تمنح الأفراد فرصة الوصول إلى كنز من الموارد المتعلقة بالتاريخ واللغة والعادات القبطية من خلال منصات الإنترنت. وتتفاوت هذه الموارد لتشمل المكتبات الرقمية الخاصة بالنصوص القبطية والمواد التعليمية لتعلّم اللغة القبطية. ونتيجةً لذلك، للأجيال الأصغر من الأميركيين والكنديين الأقباط الآن فرص غير مسبوقة للتعامل مع تراثهم الثقافي بسبل لم تكن لتتوافر ربما من دون الإنترنت.

(33) "ي 8"، سياسية ومرشحة حزب المحافظين الكندي في عام 2019 وعضو مجلس شركاء جمعية صعيد مصر، مقابلة عبر منصة زوم، مونتريال، نيسان/ أبريل 2022.

(34) "د 5"، محامٍ وسياسي وعضو سابق في حزب المحافظين وعضو حالي في الحزب الليبرالي، مقابلة عبر منصة زوم، كنغستون، كندا، أيّار/ مايو 2022.

(35) "ج 7"، محامٍ وناشط، من جيل الأقباط الثاني، مقابلة عبر منصة زوم، مونتريال، نيسان/ أبريل 2022.

(36) "ي 8".

توفّر حالة أقباط الجيل الثاني مزايا النشأة في الشتات. فهؤلاء الأفراد، بوصفهم نتاج بيئتهم، لديهم العلم والمهارات للتعامل بفاعلية مع الحكومات وتعظيم الأصوات القبطية. وهم مؤهّلون خصوصًا لتوظيف المنصات الإعلامية المختلفة، ويتمتعون بقدر أكبر من النشاط والانفتاح في جهودهم الدعوية. وبوصفهم جزءًا من الشتات، لديهم القدرة على الدفاع عن حقوق الأقباط في مصر، بشرط حصولهم على التعليم والتدريب والخبرة المطلوبين.

علاوة على ذلك، يبرز دونالد ويستبروك ومايكل سعد دافعًا آخر لأقباط الجيلين الأول والثاني، من خلال دراسات حالات ثلاث عن الحفاظ على الهوية الرقمية في الشتات القبطي. وتبرهن هذه الحالات على كيفية وفاء مبادرات الشتات جزئيًا بتشوق الأقباط إلى ملكية الإقليم والسيطرة عليه[37]. وتشمل النماذج: 1. الحضور الكنسي والتعليمي للقس سوريال في ملبورن Bishop Suriel of Melbourne؛ 2. الرسالة الروحية والاجتماعية والثقافية لقناة **لوغوس** التلفزيونية ومقرها لوس أنجلوس؛ 3. المشروع الأكاديمي التعاوني العالمي الخاص بـ **موسوعة كليرمونت القبطية** *Claremont Coptic Encyclopedia*. وتمثل هذه المبادرات مجتمعة نسخة ناشئة من الشتات القبطي (الشتات الرقمي)، وهو شكل من الإقليمية التي لا حدود لها، وتعوّض فقد السيطرة الاجتماعية – الدينية والثقافية والسياسية في مصر، الأمر الذي يوفّر لأقباط الجيلين الأول والثاني مكاسب إقليمية افتراضية، ومساحة مفتوحة للتفاعل مع الجماعة وزيادة الوعي[38].

خامسًا: التعامل مع التحديات الرقمية في الدعوة القبطية

يركّز هذا المبحث على التحديات التي تفرضها تقنية المعلومات في الدعوة القبطية في أميركا الشمالية. وهي تستند إلى أفكار من منظّمي الدعوة القبطية وأعضاء الجيل الثاني لإبراز قضايا واستراتيجيات أساسية للتعامل مع المشهد الرقمي المركّب. تتناول المناقشة مجموعة من العوائق، كالرقابة على الإنترنت والحظر الشخصي وسيطرة الشركات المالكة لمنصات التواصل الاجتماعي، فضلاً عن الفجوات في التدريب وأشكال غياب توازن القوة. وتدرس أيضًا تعقيدات تأطير السرديات القبطية والانقسامات الداخلية بين ناشطي الشتات القبطي.

1. فجوات التدريب وديناميكيات القوة

على الرغم من المزايا البارزة التي يوفّرها النشاط الرقمي العابر للحدود، فإن ضعف التدريب ونقص المهارات الرقمية يمثّلان عائقًا كبيرًا أمام المساواة الرقمية والإدارة الفعالة للمجتمع القبطي. فقد أشار كثير من المشاركين إلى أن غياب التدريب يحدّ من قدرتهم على توظيف الأدوات الرقمية توظيفًا كاملاً، وذلك على الرغم من إمكاناتها في الوصول إلى الجماهير القبطية وغير القبطية. وعبّر أحد المشاركين قائلاً: "لدينا المنصات، بيد أن أغلب الناس لا يعرفون كيفية استخدامها استراتيجيًا،

(37) Westbrook & Saad.

(38) Ibid., p. 345.

فلا يوجد تدريب أو توجيه"[39]. وقال ثلاثة أرباع المشاركين في المقابلات إن أوجه المحدودية هذه تؤثّر سلبيًا في جهودهم لتعزيز هوية قبطية مشتركة. وفي هذا الإطار، ينبّه "ل 9"، وهو أكاديمي وناشط، إلى أن حقب العمل الحركي السابقة "كانت أسهل في الماضي، إذ كان الناس أكثر تركيزًا. أما الآن، فيمنع الصخب على الإنترنت التوافق"[40].

وإضافة إلى ذلك، يزيد غياب المساواة في الوصول إلى الأدوات الرقمية هذا التحدي سوءًا، ولا سيما بالنسبة إلى جماعات القاعدة البسيطة التي ما زال أقباط الجيل الأول منها يعتمدون على طرائق التواصل التقليدية، مثل نشرات الكنيسة أو اللقاءات الوجاهية، لا التواصل الرقمي.

ومع التحول عن هذه التحديات، فإنه حتى مع توافر المهارات اللازمة للمنظمات، فإنها تجاهد غالبًا للتنافس مع اللاعبين الأقوى، مثل الهيئات الحكومية والكيانات الاعتبارية، التي تتمتع بقدر أكبر كثيرًا من الموارد لتطوير حملات علاقات عامة معقدة، يمكن أن تحجب جهود الجماعات البسيطة. وهكذا، من دون اعتراف ودعم حقيقيَّين للمطالب القبطية، لا يمكن أن تتناول التقنية وحدها أشكال عدم المساواة النظامية الأعمق أو التهميش السياسي.

وبالنظر إلى المستقبل، فمن الضروري أن نعترف أن السياق الاجتماعي والسياسي يؤثّر تأثيرًا بالغًا في نجاح التواصل الرقمي. وفي حين تمكّن منصات التواصل الاجتماعي المنظمات القبطية من تجاوز وسائل الإعلام التقليدية ومخاطبة الجمهور مباشرة، فإنها لا تغيّر جذريًا التصور الشعبي أو ديناميكيات القوة. وفضلاً عن ذلك، ومع أن الأدوات الرقمية قادرة على نشر معلومات وحشد داعمين، فإنها لا تستطيع وحدها التغلب على أشكال عدم المساواة السياسية والاجتماعية المتجذرة. وتبرهن تجارب العديد من قادة الدعوة القبطية أن توظيف تقنية المعلومات لأغراض سياسية يقيّدها السياق الأكبر الخاص بسيطرة الدولة والرأي العام والموارد المتاحة.

2. الرقابة على الإنترنت ومخاوف الخصوصية

تعتمد استراتيجيات التأمين الرقمية اعتمادًا متزايدًا على آليات الرقابة التي تستهدف الجماعات المهمشة، كالمهاجرين واللاجئين وجماعات الشتات، والتي ينظر إليها بوصفها مصادر تهديد محتملة. وتتضمن هذه الاستراتيجيات غالبًا الرقابة، من خلال قواعد بيانات مثل "فرونتكس" Frontex، و"يوروسور" Eurosur، و"يوروداك" Eurodac، فضلاً عن تقنيات البصمات الشخصية؛ ما يؤدي إلى دمج اهتمامات الأمن القومي والهجرة العالمية[41]. ونتيجة لذلك، تعمّق الثورة الرقمية أشكال عدم توازن القوة ولا تخفّف منها؛ فيثقل بسبب ذلك كاهل الجماعات الأضعف بالفعل.

(39) "ف 6"، ناشط وأستاذ جامعي، مقابلة عبر منصة زوم، كنغستون، كندا، آب/ أغسطس 2022.

(40) "ل 9"، ناشط وأستاذ جامعي وعضو تنفيذي في جمعية علم النفس الكندية، مقابلة عبر منصة زوم، كنغستون، كندا، شباط/ فبراير 2022.

(41) Mark Latonero & Paula Kift, "On Digital Passages and Borders: Refugees and the New Infrastructure for Movement and Control," *Social Media + Society*, vol. 4, no. 1 (2018), pp. 1–11; Shoshana A. Magnet, *When Biometrics Fail: Gender, Race, and the Technology of Identity* (Durham: Duke University Press, 2011).

في سياق الدعوة القبطية، تعدّ رقابة الإنترنت وانتشار المعلومات المغلوطة من العوائق الخطيرة. وفي هذا يعبّر قادة الدعوة عن مخاوفهم من استخدام الدولة والفاعلين الأقوياء للأدوات الرقمية لمراقبة نشاطاتهم. ويمكن أن يُعدّ تصنيف الناشطين على أنهم تهديد للأمن القومي، أو تعرّضهم للاضطهاد السياسي، رادعًا للمنظمات يثنيهم عن استخدام المنصات الإلكترونية استخدامًا شاملاً. وتزيد من هذه المخاوف القدرة المتزايدة لحكومات الوطن والدول المستضيفة على الرقابة، وذلك كما رأينا في حالات تعرّض فيها نشاط أقباط للمراقبة والتضييق.

يُعدّ الانتقام تحدّيًا بارزًا على نحوٍ خاص لناشطي الشتات القبطي، ولا سيما في تعاملاتهم مع الحكومة المصرية التي نظرت دائمًا إلى نشاط جماعات الشتات بريبة، بوصفها خطرًا على السيادة المصرية. وتؤطر الأنظمة المصرية غالبًا هذا النشاط، بوصفه ضغطًا سياسيًا وتدخّلاً خارجيًا غير مطلوبَين، أو حتى مؤامرات يحيكها أعداء متصوَّرون، كإسرائيل أو المسيحية الصهيونية[42]. وهكذا، يُعرّض النشر على منصات التواصل الاجتماعي الناشطين لمخاطر متزايدة. وفي سعي الحكومة المصرية للقضاء على المعارضة، فإنها توظف وسائل قمع متجاوزة للحدود، بما في ذلك سحب الجنسية وتقييد السفر إلى مصر والتضييق على أفراد العائلة ومصادرة الممتلكات واضطهاد الأقارب الذين ما زالوا يعيشون في مصر[43].

تكشف المقابلات مع الناشطين عن الأثر المزعج لهذه الوسائل في الحشد في الشتات. فعلى سبيل المثال، يشدد "ج 7"، وهو محامٍ وناشط، على مقاومة الحكومة لمحاولة جماعات خارجية التأثير في التعامل مع القضايا الداخلية، لا سيما حين تقيم هذه الجماعات في الخارج[44]. وبالمثل، يقول "ر 13"، وهو عضو تنفيذي في جمعية التضامن القبطي، إن الحشد القبطي قد جرت عرقلته بشدة، من خلال الضغط الحكومي الساعي لإسكات ناشطي الشتات. وقد أعرب "د 5" عن مخاوفه بشأن سلامة الناشطين وأقاربهم، مشيرًا إلى قائمة كشف عنها تنظيم داعش، في عام 2012، بأسماء ناشطين أقباط، واشتملت على أسماء كثيرة من كندا[45]. وبالمثل، يشدد "ف 6"، وهو أستاذ جامعي وناشط، على الحاجة إلى تمثيل حذر للقضية القبطية، مُبديًا مخاوفه من أن يكون للنشاط أثر سلبي في أسرهم وغيرهم من الأقباط في مصر[46]. وتعدّ تجارب ناشطين، مثل "م 11"، أكثر تعبيرًا عن الديناميكيات المعقدة لنشاط الشتات.

(42) Sameh Elnaggar, "Egyptian Diaspora Explains the Meaning of Its Political Engagement in Washington, DC," PhD. Dissertation, Walden University, 2019;

هاني لبيب، **أزمة الحماية الدينية: الدين والدولة في مصر** (القاهرة: دار الشروق، 2000)؛

Bosmat Yefet, "The Coptic Diaspora and the Status of the Coptic Minority in Egypt," *Journal of Ethnic and Migration Studies*, vol. 43, no. 7 (2017), pp. 1205–1221.

(43) Mena Botros, "The Coptic Identity: Recognizing the Coptic 'Indigenous Peoples' Status for Protection from State–Sponsored Discrimination," *Coptic Solidarity Report*, 2/5/2023, accessed on 23/6/2025, at: https://acr.ps/1L9GPkv; Egyptian Human Rights Forum, *Years of Persecution, Reprisals, and Deprivation of Basic Citizenship Rights: Targeting of Egyptian Human Rights Defenders in the Diaspora* (2024), accessed on 23/6/2025, at: https://acr.ps/1L9GPxZ

(44) "ج 7".

(45) "د 5".

(46) "ف 6".

فعلى سبيل المثال، كتب "م 11"، وهو سياسي وناشط، شعرًا عن التمييز الديني وأحداث ماسبيرو، بيد أنه تردّد في نشره على نطاق واسع خشية أن يؤثر ذلك سلبيًا في فرص رجوعه إلى مصر[47]. ويبرهن الخطر السائد، المتمثل في الاضطهاد المتجاوز للحدود، على أسلوب الحكومة المصرية في السعي لإغلاق المجال أمام الدفاع عن قضايا الأقباط؛ ما يساهم في إنتاج بيئة تتسم بالخوف والحظر الذاتي.

تحدّ هذه الوسائل، التي لا تستخدم ضد الأقباط فحسب، بل ضد عدد كبير من المدافعين عن حقوق الإنسان وناشطي المجتمع المدني أيضًا، وذلك بصرف النظر عن انتمائهم الديني، من قدرة الناشطين على مناقشة القضايا السياسية مناقشة صريحة، سواء أكان ذلك على شبكة الإنترنت أم وجاهيًا مع الوافدين الآخرين. وتضعف الحكومة المصرية، من خلال بث الخوف وانعدام الثقة، جهود جماعات الشتات في الحشد الرقمي بفاعلية؛ ومن ثمّ يضعف أثر منظمات الدعوة القبطية في الخارج ويحدّ من قدرتها على التأثير في السياسة الداخلية في الوطن.

وهكذا، يرى المشاركون في المقابلات أن الحساسيات السياسية في مصر، فضلاً عن الدول المضيفة كالولايات المتحدة وكندا، تؤثر بقوة في استراتيجيات الدعوة الرقمية الخاصة بها. وتتطلب الديناميكيات السياسية تكييفًا حذرًا للاستراتيجيات لتجنّب الصدام وتعظيم الأثر. وهم يشددون على أن المناخ السياسي الخاص بالحرّية الدينية والحساسية الثقافية في الولايات المتحدة يضطلع بدور مهم في تحديد أسلوب تأطير الرسائل واستقبالها. وفي فترات التوتر السياسي، فإنهم يعدّلون رسائلهم للتركيز على حقوق الإنسان عامة، عوضًا عن قضايا الأقباط المحددة لتجنّب رد الفعل المحتمل. وفي كندا، حيث يوجد تركيز شديد على التعددية الثقافية، يصمَّم محتوى الدعوة لينسجم مع قيم الدولة الخاصة بالتعددية والاندماج.

3. الحظر وسيطرة الشركات

تتسع التحديات التي تفرضها الرقابة الحكومية لتشمل الحظر الذي تفرضه الشركات المالكة للمنصات؛ إذ تضطلع المنصات الرقمية بدور بارز في التحكم في ظهور المحتوى. وبما أن النشاط الرقمي يعتمد على نحو متزايد على وسائط التواصل الاجتماعي، فقد واجهت جماعات الدعوة القبطية حوادث عديدة من الرقابة على محتواها أو تمييزه أو إزالته؛ الأمر الذي يشير إلى الحاجة إلى استراتيجيات نشر حذرة. ويقلق الناشطون من أن تتعرض منشوراتهم، الهادفة إلى إبراز انتهاكات حقوق الإنسان واضطهاد الأقباط، للحجب، بوساطة لوغاريتمات المنصة، وهذا من شأنه أن يعوق التفاعل، ويعظّم الخوف من رقابة الشركات.

كانت تعديلات لوغاريتمات فيسبوك، على سبيل المثال، مؤثرة تأثيرًا خاصًا. فقد حدّت التغييرات فيها أحيانًا من تداول التدوينات المرتبطة بالقضايا القبطية، كالتمييز المستمر ضد الأقباط في مصر. ويحبط هذا النوع من الحجب المقنّع Shadow–banning Effect، حيث يحدّ من التدوينات من دون حجبها حجبًا صريحًا، جهود الدعوة؛ إذ تخفف من ظهور الحملات المهمة كحركة "أنقذوا الأقباط"

(47) "م 11"، مرشح حزب المحافظين الكندي في عام 2019 وناشط، مقابلة عبر منصة زوم، تورنتو، آذار/ مارس 2022.

#SaveCopts[48]. وفي حالة معيّنة، مُيّزت تدوينات خاصة عديدة بحملة، أو حُجبت عبر فيسبوك وإنستغرام؛ فحدّ ذلك من أثرها، وزاد المخاوف من تحيّزات سياسة تحرير المحتوى. وهكذا، يضطر الناشطون إلى تعديل مقارباتهم بمراوغة آليات الرقابة التي تفرضها الشركات، في الوقت الذي يسعون فيه لحماية خصوصية أعضائها وصدقيتهم وسلامة تحرّكاتهم[49].

يعقّد انتشار المعلومات المغلوطة والحسابات الزائفة من فاعلية الدعوة الرقمية، فمثلاً حينما انتشرت معلومات مضللة عن حملة كبرى، تطلّبت بذل جهود مكثّفة لاحتواء الضرر الواقع على رسالة الدعوة. ولم تتسبب تلك المعلومات غير الدقيقة في تمييع الرسالة الأصلية فحسب، بل أضافت أيضًا مزيدًا من التعقيد إلى جهود الحشد على الإنترنت؛ إذ إنها ألزمت منظمات الدعوة بالدفاع ضد سرديات مغلوطة في الوقت الذي تدافع فيه عن قضيتها.

واستجابةً لمراقبة الشركات، تبنّت منظمات الدعوة القبطية أيضًا قنوات تواصل بديلة. وتركّز جماعات عديدة الآن على نشرات البريد الإلكتروني ومواقع الإنترنت المستقلة، لضمان تبادل رسائلها من دون حجب، ولا سيما تلك المتعلقة بانتهاكات حقوق الإنسان.

4. تحديات تأطير ذاكرة الصدمة والهوية الثقافية وسرديات الاضطهاد لدى الأقباط عبر الأجيال

أثّرت وسائل الإعلام الإلكترونية في شعور المجتمع القبطي بالهوية على نحو ملموس، حيث أسهمت في تعزيز الروابط الجمعية من خلال توفير منصة للخبرات والقيم المشتركة. ومع ذلك، ثمة مخاوف من أنها قد تميّع أيضًا الممارسات التقليدية إذا لم تُدر بحذر. فالإعلام الرقمي سلاح ذو حدّين؛ إذ يسهم في تعزيز الروابط المجتمعية من جهة، لكنه يشكّل من جهة أخرى تحديًا للحفاظ على الهوية الثقافية. وتمثّل هذه الثنائية عقبات مهمة للدعوة الرقمية القبطية، لا سيما في ضوء الاهتمام المتضائل لدى أقباط الجيل الثاني بالحفاظ على هوية ثقافية قوية. ويعقّد هذا الأمر جهود الحشد حول أهداف مشتركة. وقد عبّر العديد من المشاركين عن مخاوفهم من أنّ تدفق الأفكار الأجنبية، الذي يأتي غالبًا من طريق الإنترنت، يغري صغار الأقباط بتبنّي أساليب حياة مختلفة، فيبتعدون بذلك عن جذورهم الثقافية. ويضعف تمييع الهوية هذا، الذي يزيد منه التعرّض لمؤثرات عالمية على الإنترنت، قدرة منظمات الدعوة على توحيد المجتمع والعمل بفاعلية.

تضطلع ممارسات الإعلام الرقمي بدور حاسم في تشكيل الهوية لدى أقباط الجيل الثاني في أميركا الشمالية. وتتجذر هذه الممارسات في أنشطتهم الاجتماعية والثقافية والسياسية اليومية، الأمر الذي يؤثّر في شعورهم بالانتماء داخل مجتمع الشتات وانخراطهم في القضايا القبطية. ومع ذلك، يتباين ارتباطهم بذاكرة الصدمة إلى حد بعيد عن ذاكرة الجيل الأول. ومع أن الأقباط الأكبر سنًا يحملون

(48) Coptic Solidarity, *The Impact of Social Media Restrictions on Coptic Advocacy* (2023), accessed on 23/6/2025, at: https://tinyurl.com/mu5rk3ht

(49) Ibid.

صدمة الفترة من سبعينيات القرن العشرين إلى تسعينياته، في وقت هجر فيه مصر الكثيرون، يميل الجيل الأصغر، الذي ولد ونشأ في أميركا الشمالية، إلى النظر إلى محنة الأقباط نظرة أكثر ليبرالية. وبسبب محدودية الخبرة المباشرة بالعنف الديني، فإنهم يعتمدون غالبًا على انتقال الذكريات عبر الأجيال، وعلى التمثيل الرقمي من آبائهم أو من الكنيسة لتشكيل فهمهم.

تتميز علاقة الجيل الثاني بالهوية القبطية بتوتر بين نسيان صدمات الماضي أو التزام سردياتها؛ ذلك أنها تظل محورية في شعورهم بالذات. وتتجذر هذه الصدمة في خبرات التهميش والعنف التاريخية والمعاصرة. وقد وثقت الأدلة التجريبية وتقارير حقوق الإنسان حوادث عديدة، تبرز التحديات التي تواجه المجتمع القبطي. فعلى سبيل المثال، وثقت المبادرة المصرية لحقوق الإنسان، في الفترة 2016–2019، 36 حالة على الأقل من العنف ضد جماعات مسيحية قبطية، لا سيما في محافظة المنيا في صعيد مصر. وارتبطت هذه الحوادث غالبًا بخلافات حول بناء الكنائس أو تجديدها[50]. في حين ذكر تقرير الحريات الدينية العالمي الصادر عن وزارة الخارجية الأميركية حالات من الخطف وفرض تغيير الدين على نساء وفتيات قبطيات. وذكرت جماعات المجتمع المدني والمنظمات القبطية ثمانيَ حالات على الأقل خلال السنة[51]. ومع ذلك، من المهم أن نقرّ بأن الشعب المصري الأكبر، وبصرف النظر عن انتمائه الديني، واجه أيضًا اضطهادًا سياسيًا ودينيًا كبيرًا. وفي هذا السياق، أبرز تقرير عام 2023، عن ممارسات حقوق الإنسان في مصر[52]، أخبارًا موثوقة عن حالات قتل تعسفية أو غير قانونية وإخفاء قسري وتعذيب شمل العديد من قطاعات المجتمع[53].

توفر فضاءات الإنترنت، ولا سيما منصات التواصل الاجتماعي، مساحات لأقباط الجيل الثاني للتفاعل الانتقائي مع تلك السرديات. ويركّز الكثيرون أساسًا على حالات العنف والتمييز، حين تعزز هذه الأحداث شعورهم بهويتهم، ويتبادلون هذه القصص رقميًا غالبًا بهدف رفع الوعي. وتقوم الكنيسة أيضًا بدور حاسم في الحفاظ على هويتهم الدينية، المسيحية الأرثوذكسية، وذلك على الرغم من أن تفاعلهم السياسي مع محنة الأقباط في مصر قد يكون أقل ظهورًا على شبكة الإنترنت.

تضيف اللغة والبعد التاريخي مزيدًا من التعقيد إلى قضية تشكّل الهوية، ولا سيما في العالم الرقمي. فكثير من أقباط الجيل الثاني لا يعرفون اللغة العربية وينفصلون عن تاريخ العنف الديني في مصر؛ ذلك أنها ليست أرض ميلادهم كما هي بالنسبة إلى آبائهم. وفي حين يتضاءل حضور الجيل الأول صاحب الذكريات الحية عن تلك الصدمات، يجاهد الجيل الأصغر لفهم المعاناة التي تعرضت لها الأجيال السابقة. ويخلق هذا الوضع فجوة في جهود الدعوة الرقمية، حيث تقل مناقشة الأحداث السياسية وتبادلها بين الأجيال.

(50) *Egypt: Release Nine Coptic Christians Detained for Attempting to Rebuild Church*, Amnesty International (March 2022), accessed on 23/6/2025, at: https://tinyurl.com/mrnr42yt

(51) *2023 Report on International Religious Freedom: Egypt*, U.S. Department of State, accessed on 23/6/2025, at: https://tinyurl.com/27t3jvxa

(52) يصدر أيضًا عن وزارة الخارجية الأميركية. (المترجم)

(53) *2023 Report on International Religious Freedom: Egypt*.

وعلى الرغم من هذه الفجوة التاريخية، فقد أظهر الجيل الثاني ردَّ فعل قويًا على حوادث العنف الديني الأخيرة، ولا سيما بعد هجوم تنظيم داعش على الأقباط في ليبيا عام 2016. وقد أخذ العديد من شباب الأقباط مواقف ملحوظة على الإنترنت، مثل تغيير صور حسابات فيسبوك الخاصة بهم إلى حرف "ن"، وهو الرمز الذي يستخدمه تنظيم داعش لتمييز بيوت المسيحيين. ولبس آخرون ملابس كُتب عليها "أمة الصليب" تضامنًا مع المسيحيين؛ ما عظّم من صوتهم الجمعي رقميًا. وكما ذكر "ي 22"، وهو باحث من الجيل الثاني: "لقد تحمّلنا ألفي عام من الشهادة والاضطهاد. لن تؤدي هذه الأحداث إلا إلى تقوية هويتي وإيماني وترسيخهما". ويؤكد هذا الأمر قوة المنصات الرقمية في حشد الدعم في الفترات المتوترة[54].

ومع ذلك، يُظهر أقباط الجيل الثاني عامة قدرًا أقل من الحذر تجاه الأديان الأخرى مقارنةً بالجيل الأول. ويرى "د 5"، وهو ناشط من الجيل الثاني، أن الطبيعة المحافظة لكثير من المنظمات القبطية في أميركا الشمالية لا تجذب الأقباط الأصغر سنًا والأكثر ليبرالية بالقوة نفسها. وهكذا، يميل كثير منهم إلى التفاعل بقدر أكبر مع المحتوى الرقمي الذي يتناول قضايا التشرد والملاجئ والإدمان، وهي قضايا ترتبط بمجتمعاتهم المحلية عوضًا عن صراعات سياسية بعيدة عنهم[55].

يمثل هذا الانقسام بين الأجيال تحدّيًا للدعوة الرقمية؛ إذ يصبح الحفاظ على هوية جمعية عبر الأجيال أصعب بالنظر إلى المنظورات والأولويات المختلفة، ومستويات التفاعل مع المحنة القبطية. وعلى الرغم من أهمية منصات الإنترنت في رفع مستوى الوعي، فإنه يلزمها تجسير هذه الفجوات لاستمرار حركات الدعوة القبطية المتحدة عبر الأجيال.

5. النشاط الرقمي والخلافات بين الدعاة الأقباط

تُعدّ الخلافات الداخلية الخاصة بأسلوب تأطير القضايا وعرضها عاملاً مهمًا، يؤثّر في نمط النشاط الرقمي. فالناشطون يلجؤون استراتيجيًا إلى تأطير أحداث معيّنة لتوليد وعي مشترك للعمل الجماعي[56]. وعلى الرغم من اتفاق معظم الأقباط على أهمية الدفاع عن الحرية الدينية في مصر، فإنهم يختلفون في وجهات نظرهم حيال قضايا حيوية عديدة، مثل: 1. كيف يجب على الناشطين الأقباط تأطير مطالبهم، ولا سيما في ضوء معضلة الدعوة إلى المواطنة المتساوية في مقابل تأكيد حقوق الأقليات؛ 2. مدى جواز تدخّل الحكومات الأجنبية في السياسة المصرية؛ 3. الاستراتيجية العامة والرؤية الخاصة بالتعامل مع الحكومة المصرية. تمثّل هذه المنظورات المختلفة مصدرًا كبيرًا للخلاف بين الناشطين والمفكرين الأقباط في المهجر، وتظهر غالبًا في المناقشات والحملات على شبكة الإنترنت.

(54) "ي 22"، باحث قبطي في جامعة كوينز، مقابلة عبر منصة زوم، تورنتو، أيلول/ سبتمبر 2023.

(55) "د 5".

(56) Doowan Lee, "Resistance Dynamics and Social Movement Theory: Conditions, Mechanisms, and Effects," *Journal of Strategic Security*, vol. 10, no. 4 (2017), pp. 42–63; Amanda Pullum, "Social Movement Theory and the Modern Day Tea Party," *Sociology Compass*, vol. 8, no. 12 (2014), pp. 1377–1387; Marie–Claude Tremblay, "Can we Build on Social Movement Theories to Develop and Improve Community–Based Participatory Research? A Framework Synthesis Review," *American Journal of Community Psychology*, vol. 59, no. 3–4 (2017), pp. 333–362.

يمكن أن يولّد الاشتباك في الشتات الصراعات؛ إذ يؤدي التعامل الدولي الحسَن النية أحيانًا إلى مقاربات غير موفقة تزيد من التوترات. فعلى سبيل المثال، فشلت العديد من المنظمات، التي دعت إلى مواقف عدوانية ومعادية للإسلام، في الحصول على دعم مهم من الشتات القبطي أو من المجتمع القبطي الأوسع في مصر[57]. ولسوء الحظ، جذبت نشاطات هذه المنظمات اهتمامًا إعلاميًا معتبرًا على شبكة الإنترنت؛ فنتج منه في النهاية الإساءة إلى المنظمات القبطية الأخرى. ويبرز ذلك مثال الجمعية القبطية الأميركية الوطنية National American Coptic Assembly، التي تأسست في عام 2009، وانتُقدت بسبب آرائها غير الواقعية ورسالتها الغامضة، إذ إنها وفّرت، من دون وعي، منصة لعناصر متطرفة داخل الشتات لنشر خطاب مناهض للإسلام. ونتيجة لذلك، لم يرحّب الشعب القبطي الأوسع بهذه الجمعية والجماعات الأخرى المشابهة لها؛ ذلك أنها شتتت قاعدة الدعم، عوضًا عن تقوية الاتحاد من أجل الدفاع عن قضية مشتركة.

وفي حين وفّر النشاط الرقمي للشتات القبطي فرصًا للحشد والدعوة، فقد أسهم في التوترات داخل مجتمعات الشتات وخارجها. فليست الفضاءات الرقمية مجرد مواقع للتضامن، بل هي أيضًا مساحات للصراع الفكري، حيث تسوق الطوائف المختلفة داخل جماعات الشتات سرديات متنافرة. وفي بعض الحالات، استخدم الفاعلون الأفراد المنصات الرقمية للاشتراك في أشكال أعنف من النشاط، والتي زادت التوترات الدينية والعرقية الداخلية سوءًا. ويعدّ ناكولا باسيلي Nakoula Basseley مثالاً بارزًا، وهو قبطي مصري – أميركي أنتج فيلم "براءة المسلمين" Innocence of Muslims المثير للجدل والتحريضي، والذي أشعل احتجاجات في العالم الإسلامي. وزاد من اشتعال هذه التوترات ارتباطه لاحقًا بشخصيات مسيحية من أقصى اليمين، ويوضّح هذا الأمر أن النشاط الرقمي قد تخطفته شخصيات متطرفة لخدمة أهداف إقصائية وعدائية[58]. ويرصد أحمد الراوي توترات رقمية مشابهة، ليبرز كيف تصبح منصات الإنترنت غالبًا ساحات قتال لأيديولوجيات سياسية ودينية متصارعة[59]. وتُبرز هذه الحالات الحاجة إلى دراسة أكثر نقدًا لقدرات الدعوة الرقمية، التي تؤطر غالبًا بوصفها أداة تمكين، على توليد ردود أفعال غير مرغوب فيها، وتعميق الشقاق المجتمعي، وتعقيد نشاط جماعات الشتات، من خلال ترسيخ خطابات استقطابية.

في المقابل، كانت بعض المنظمات القبطية التي ظهرت في الألفية الجديدة – مثل جمعية أميركا القبطية Coptic Assembly of American، والتضامن القبطي والاتحاد القبطي الدولي International Coptic Union، والمؤسسة القبطية الكندية – فاعلة في الدعوة نيابةً عن المجتمع القبطي. وتبرز هنا منظمة التضامن القبطي، بوصفها واحدة من أبرز منظمات حقوق الإنسان للأقباط في أميركا الشمالية.

(57) Yvonne Haddad, "Good Copt, Bad Copt: Competing Narratives on Coptic Identity in Egypt and the United States," *Studies in World Christianity*, vol. 19, no. 3 (2013), pp. 208–232.

(58) "Details Emerge on 'Innocence of Muslims' Filmmaker," *Radio Free Europe/Radio Liberty*, 14/9/2012, accessed on 23/6/2025, at: https://tinyurl.com/mryfshna

(59) Ahmed Al–Rawi, *Islam on YouTube: Online Debates, Protests, and Extremism* (London: Palgrave Macmillan, 2017).

ونظّمت، للدعوة إلى حقوق الأقباط، ما يزيد على عشرين تظاهرة أمام البيت الأبيض، لتظهر بوصفها مدافعًا قويًا عن قضيتهم. كما تصدّرت العديد من حملات الالتماس الدولي على شبكة الإنترنت، مركّزةً على قضايا حيوية كالتمثيل النسبي للمجتمع القبطي وتعديل الفقرة الثانية من الدستور المصري، ومحاربة المتطرفين الإسلاميين والمنظمات الإرهابية، وإنهاء خطف الفتيات القبطيات.

وعلى مدار العقود الماضية، ركّزت منظمة التضامن القبطي على نحو خاص على الدفاع عن النساء والفتيات القبطيات القاصرات المختطفات أو المُتاجر بهنّ، وتنشر معلومات حيوية من خلال منصات التواصل الاجتماعي. فعلى سبيل المثال، أدلى هاني جرجس، وهو رئيس منظمة التضامن القبطي حاليًا، بشهادته في جلسة استماع بالكونغرس الأميركي بعنوان "أقلية في خطر: الأقباط المسيحيون في مصر". وأبرزت هذه الشهادة، التي أذاعتها شبكة *C–SPAN*، أن هذه الجرائم توافق تعريف الأمم المتحدة للاتجار في البشر وتنسجم مع البروتوكولات المصرية والأميركية، وهو ما يسلّط الضوء على الدور المهم للدعوة الرقمية في تشكيل الوعي والسياسة الدوليَّين[60].

خاتمة

ناقشت الدراسة توظيف الشتات الرقمي القبطي في أميركا الشمالية للمنصات الرقمية، من أجل حشد الفاعلية السياسية، والدفاع عن حقوق الإنسان، والحفاظ على الهويتين الثقافية والدينية. فمن خلال وسائط التواصل الاجتماعي، أسست منظمات الدعوة القبطية شبكات عابرة للحدود، تعظّم أصواتها، وتعزز ظهورها، وتتفاعل مع البنى السياسية العالمية. بيد أن نتائج الدراسة أظهرت أنه على الرغم من فرص الحشد التي توفرها التقنيات الرقمية، فإن لها تحديات بارزة، بما في ذلك المعلومات المغلوطة، والحظر والرقابة على الإنترنت، وخطر القمع العابر للحدود.

وكما يتّضح من التجارب التي نقلها المشاركون في المقابلات، فإن هذه التحديات تترتب عليها نتائج ملموسة تؤثر في الناشطين الأقباط. فعلى سبيل المثال، يشدد "ج 7"، وهو محامٍ وناشط، على أن "الحكومة المصرية تقاوم أيّ تأثير خارجي في أسلوب تناول قضايا الأقباط، لا سيما حين يكون المدافعون عنها مقيمين في الخارج"[61]. وبالمثل، ذكر "ر 13"، وهو عضو تنفيذي في جمعية التضامن القبطي، أن الضغوط الحكومية أحبطت بدرجة كبيرة جهود الحشد لدى مجتمع الشتات، وخلقت مجتمعًا يعاني الخوف والحظر الذاتي[62]. ويتجلى خطر الانتقام السائد في تجربة "م 11"، وهو سياسي وناشط؛ إذ إنه تردد في نشر شعره عن العنف الطائفي، مخافة التداعيات التي قد تهدد فرصته في العودة إلى مصر[63]. وتُبرز هذه القصص تعرّض النشاط الرقمي لتهديدات كبيرة، في الوقت الذي قدّم فيه أدوات دعوة جديدة.

(60) "Jihad of the Womb: Trafficking of Coptic Women & Girls in Egypt," Coptic Solidarity, 10/9/2020, accessed on 23/6/2025, at: https://tinyurl.com/5ctmbw2z

(61) "ج 7".

(62) "ر 13".

(63) "م 11".

وفضلاً عن ذلك، تسلّط الدراسة الضوء على الانقسام الجيلي في الدعوة الرقمية؛ إذ يتفاعل أقباط الجيل الثاني بانتقائية مع سرديات الصدمة والاضطهاد. أما أقباط الجيل الأول، فلهم خبرة مباشرة بالتهميش في مصر، بينما يعتمد الأقباط الأصغر سنًا على نحو أساسي على انتقال الذاكرة العابر للحدود وعلى التعبير الرقمي. ويؤثّر هذا الفرق في موقفهم من الحركة، كما يظهر في شهادة "ي 22" السابقة الذكر. بيد أن هذا المنظور يتعارض مع آراء الناشطين الأصغر سنًا، مثل "د 5"؛ إذ يذكر أن "كثيرًا من أقباط الجيل الثاني لا يتفاعلون بالقوة نفسها مع منظمات الدعوة التقليدية، إذ تركّز أولوياتهم غالبًا على قضايا اجتماعية أكبر عوضًا عن المظالم القبطية المحددة"[64]. وهذا التحول الجيلي يعقّد جهود الحفاظ على حركة دعوة موحّدة عبر المجموعات العمرية المختلفة.

وعلى الرغم من هذه العقبات، وجدت الدراسة أن منظمات الدعوة القبطية ما زالت تتكيف مع المشهد الرقمي المتغير. فمجموعات، مثل التضامن القبطي، أظهرت صلابة، من خلال توظيف منصات دولية لتسليط الضوء على القضايا القبطية. وقد كان لجهودهم، التي تشمل الإدلاء بالشهادة في الكونغرس وحملات الالتماس الدولية، دور حاسم في الضغط على صنّاع السياسة لتناول التمييز النظامي الذي يعانيه الأقباط في مصر. بيد أن فاعليتهم تواجه تحديات متزايدة، من خلال الحظر الرقمي والمعلومات المغلوطة، وتبدّل الأولويات لدى مجتمع الشتات.

وللتعامل مع هذه التحديات، تبنّت جماعات الدعوة القبطية إجراءات استراتيجية، مثل تنويع حضورها على الإنترنت وتوظيف أدوات تواصل مؤمّنة، وتصميم رسائلها على نحو مناسب للسياقات السياسية والثقافية المختلفة. وقد سمحت صور التكيّف هذه بتجاوز حظر الشركات، والتخفيف من مخاطر رقابة الدولة، وضمان وصول سرديات الجماعات إلى جمهور أكبر. وفضلاً عن ذلك، مكّن صعود التمويل الرقمي المستقل المنظمات القبطية من العمل باستقلال مادي أكبر؛ ما قلل من الاعتماد على المؤسسات التقليدية التي قد تسعى للسيطرة على رسائل هذه المنظمات.

وعلى نطاق أوسع، تُظهر تجارب الشتات الرقمي القبطي كيف أن المجتمعات المهمشة توظف التقنيات الرقمية، من أجل المقاومة والبقاء معًا. وفي حين يواصل النشاط الرقمي التطور، تقدّم الحالة القبطية أفكارًا ثاقبة عن مثابرة منظمات الدعوة في الشتات في مواجهة قمع الدولة وتقييدات اللوغاريتمات. وفي النهاية، توفر المنصات الرقمية طرائق جديدة للتفاعل والاشتباك، لكن الواقع السياسي يحدّ من إمكاناتها؛ ما يتطلب منها تكيّفًا وإبداعًا مستمرَّين. وستعتمد استمرارية الدعوة الرقمية القبطية على قدرتها على الموازنة بين الظهور والأمن والحفاظ على التفاعل الجيلي وتطوير استراتيجيات تقاوم قمع الدولة وتحكّم الشركات.

ركّزت هذه الدراسة أساسًا على تحديات النشاط على شبكة الإنترنت داخل المجتمع القبطي، ودرست بوجه خاص حالات كالرقابة والحظر الذاتي والعقبات الأخرى الخاصة بالتفاعل الرقمي. وهكذا، لا تقدّم مراجعةً شاملة لتاريخ الأقباط في مصر أو علاقاتهم المجتمعية مع

(64) "د 5".

المسلمين. ومع أن ثمة أبعادًا، كالأصل والثقافة والدين واللغة والثقافة والتحديات التاريخية التي يواجهها المجتمع القبطي، تعدّ أساسية لفهم سياقه، فإن هذه الدراسة لا تضعها في صلب تركيزها، ولا تغطي بتوسع تاريخ هجرة الأقباط أو تشكّل الشتات القبطي، بوصفه مجموعة عابرة للحدود، بل تقدّم أفكارًا عن الدوافع الاجتماعية والثقافية والسياسية للهجرة القبطية إلى أميركا الشمالية، مبرزةً النشاط وجهود الحشد في الفترات الأولى، والتي شكّلت الدعوة الرقمية الحالية.

وفضلاً عن أوجه القصور هذه، يواجه مصطلح "الشتات الرقمي" تحديات ومفارقات عديدة. أولاً، ليس للمصطلح تعريف واضح، وذلك على الرغم من العديد من التأويلات والمصطلحات الناشئة كالشتات الرقمي وشتات الشبكة. ويمكن أن يؤدي هذا الغموض إلى تسطيح الفروق بين ممارسات ومجموعات مختلفة، أو دمجها ضمن إطار واحد؛ فيضعف بذلك فاعليتها في تناول أشكال الظلم وتعظيم الأصوات المهمشة. وإضافة إلى ذلك، لا يوجد منهج راسخ في تحديد الشتات الرقمي وتحليله، ويتجاهل البحث الحالي الدوافع والخبرات المختلفة لمجتمعات الشتات عبر الجنوب العالمي والشمال، وتنوعها الداخلي. ولتناول هذه القضايا، تقترح الدراسة النظر إلى جماعات الشتات الرقمي بوصفها تجمعات ديناميكية، عوضًا عن كونها كيانات ثابتة، مع الأخذ في الاعتبار طبيعتها المتغيرة وتفاعل الهوية المركّب والتواصل والانتماء. ويدمج هذا المنهج الأبعاد العاطفية والوجدانية للتفاعل الرقمي، انطلاقًا من الإقرار بتداخل العالمين الرقمي والمادي، وأن للعواطف دورًا حاسمًا في تشكيل تجارب الشتات. وبالنظر إلى هذه العوامل، يمكن أن يسهم هذا المنظور في تمكين الباحثين من فهم أعمق لكيفية تحويل التقنيات الرقمية تجاربَ الهجرة وتشكّل المجتمع والهوية.

وعلى الجانب الآخر، فإن لدراسة الشتات الرقمي القبطي ودوره في الحشد تداعيات مهمة لمستقبل البحث، يمكن أن تمتد إلى الحقل الأكبر الخاص بدراسات الشتات والدراسات العابرة للحدود. أولاً، يمكن تطبيق الديناميكيات الخاصة بالنشاط العابر للحدود في سياق الشتات الرقمي القبطي على مجتمعات شتات أخرى. كما يمكن أن يدرس الباحثون كيفية توظيف جماعات شتات متعددة منصات التواصل الاجتماعي للدفاع عن قضاياها السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية، في دولها الأصلية أو استكشاف فاعلية هذه الجهود. وعلاوة على ذلك، يمكن أن تكشف مقارنة الهويات الرقمية، عبر جماعات شتات مختلفة، عن أوجه التشابه والاختلاف؛ ما يحفز على دراسة أثر الهويات الرقمية في اندماج التراث الثقافي أو الحفاظ عليه في إطار مجتمعات شتات متعددة.

ثانيًا، يمكن أن يساهم ما ترصده الدراسة، من تحديات وانتكاسات خاصة بالتفاعل الرقمي المفرط، في إثراء البحث حول كيفية تعامل مجتمعات شتات مختلفة مع قضايا، كالتضييق على الإنترنت والمعلومات المضللة والغرف المغلقة Echo Chambers. يمكن أن تؤدي هذه المعرفة إلى استراتيجيات أفضل، لتعزيز أشكال التفاعل الإيجابي على الإنترنت. ثالثًا، يمكن أن يوفر البحث الطويل المدى، في تطور تعامل مجتمعات الشتات عبر وسائط التواصل الاجتماعي، رؤى معمّقة بشأن تغير الديناميكيات العابرة للحدود عبر الزمن؛ الأمر الذي يساعد الباحثين على تحديد التوجهات، وتكييف مناهجهم وفق ذلك. رابعًا، يمكن أن تتوسع مضامين الدراسة، الخاصة بسياسات استخدام

منصات التواصل الاجتماعي، لتشمل السياقات العابرة للحدود عمومًا. كما يمكن أن يفكر صناع السياسة والمنظمات في كيفية توظيف المنصات الإلكترونية أو تنظيمها، من أجل خدمة التعاون والدعوة والجهود الإنسانية العابرة للحدود. وأخيرًا، يمكن أن تتوسع الاعتبارات الأخلاقية الخاصة باستخدام وسائط التواصل الاجتماعي، لتشمل مجال الدراسات العابرة للحدود الأوسع. ويجدر بالباحثين والممارسين التعامل بجدّية مع قضايا الخصوصية وأمن البيانات ونشر المعلومات والتفاعل الرقمي المسؤول في المبادرات العابرة للحدود.

وإذا نظرنا إلى المستقبل، فإن دمج التقنيات الناشئة، كالذكاء الاصطناعي والواقع الافتراضي، في استراتيجيات التفاعل الرقمي يوفر فرصًا وتحديات. ويمكن أن تعزز هذه التقنيات جهود الدعوة، من خلال وسائل تواصل ورواية مبدعة، إلا أنها ستوجِد أيضًا مخاوف جديدة خاصة بالخصوصية والأمن. وسيظل الاستمرار في الاطلاع على الجديد والقدرة على التكيف حاسمًا لمنظمات الدعوة القبطية في سعيها المتواصل للتعامل مع المشهد الرقمي المتغير.

ملحق

بعض الأسئلة المختارة من المقابلات

1. كيف توظف منظمتك وسائط التواصل الاجتماعي والمنصات الرقمية للتواصل مع المجتمع القبطي والجماهير الأكبر؟ وما أهدافك الأساسية (مثلاً: الدعوة، الوعي، جمع التبرعات، بناء المجتمع)؟

2. ما أبرز التحديات التي تواجهها منظمتك في استخدام المنصات الرقمية في الدعوة والحشد؟ وهل تطورت هذه التحديات مع الوقت؟

3. كيف تؤثّر المخاوف من الرقابة الحكومية أو رقابة الشركات في استراتيجية منظمتك الرقمية؟ وهل لديك حالات من الرقابة والحظر أو أشكال أخرى من التحكم في المحتوى الذي تعرضه؟

4. كيف تصمّم رسائلك للتواصل مع جماهير مختلفة (قبطية وغير قبطية)؟ وهل يمكنك تقديم أمثلة عن حملات ناجحة أو مبادرات مكّنت الأدوات الرقمية من تحقيقها؟

5. كيف تؤثّر السياقات السياسية والاجتماعية، في مصر ودول الشتات المضيفة، في استراتيجيات دعوة منظمتك الرقمية؟ وهل أدت هذه السياقات إلى تغييرات في أنشطتك على الإنترنت؟

6. في رأيك، كيف أثّر توظيف الإعلام الرقمي في شعور المجتمع القبطي بالهوية، على المستوى الفردي أو الجمعي؟ أتعتقد أن هذا الأثر يقوّي الروابط المجتمعية أم يضعفها؟

7. إلى أي حدّ تتفاعل مع منظمات الدعوة القبطية على الإنترنت؟ وأيّ المنصات تجدها أكثر فاعلية؟ ولماذا؟

8. ما العوائق التي تمنع تفاعلك على نحو أنشط مع جماعات الدعوة القبطية على شبكة الإنترنت؟ وكيف يمكن أن تتعامل المنظمات مع تلك العوائق؟

9. هل يمكنك تقديم أمثلة محددة لتأثير الخصوصية والرقابة في أنشطتك أو أنشطة منظمتك الرقمية؟

10. كيف ترى مستقبل التواصل الرقمي للمجتمع القبطي في تطوره استجابةً لتلك التحديات؟

المراجع References

العربية

لبيب، هاني. **أزمة الحماية الدينية: الدين والدولة في مصر.** القاهرة: دار الشروق، 2000.

الأجنبية

2023 Report on International Religious Freedom: Egypt. U.S. Department of State. at: https://tinyurl.com/27t3jvxa.

Adamson, Fiona & Michael Demetriou. "Remapping the Boundaries of 'State' and 'National Identity': Incorporating Diasporas into IR Theorizing." *European Journal of International Relations.* vol. 13, no. 4 (2007).

Al–Rawi, Ahmed. *Islam on YouTube: Online Debates, Protests, and Extremism.* London: Palgrave Macmillan, 2017.

Anderson, Benedict. *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism.* London: Verso, 1997.

Appadurai, Arjun. *Modernity at Large: Cultural Dimensions of Globalization.* Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996.

Bakry, Amal & Mohammed F. Alkazemi. "Social Media Coverage of 'Maspero': Solidarity between Muslims and Christians Post the Egyptian Uprising." *Romanian Journal of Communication and Public Relations.* vol. 16, no. 3 (2014).

Baser, Bahar & Amira Halperin. "Diasporas from the Middle East: Displacement, Transnational Identities and Homeland Politics." *British Journal of Middle Eastern Studies.* vol. 46, no. 2 (2019).

Bennett, W. Lance. "The Personalization of Politics: Political Identity, Social Media, and Changing Patterns of Participation." *The Annals of the American Academy of Political and Social Science.* vol. 644, no. 1 (2012).

Bernal, Victoria. *Nation as Network: Diaspora, Cyberspace, and Citizenship.* Chicago: University of Chicago Press, 2014.

Botros, Mena. "The Coptic Identity: Recognizing the Coptic 'Indigenous Peoples' Status for Protection from State–Sponsored Discrimination." *Coptic Solidarity Report*. 2/5/2023. at: https://acr.ps/1L9GPkv

Brinkerhoff, Jennifer. "Digital Diasporas and Governance in Semi–Authoritarian States: The Case of the Egyptian Copts." *Public Administration and Development.* vol. 25, no. 3 (2005).

Coptic Solidarity. *The Impact of Social Media Restrictions on Coptic Advocacy* (2023). at: https://tinyurl.com/mu5rk3ht

Diminescu, Dana & Benjamin Loveluck. "Traces of Dispersion: Online Media and Diasporic Identities." *Crossings: Journal of Migration and Culture.* vol. 5, no. 1 (2014).

Egyptian Human Rights Forum. *Years of Persecution, Reprisals, and Deprivation of Basic Citizenship Rights: Targeting of Egyptian Human Rights Defenders in the Diaspora* (2024). at: https://acr.ps/1L9GPxZ

Elnaggar, Sameh. "Egyptian Diaspora Explains the Meaning of Its Political Engagement in Washington, DC." PhD. Dissertation. Walden University. 2019.

Guindy, Adel. *Sword Over the Nile: A Brief History of the Copts under Islamic Rule.* London: Austin Macauley, 2020.

Haddad, Yvonne. "Good Copt, Bad Copt: Competing Narratives on Coptic Identity in Egypt and the United States." *Studies in World Christianity.* vol. 19, no. 3 (2013).

Hiller, Harry H. & Tara M. Franz. "New Ties, Old Ties and Lost Ties: The Use of the Internet in Diaspora." *New Media & Society.* vol. 6, no. 6 (2004).

Kanas, Agnieszka, Frank van Tubergen & Tanja van der Lippe. "Immigrant Self–Employment: Testing Hypotheses about the Role of Origin–and Host–Country Human Capital and Bonding and Bridging Social Capital." *Work and Occupations.* vol. 36, no. 3 (2009).

Kumar, Priya. "Rerouting the Narrative: Mapping the Online Identity Politics of the Tamil and Palestinian Diaspora." *Social Media + Society.* vol. 4, no. 1 (2018).

Larsen, Larissa et al. "Bonding and Bridging: Understanding the Relationship between Social Capital and Civic Action." *Journal of Planning Education and Research*. vol. 24, no. 1 (2004).

Latonero, Mark & Paula Kift. "On Digital Passages and Borders: Refugees and the New Infrastructure for Movement and Control." *Social Media + Society.* vol. 4, no. 1 (2018).

Lee, Doowan. "Resistance Dynamics and Social Movement Theory: Conditions, Mechanisms, and Effects." *Journal of Strategic Security.* vol. 10, no. 4 (2017).

Leurs, Koen & Kevin Smets. "Five Questions for Digital Migration Studies: Learning from Digital Connectivity and Forced Migration in (to) Europe." *Social Media + Society.* vol. 4, no. 1 (2018).

Lynch, Marc (ed.). *The New Arab Media: Technology, Image and Perception.* Reading: Ithaca Press, 2011.

Magnet, Shoshana A. *When Biometrics Fail: Gender, Race, and the Technology of Identity.* Durham: Duke University Press, 2011.

Martin, Michelle E. "The Political Power of Diaspora as External Actors in Armed Civil Conflict: Ethnonationalist Conflict–Generated Diaspora Use of Social Media in Transnational Political Engagement in Homeland Conflict: The Case of Rwanda." PhD. Dissertation. Department of Peace Studies. University of Bradford. 2013.

Marzouki, Nadia. "The U.S. Coptic Diaspora and the Limit of Polarization." *Journal of Immigrant & Refugee Studies.* vol. 14, no. 3 (2016).

Navarro, Vicente. "A Critique of Social Capital." *International Journal of Social Determinants of Health and Health Services.* vol. 32, no. 3 (2002).

Nie, Norman H. & Lutz Erbring. "Internet and Society: A Preliminary Report." *IT & Society.* vol. 1, no. 1 (2002).

Pullum, Amanda. "Social Movement Theory and the Modern–Day Tea Party." *Sociology Compass.* vol. 8, no. 12 (2014).

Rowe, Paul S. "Building Coptic Civil Society: Christian Groups and the State in Mubarak's Egypt." *Middle Eastern Studies.* vol. 45, no. 1 (2009).

_____. "Neo–Millet Systems and Transnational Religious Movements: The Humayun Decrees and Church Construction in Egypt." *Journal of Church and State.* vol. 49, no. 2 (2007).

Saad, Michael. "The Contemporary Life of the Coptic Orthodox Church in the United States." *Studies in World Christianity.* vol. 16, no. 3 (2010).

Tadros, Mariz. "Vicissitudes in the Entente between the Coptic Orthodox Church and the State in Egypt (1952–2007)." *International Journal of Middle East Studies.* vol. 41, no. 2 (2009).

Tremblay, Marie–Claude. "Can we Build on Social Movement Theories to Develop and Improve Community–Based Participatory Research? A Framework Synthesis Review." *American Journal of Community Psychology.* vol. 59, no. 3–4 (2017).

Westbrook, Donald A. & Michael Saad. "Religious Identity and Borderless Territoriality in the Coptic E–Diaspora." *Journal of International Migration and Integration.* vol. 18, no. 1 (2017).

Yefet, Bosmat. "The Coptic Diaspora and the Status of the Coptic Minority in Egypt." *Journal of Ethnic and Migration Studies.* vol. 43, no. 7 (2017).

Zaki, Youssef. "A Theban Legion on the Banks of the Potomac: Coptic Political Activism in the Diaspora, the U.S., and the Egyptian Polity." *IMES Capstone Paper Series*, George Washington University (2010).

Zhang, Saijun, Steven G. Anderson & Min Zhan. "The Differentiated Impact of Bridging and Bonding Social Capital on Economic Well–Being: An Individual Level Perspective." *The Journal of Sociology & Social Welfare.* vol. 38, no. 1 (2011).

المعرّف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/UQPB2682
القبول Accepted
2024-10-17
التعديل Revised
2024-10-7
التسلم Received
2024-7-15

فاروق الطاهري | Farouk Tahri*

نحو أنثروبولوجيا صيدلية بالمغرب: بيوغرافيا دواء الأوريوميسين من الإنتاج المادي إلى إعادة التأويل الثقافي

Toward a Pharmaceutical Anthropology in Morocco: The Biography of Aureomycin from Physical Production to Cultural Reinterpretation

ملخص: يتطلب الحديث عن أنثروبولوجيا للصيدلة تجاوز النظرة التقليدية التي تميز بين الأدوية الشعبية والسحرية والأدوية العصرية والاعتيادية، والانتقال إلى دراستها كلها بالنظرة نفسها. إن اعتماد المقاربة البيوغرافية للأشياء يندرج في هذا الإطار، ويساعد على فهم التحولات والتفاعلات المختلفة التي تحكم دواءً ما في سياق زمني واجتماعي معين. من هذا المنظور، تعكف الدراسة على تتبع سيرة حياة دواء الأوريوميسين في المغرب بداية من السياقات التي ظهر فيها مرورًا بإنتاجه المادي، ثم عمليات التسويق والتوزيع وصولاً إلى الاستهلاك. أظهر هذا التتبع أن الدواء لا يستخدم بالطريقة التي يتوقعها الفاعلون المنتجون، بل يخضع لمنطق الهراطقة الصيدليين الذين يجعلون منه دواءً شعبيًا وجزءًا من عمليات علاج جديدة، ليست عصرية كليًا ولا شعبية تمامًا، بل هي بينية.

كلمات مفتاحية: أنثروبولوجيا صيدلية، بيوغرافيا الدواء، الأوريوميسين، إعادة التأويل الثقافي، المغرب.

Abstract: To discuss pharmaceutical anthropology requires moving beyond the traditional distinction between folk remedies and standard modern medicines, toward studying them all the same way. The biographical approach to objects helps in understanding the various transformations and interactions that govern a medicine in a given temporal and social context. This article traces the life story of Aureomycin in Morocco, from the contexts in which it appeared, through its physical production, marketing and distribution processes, and finally its consumption. It becomes evident that the medicine is not used in the way that producers expect; rather, it is subjected to the logic of "pharmaceutical heretics" who treat Aureomycin as folk medicine and part of new, intermediary treatment process – one that is neither wholly modern nor traditional.

Keywords: Pharmaceutical Anthropology, Biography of Medicine, Aureomycin, Cultural Reinterpretation, Morocco.

* باحث، حاصل على الماجستير في علم الاجتماع من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي، المغرب.
Researcher. Holds a master's in Sociology from the Faculty of Letters and Humanities, Abdelmalek Essaâdi University, Morocco. Email: tahrifarouk6@gmail.com

مقدمة: بيوغرافيا الأشياء وسيرورة السلعنة

سيرة الحياة، أو البيوغرافيا، هي ذلك الوصف المكثف لحياة شخص ما وانتقاله من سياق إلى آخر، بداية من الولادة، مرورًا برحلة الحياة ووصولاً إلى الموت. فسيرة الحياة من منظور أنثروبولوجي، سواء أنظرنا إليها على أنها استعارة، أم عملية استفسار، أم بناء تفاوضي مشترك (بين الكاتب والموضوع)، هي مركب هجين وفي الوقت نفسه متكامل؛ ذلك لأنها تأخذ في الاعتبار السياقات الحساسة والدقيقة، من دون أن تغفل التفاعلات الأوسع التي أدت إلى إنتاج هذه السيرة[1]. ولن نبتعد في هذه الدراسة كثيرًا عن هذا المفهوم لسيرة الحياة، وحتى نقارب الفهم، لنتحدث عن بيوغرافيا حديثة نسبيًا، لكنها مشابهة لتلك السير التي كتبت قبل مئات السنين؛ إنها بيوغرافيا الأشياء. فمن حيث الجوهر، ليس هناك اختلاف كبير بينها وبين بيوغرافيا العبد، بل حتى نفهم طبيعة هذه البيوغرافيا الجديدة، سنعود قليلاً إلى ما سبق، ونحاول فهم سيرة حياة العبد.

يجري تعريف العبودية بصفة عامة بأنها الكيفية التي يتم بها التعامل مع الناس وتداولهم، على أنهم ممتلكات، نوع من الأشياء. تبدأ العبودية من بيع شخص ما أو أسره، وبذلك يُجرّد من هويته الاجتماعية، ويصير بذلك "لاإنسان"، شيئًا أو سلعة محتملة. لكن السيرورة تستمر لما هو أبعد من هذا. فالعبد، بعد وصوله إلى سيده أو سادته الجدد، يتم إقحامه في سياق اجتماعي جديد بالنسبة إليه[2]. هذه النظرة البيوغرافية إلى العبودية، باعتبارها سيرورة، تتشابه مع عملية سلعنة Commoditization تجري على الأشياء الأخرى، وتمر تقريبًا من المسار نفسه، وباعتبارها جزءًا من البناء الثقافي للسير الذاتية[3].

ما يهمنا هنا على نحوٍ خاص من بين الأشياء العديدة الموجودة في المجتمع، الأدوية، وهي مثل كل الأشياء موضوع تداول، وتخضع لسيرورة سلعنة مستمرة، وتحمل معاني اجتماعية مختلفة باختلاف السياقات التي توجد فيها. وربما كان الاختلاف الوحيد بين سلعنة العبد وسلعنة الدواء ما يمكن أن نسميه السلعنة النهائية Terminal Commoditization، وهو المنطق نفسه الذي تبنته الكنيسة الكاثوليكية قديمًا أثناء بيعها صكوك الغفران؛ فالآثم يشتري الغفران له وحده، ولا يمكنه إعادة بيعه بعد ذلك. وفي الطب الحديث، وبالطريقة نفسها، يتم تحقيق هذه السلعنة النهائية بوساطة من القانون، متمثلة في منع إعادة بيع دواء موصوف Prescribed Drug، ومنع بيع أي دواء بلا رخصة؛ وذلك ببساطة لأن الدواء سلعة نهائية، فهو من المفترض أنه يصلح لمريض بعينه، تتوافر فيه شروط استخدام ذلك الدواء عينه[4].

(1) David Zeitlyn, "Life–History Writing and the Anthropological Silhouette," *Social Anthropology/Anthropologie Sociale*, vol. 16, no. 2 (2008), p. 167.

(2) Igor Kopytoff, "The Cultural Biography of Things: Commoditization as Process," in: Arjun Appadurai (ed.), *The Social Life of Things: Commodities in Cultural Perspective* (Cambridge: Cambridge University Press, 2013), p. 65.

(3) Ibid.

(4) Ibid., p. 75.

لكن هذا لا يمنع وجود قصة معقدة وراء كل دواء؛ إذ هو لم يولد بين ليلة وضحاها، "بل هو نتاج رحلة عبر الزمن في الأفعوانية، تختلط فيه محصلة اكتشافات عرضية، وتحليل منطقي حدسي، وثمرة العبقرية المذهلة، والطموح الشخصي، والمنافسة الشرسة بين الشركات"[5]. ومثلما هو حال الأسبيرين، قد يعيدنا تاريخ الدواء إلى تفاعل بين عوامل مختلفة، وفي الوقت نفسه متصلة[6]. وعلى ذلك، ينبغي لنموذجٍ لبيوغرافيا الأدوية أن يتضمن، إضافة إلى السلوكيات الفردية، البنى المؤسساتية والميول السوسيوتاريخية، وأيضًا التفاعلات فيما بينها مع مرور الوقت[7].

إن الحديث عن بيوغرافيا للأدوية الصيدلية هو نوع من المجاز، يحيل إلى تلك السيرورة التي يمر بها الدواء، انطلاقًا من إنتاجه مرورًا بتسويقه، ثم شرائه واستهلاكه. والفاعلون في هذه السيرورة هم الذين يعطون الدواءَ تاريخًا[8]. إذًا فسيرة حياة دواء، هي على الدرجة نفسها من تعقيد سيرة حياة إمبراطور روماني، وتتداخل فيها عوامل مختلفة تتقاطع أحيانًا، وتتباعد أحيانًا أخرى. لكن، من منظور أنثروبولوجي، يمكن اختزال بيوغرافيا الدواء في نمط معين، يعبر عن تلك الحركية التي تعرفها الأدوية، سواء على مستوى الاستخدامات أو الدلالات. فحينما يتتبع الباحث المعاملات المختلفة للأدوية الصيدلية، سيكون في إمكانه رصد نوع من السيرة الذاتية. فالبداية تكون مع تصنيع الدواء في وسط علمي وتكنولوجي معيّن، وبعد التصنيع يتم توزيع الأدوية على البائعين المختصين سواء أكانوا صيادلة، أم أطباء، أم مستخدمي محلات أدوية. ثم تأتي مرحلة التسويق ببيع الأدوية للمستهلكين، مباشرةً على أساس وصفة طبية، أو عبر عرضها في المحلات أو الصيدليات. حينما يصل الدواء إلى يد المستهلك، يكون قد وصل إلى المرحلة الأخيرة من حياته، حيث يستخدمه، سواء بغرض استعادة عافيته، أو تحسينها، أو حفظها على حالها. وهذه اللحظة هي الحاسمة في حياة الدواء؛ فالاستخدام الخاطئ، يعني أن حياته كانت بلا جدوى. وإن كان العكس، يكون الدواء قد حقق الهدف، ومن ثمّ صارت له حياة بعد موته، وهو العمل على تحسين صحة المستهلك، وأيضًا تحقيق الهدف الذي تم تصنيعه من أجله[9].

ما هو مثير للانتباه بالنسبة إلى الأدوية، أننا، على الرغم من امتلاكنا مسار حياتها، لا نعلم حقًا إن كانت ستلتزم بما هو مخطط لها، أي أن تعيش الحياة التي كتبت لها. ففي نهاية المطاف، تعيش الأدوية حياتها الخاصة بعيدًا عما هو مقدر لها، وعلى نحوٍ مستقل عن الصيادلة والأطباء[10]. هذا ما يمكن أن

(5) ديارموند جيفريز، **الأسبرين: قصة استثنائية لعقار أعجوبي**، ترجمة تانيا ناجيا (بيروت: دار الساقي، 2005)، ص 16–17.

(6) المرجع نفسه.

(7) David Cohen et al., "Medications as Social Phenomena," *Health*, vol. 5, no. 4 (2001), pp. 448–449.

(8) Sjaak Van Der Geest, Susan Reynolds Whyte & Anita Hardon, "The Anthropology of Pharmaceuticals: A Biographical Approach," *Annual Review of Anthropology*, vol. 25 (1996), p. 156.

(9) Sjaak Van Der Geest & Kerry Chamberlain, "Researching the Life Stages of Medicines," *Medische Antropologie: Journal about Culture and Health*, vol. 23, no. 2 (2011), p. 232.

(10) Sjaak Van Der Geest, "Anthropology and the Pharmaceutical Nexus," *Anthropology Quarterly*, vol. 79, no. 2 (Spring 2006), p. 307.

نسميه أيضًا "الحياة السرية للأدوية"، وهي حياة موازية لحياتها الرسمية. فلئن كانت هذه هي الحياة التي يفترض أن تعيشها، فإن حياتها الأخرى، السرية، هي تلك التي تبدأ حين تخرج من الصيدلية لتدخل في نطاق التداول غير الرسمي[11]. وهذا المرور هو انتقال على مستوى العقلانية كذلك؛ إذ إن المرور من وسط علمي إلى آخر محلي أو شخصي يعني الانتقال من معرفة علمية إلى أخرى محلية أو شخصية. وفي تقاطع الطرق بين الثقافة المحلية والشخصية، وتقنيات السوق، تظهر عقلانية جديدة في علاقة بالأدوية[12].

تأسيسًا على هذا المنظور، نبحث في بيوغرافيا أحد أشهر الأدوية في المغرب، وأكثرها انتشارًا واستعمالاً، وهو مرهم الأوريوميسين Aureomycine، المشهور بين المغاربة باسم "البوماضا الصفرا". وسنبحث في تاريخ هذا المضاد الحيوي في المغرب، وكيفية انتشاره، وصولاً إلى الوقت الراهن، حيث يتم استهلاكه بطرائق لا تعبر عن وظيفته الرئيسة كما رسمتها له العقلانية الصيدلية العلمية باعتباره دواء للعينين. نحاول فهم طرائق الاستهلاك الجديدة هذه، عبر تحليل مضمون الوصفات والاستخدامات المختلفة للمرهم، والتي يشاركها مستخدمو منصة يوتيوب. وعلى الرغم من أن تداول هذه الوصفات يتجاوزها، فإنها في هذه المنصة تمكّن من قياس أثر كل وصفة وصداها، عبر حساب عدد المشاهدين. أضف إلى ذلك أن إمكانية نشر الفيديوهات الطويلة، وتحقيق الربح منها، تجعل منها المنصة الأنسب لصناع المحتوى من أجل مشاركة "إبداعاتهم" وتقنياتهم المبتكرة في استخدام الأوريوميسين. فما سيرة حياة الأوريوميسين في المغرب؟

أولاً: قبل الإنتاج: كيف صار مرهم للعينين أشهر دواء في المغرب؟

مع دخول الاستعمار الفرنسي إلى المغرب (1912)، كانت هناك مجموعة من الأمراض الخطرة التي أرهقت المغاربة، وأنهكتهم، ومن أبرزها أمراض العينين، ومنها خاصةً التراكوما Trachoma، والتهاب الملتحمة الموسمي Conjunctivitis. والمثير للانتباه، بخصوص هذه الأمراض، أنها لم تكن حكرًا على الفقراء فقط؛ إذ نعلم أن الأمير مولاي عبد السلام ابن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان مصابًا بمرض في عينيه كاد يفقده بصره، لولا تدخل طبيب إنكليزي لإنقاذه[13]. وبين العامة، كانت أمراض العيون شائعة جدًّا، وبطرائق متعددة صار الناس متصالحين معها. فقد أشارت إحدى الطبيبات الفرنسيات، أثناء وصولها إلى المغرب سنة 1913، إلى مواكب من العمي أدهشتها، يجوبون الطرقات

(11) Anne M. Lovell, "Addiction Markets: The Case of High–Dose Buprenorphine in France," in: Adriana Petryna, Andrew Lakoff & Arthur Kleinman (eds.), *Global Pharmaceuticals: Ethics, Markets, Practices* (Durham, NC: Duke University Press, 2006), pp. 155–156.

(12) Geest & Chamberlain, p. 234.

(13) بوجمعة رويان، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912–1945**، ط 2 (الرباط: منشورات الرباط نت، 2020)، ص 264.

والشوارع، "يمرون واضعين أيدي بعضهم على أكتاف البعض أو يحملون عصا يأخذ كل واحد منها بطرف، فيكونون مجموعات تمشي وهي ترتل الأدعية طالبة الصدقة"[14]. وجنبًا إلى جنب مع مأساوية أمراض العيون على الأفراد، كانت هناك حمولة رمزية كبيرة تدفع المصابين بها إلى الهامش. فقد اعتبر المغاربة – بحسب إدوارد وسترمارك – نذيرَ شؤمٍ أن تلتقي صباحًا شخصًا أعمى أو يرى بعين واحدة فقط؛ إذ يذكرهم بالشيطان الذي كان في تصور ويسترمارك، ربما، شبيه المسيح الدجال الذي لم تكن له، هو أيضًا، سوى عين واحدة. وكان المغاربة يعتقدون أن على من يلتقي شخصًا أعمى، أو يرى بعين واحدة، أن يعود إلى البيت ويأخذ قيلولة، وإلا فإنه لن ينجح فيما هو مقبل عليه[15].

وهكذا، فأمراض العيون في المغرب لها جذور ثقافية، وربما لهذا علاقة بتخوف المغاربة من العين – مثل أغلب شعوب العالم – وأيضًا إيمانهم بقوتها. أما بالنسبة إلى الفرنسيين الذين كانوا يحاولون استغلال الثروات البشرية، فقد كانت أمراض العيون – المعدية – مجرد عائق آخر على طريق تحقيق أهدافهم في الهيمنة على الناس بكل سلاسة وبأقل الخسائر. فقد اعتمد الأطباء الفرنسيون عددًا من الأدوية، من أجل علاج الرمد أو التراكوما مثلاً الذي كان، مثلما أشار إلى ذلك أحد الأطباء، يضرب مجموع السكان في بعض المناطق[16]. وفي ذلك تم تجريب زيت الفازلين Huile de Vaseline، وقطرات الكوكايين، وزيت الشلموجرا L'huile de Chaulmoogra الذي سبق استخدامه لعلاج تورمات المجذومين[17]. وهذه كانت بداية مرحلة العلاج الحيوي للأمراض التي تنتشر بين العامة. وقد صارت أدوية أمراض العيون شائعة أكثر، بعد أن أمرت السلطات الفرنسية بتكثيف توزيع أدوية وقطرات العيون بالكثافة نفسها التي كانت توزع بها الكينة المضادة لحمى المستنقعات[18]. وفي سنة 1933، أصدرت السلطات الفرنسية وإدارة الصحة في المغرب كتيبًا بالفرنسية والعربية بعنوان **أعينونا على مقاومة داء التراكوم**، وفيه وصف للمرض وآليات انتشاره ونصائح للوقاية منه وسبل لعلاجه أيضًا[19]، وكانت تلك أول خطوة نحو تأميم المعرفة حول الأمراض وعلاجها بين العامة من المغاربة.

استمر مرض التراكوما بين المغاربة من دون أن يكون هناك أي تطور مهم في السيطرة عليه، وبين سنتي 1952 و1953 تم تطوير برنامج عمل مشترك، يجمع جهود الحكومة المغربية ومنظمة الصحة العالمية وكذلك منظمة الأمم المتحدة للطفولة. وقد كان الهدف الرئيس لهذا البرنامج المشترك، هو تطوير نموذج علاج جماعي، فعال واقتصادي، ضد داء الرمد في المغرب[20].

(14) المرجع نفسه، ص 374.

(15) Edward Westermarck, *Ritual and Belief in Morocco*, vol. II (New York: University Books Inc, 1968), p. 13.

(16) رويان، ص 376.

(17) المرجع نفسه، ص 375.

(18) المرجع نفسه.

(19) المرجع نفسه، ص 377.

(20) J. Reinhards et al., "Studies in the Epidemiology and Control of Seasonal Conjunctivitis and Trachoma in Southern Morocco," *Bulletin of the World Health Organization*, vol. 39, no. 4 (1968), pp. 499–500.

أُجريت في هذا السياق تجارب سريرية عديدة، من أجل الوصول إلى النتيجة الأفضل، بأقل تكلفة ممكنة، وهذا في الأصل هو الهدف من هذا البرنامج؛ فبين سنتي 1954 و1958، أُجريت تجارب سريرية في مؤسسات تعليمية مختلفة في كل من مراكش ومكناس وبعض المناطق القروية نواحي تزنيت، وذلك من أجل تحديد مدى نجاعة مضاد حيوي واحد، هو الكلورتتراسكلين Chlortetracycline في علاج الرمد أو التراكوما[21]، وكان الاسم التجاري لهذا المضاد الحيوي هو الأوريوميسين. وكانت أغلب النصوص الإنكليزية تحيل إلى اسم المضاد الحيوي Chlortetracycline، بينما تشير النصوص الفرنسية إلى اسمه التجاري Aureomycine، وهي تحيل في نهاية المطاف إلى المادة نفسها[22]، وتفاديًا للارتباك، سنحيل إلى المضاد الحيوي باسمه التجاري فقط؛ أي الأوريوميسين.

برزت أهمية الأوريوميسين في علاج أمراض العينين والتهاباتها منذ التجارب السريرية الأولى، وقد قُدِّم المرهم لساكنة منطقة سكورة طوال سنتَي 1953 و1954 مع تعليمات حول كيفية استخدامه للعلاج الذاتي[23]. وفي كلميمة، ما بين سنتي 1954 و1955 وأيضًا بين 1964 و1966، جرى اعتماد أساليب مختلفة للعلاج الجماعي للتراكوما، من بينها استخدام مرهم الأوريوميسين (1 في المئة) موضعيًّا على العينين، مرتين في اليوم ثلاثة أيام متتالية، ويتم تكرار العملية شهريًّا طوال موسم التهاب الملتحمة؛ أي بين حزيران/ يونيو وتشرين الثاني/ نوفمبر[24].

سيستمر توزيع الأوريوميسين على سكان الأقاليم الجنوبية الشرقية للمغرب على نطاق أوسع، خصوصًا إقليم ورزازات، وبخاصة كل القرى التي يمكن أن يتّصل بها سكان سكورة؛ وذلك من أجل السيطرة الكاملة على التهاب الملتحمة الموسمي. وقد كان الهدف، هو توزيع أفراد اكتسبوا خبرة في استخدام المضاد الحيوي على هذه المناطق، ليساعدوا على التقليل من حدة الالتهابات الموسمية عبر نشر معرفتهم بالدواء وبطريقة استعماله[25].

أكدت هذه التجارب، التي تمت في أنحاء المغرب، أهمية الأوريوميسين علاجًا فعالاً وموثوقًا ضد التراكوما، وأيضًا ضد الالتهابات الموسمية للملتحمة. وقد حقق العلاج باستخدام الأوريوميسين ثلاث مرات في اليوم طوال ستين يومًا نسبة بُرء تصل إلى 80 في المئة في المدارس العصرية الأفضل، وفي ظل الشروط نفسها، أمكن تخفيض التطبيق الموضعي للمرهم إلى مرتين في اليوم فقط من دون أن تتأثر النجاعة العلاجية. وتؤكد هذه التجربة بوضوح أنه ليس من الضروري الالتزام بجدولة علاج طويلة وصارمة ومكلفة؛ إذ يمكن الحصول على النتائج نفسها في مدة أقصر وبكمية أقل من الدواء.

(21) Ibid., p. 500.

(22) Gian Battista Bietti, "Progrès de la chimiothérapie et de l'antibiothérapie du trachome: Épreuves d'efficacité, nouveaux produits, traitement intermittent," *Bulletin of the World Health Organization*, vol. 28, no. 4 (1963), p. 401.

(23) Reinhards, p. 525.

(24) Ibid., p. 500.

(25) Ibid., p. 528.

وقد فتحت هذه التجارب الباب أمام تعميم العلاج بالأوريوميسين في جميع أنحاء المغرب[26]. ونظرًا إلى قلة الموارد المادية والبشرية، كان تبني العلاج الذاتي ضرورة لا مفر منها؛ إذ تبنت الحكومة هي أيضًا هذا الرأي، وبذلك صارت الساكنة مسؤولة عن شراء المضاد الحيوي واستخدامه؛ ما عزز الأمل في نجاح البرنامج[27].

ثانيًا: الاكتشاف والإنتاج: الحلقة الأولى من بيوغرافيا دواء

في المغرب تنويعة يصعب حصرها من الأدوية المتوافرة على نطاق واسع في مختلف بقاع البلد، وعلى الرغم من أنه من الممكن جدًّا كتابة بيوغرافيا لكل دواء في السوق، فإنها ستكون شبيهة بكتابة بيوغرافيا رجل عاش وحيدًا طوال حياته في بيته، ثم مات. ستكون بيوغرافيا محدودة جدًّا، وفي أحسن الأحوال ستؤكد ما هو متوقع في الأصل من ذلك الدواء، وأقصد هنا خاصة الأدوية التي لا تتوافر في السوق إلا بوصفة طبية، وهي أدوية موجهة أساسًا إلى أمراض بعينها، ولارتفاع تكلفتها وندرتها، يكون صعبًا على الناس المغامرة باستخدامها في غير ما هو متوقع منها – فأدوية السرطان بصفة خاصة مثلاً مكلفة جدًّا – وربما خوفًا من القوة التي يعتقد الناس أن هذه الأدوية تحوزها. لكن هناك على العكس من ذلك أدوية أخرى، مثل الأوريوميسين، تعيش حياة حافلة بالطفرات والتغيرات غير المتوقعة على الإطلاق. ويرجع ذلك إلى تاريخها الطويل بين المغاربة، ولأن ثمنها مناسب ومعقول نسبيًا لكل الطبقات الاجتماعية.

ومن ضمن مصاعب دراسة سيرة حياة الأدوية، تكون المرحلة الأولى منها هي الأقل دراسة وبحثًا، وقد يرجع ذلك إلى العوائق التي تحول دون دخول الباحثين الاجتماعيين إلى عوالم شركات الصيدلة ودراستها[28].

تبدأ سيرة حياة الأوريوميسين بعد الحرب العالمية الثانية، في الولايات المتحدة الأميركية، حيث وظّفت مختبرات ليدرلي Lederle البروفيسور الأميركي بنيامين دوغار من أجل إيجاد مكون فعال ضد الملاريا، وقد أوجد دوغار بعد مدة قصيرة من توظيفه سنة 1945 فطرًا Fungus ينبعث منه مضاد حيوي قوي أصفر اللون، وسرعان ما دخل هذا المضاد الحيوي السوق باسم أوريوميسين[29]. وفي سنة 1948، أعلن دوغار عن اكتشافه في منشور ضمن "حوليات نيويورك الأكاديمية للعلوم"[30].

(26) J. Reinhards, A. Weber & F. Maxwell–Lyons, "Collective Antibiotic Treatment of Trachoma: Report on Comparative Trials Leading to more Economic Methods of Treatment," *Bulletin of the World Health Organization*, vol. 21, no. 6 (1959), p. 699.

(27) Reinhards et al., p. 537.

(28) Geest & Chamberlain, p. 234.

(29) Thomas H. Jukes, "Some Historical Notes on Chlortetracycline," *Reviews of Infectious Diseases*, vol. 7, no. 5 (1985), pp. 702–703.

(30) Benjamin Duggar, "Aureomycin: A Product of the Continuing Search for New Antibiotics," *Annals of the New York Academy of Sciences*, vol. 51, no. 2 (1948), pp. 177–181.

وفي سنة 1951، أي بعد بضع سنوات من اكتشاف دوغار الجديد، أنتجت الشركة الفرنسية "رون بولنك" Rhône–Poulenc الأوريوميسين بالتعاون مع شركة ليدرلي الأميركية[31].

لم يكن اكتشاف دوغار متضح المعالم، فقد كان دواءً محتملاً لتنويعة مختلفة من الأمراض، لكن الاهتمام بالأوريوميسين دواءً محتملاً للتراكوما بدأ فعليًا سنة 1950. وعلى الرغم من أن الحالات التي تم علاجها باستخدام قطرات الأوريوميسين كانت محدودة جدًّا[32]، فقد تبين بعد تقديمه لعدد من المرضى، أنه دواء فعال للتراكوما، خصوصًا أن نتائجه الإيجابية كانت تظهر بسرعة على عكس الأدوية التي استخدمت سابقًا[33].

الأوريوميسين مثلما هو معروف اليوم في المغرب يأتي على شكل مرهم، لكنه في المراحل الأولى من حياته ظهر بأشكال أخرى، هي أساسًا قطرات تسكب في العينين، وكبسولات طبية للبلع[34]، وأيضًا على شكل مسحوق، وقد تميز في شكله هذا بكونه موجعًا أكثر[35]. وفي كل أشكاله المختلفة، حقق الأوريوميسين نتائج مبهرة[36].

تأكد في السياق المغربي أن المرهم هو أفضل شكل يمكن أن يتخذه المضاد الحيوي؛ وذلك لأن البرنامج الذي تم تبنيه، من أجل محاربة التراكوما، يهدف إلى تحقيق أفضل نتيجة ممكنة وبأقل تكلفة. فقد كان من الأسهل على المسؤولين الصحيين تقديم المرهم مع تعليمات حول كيفية استخدامه للعلاج الذاتي[37].

كان الفاعلون في هذه المرحلة من سيرة حياة الدواء يعملون في الخفاء، وهم فاعلون اقتصاديون وسياسيون بدرجة أولى، لكنهم كانوا يحققون أهدافهم بوساطة من التقنية والطب الحيوي خاصةً. كانوا يتعاملون مع الدواء على أنه سلعة، ويعطلون أهميته الرمزية والمادية؛ فما كان يهمهم في تلك المرحلة هو تحقيق الربح. كان هؤلاء الفاعلون يعملون جاهدين على إعطاء العلم والتقنية الطبية بعدًا ربحيًّا، وذلك عبر خلق فضاء يسهّل عملية التبادل بين الأوساط العلمية والصناعية[38].

(31) André Frogerais, "Les origines de la fabrication des antibiotiques en France," *Hal Open Science* (2015), p. 20.

(32) Arthur Joseph Boase, "Aureomycin in Trachoma," *The British Journal of Ophthalmology*, vol. 34, no. 10 (1950), p. 627.

(33) Ibid., pp. 631–632.

(34) Stewart Duke–Elder, Derek Ainslie & Arthur James Boase "Aureomycin in Ophthalmology: A Preliminary Report," *The British Journal of Ophthalmology*, vol. 34, no. 1 (1950), p. 30.

(35) Toulant et al., "Essais de traitement du trachome par l'auréomycine et la chloromycétine," *Bulletin de L'académie Nationale de Médecine*, vol. 135, no. 5–6 (1951), p. 81.

(36) Renald Ching, "Aureomycin in the Treatment of Trachoma," *AMA Archives of Ophthalmology*, vol. 45, no. 6 (1951), p. 659.

(37) Reinhards et al., p. 525.

(38) Paul Rabinow, *Making PCR: A Story of Biotechnology* (Chicago: The University of Chicago Press, 1996), p. 10.

ثالثًا: البناء الثقافي للمعنى، وانطلاق عملية السلعنة

1. البناء المادي والثقافي والرمزي لدواء الأوريوميسين

انتبه سياك فان دير جيست وكيري تشمبرلاين، قبل عدة سنوات، إلى أهمية دراسة الأدوية من وجهة نظر أنثروبولوجية، باعتبارها مواضيع ثقافية ذات أبعاد اجتماعية، معنوية، تجارية وسياسية، وإضافة إلى أهميتها الطبية[39]، فهي موضوع تبادل باعتبارها سلعة، لكن ما الذي يجعل الشيء سلعة؟ إن السلعة هي شيء له قيمة ويمكن إخضاعه لعملية تبادل بشيء آخر تكون قيمته موازية لقيمة الشيء موضوع التبادل، وأثناء عملية التبادل يكون الشيء المراد بيعه، والشيء الذي يقدم مقابله، سلعتين معًا[40]. إذًا، فالدواء من جهة موضوع تداول وتبادل بين الأفراد، ومن جهة أخرى هو شيء، له حياة خاصة به. وهي حياة تخضع لتغيرات محورية بتغير السياقات المختلفة والفاعلين المتحكمين فيه[41].

في مرحلة التسويق من سيرة حياة الدواء، يكون الفاعلون الرئيسون هم المستهلكين، أو المستهلكين السابقين، أو المستفيدين مباشرةً من بيع الدواء عبر بيعه للمستهلك. لكن قبل الحديث عن البعد الاقتصادي للعملية، هناك في الخلفية بناء ثقافي هو الذي يجعل من هذا الشيء – الدواء – سلعة يرغب الجميع في الحصول عليها. إن موضوع تداول الأدوية في المجتمع ليس شيئًا مستحدثًا، لكن جرى غض البصر عنه مدةً طويلة جدًّا، والسبب يرجع أساسًا إلى ذلك التحيّز العجائبي ضد الأنثروبولوجيا؛ فدراسة الثقافات الأجنبية تفترض أساسًا وجود تصوّر عجائبي حول تلك الثقافة، بحيث يُغفل الانتباه إلى ما هو مشترك بين الثقافات. ومن ثمّ، قد لا يكون مهمًا للباحث استخدام قرص الأسبرين Aspirin لأوجاع الرأس، بينما سيكون استخدام مخلفات الفيلة لعلاج الدوخة موضع اهتمام كبير[42]. إن الحديث عن أنثروبولوجيا صيدلية يتطلب بداية تحقيق "عودة عن تطبيع De–naturalize" نظرتنا الاعتيادية إلى الأدوية[43].

فالدواء قبل أن يكون شيئًا، وقبل أن يكون سلعة، هو تجسيد لثقافة، ونقطة التقاء آراء ومعتقدات وتجارب فاعلين مختلفين. فبحسب دايفيد كوهن وآخرين، ليست الأدوية الحديثة اليوم إلا طلاسم وتمائم في حلة جديدة. وهذا ليس إنكارًا للأهمية العلمية والطبية للأدوية، ولكن فيه إشارة إلى أن البعد المادي للأدوية – من منظور أنثروبولوجي على الأقل – ليس مهمًا بقدر المعاني التي تحملها هذه الأدوية في شبكة معقدة من الأحداث التاريخية والتفاعلات الاجتماعية[44]. وهذا ما يذكرنا بالأوريوميسين في المغرب، حيث تم طرحه في صيغة المرهم، مع أنه كان متوافرًا في شكل كبسولات

(39) Geest & Chamberlain, p. 231.

(40) Kopytoff, p. 68.

(41) Susan Reynolds Whyte & Sjaak Van Der Geest (eds.), *The Context of Medicines in Developing Countries: Studies in Pharmaceutical Anthropology* (Dordrecht: Springer Netherlands, 1988), p. 4.

(42) Ibid., p. 9.

(43) Ibid., p. 10.

(44) Cohen et al., p. 449.

طبية وقطرات عين، وقد كان هذا الاختيار النهائي اجتماعيًا واقتصاديًا أساسًا، فقد كان الأوريوميسين في شكل المرهم يتماشى مع الهدف العام للبرنامج في إحداث حملة علاج جماعية اقتصادية مثلما أشرنا سابقًا، حيث تم تقليص كمية المرهم اللازمة لعلاج كل حالة من 18 غرامًا إلى ما بين 3 و6 غرامات للفرد بعد تبني الجدولة غير المنقطعة للعلاج[45]، كما أن استخدام المرهم لا يحتاج إلى وجود مختصين إلى جانب المريض، على عكس قطرات الأوريوميسين مثلاً التي تحتاج إلى خبرة ودقة في التعامل مع الخليط قبل استخدامه[46]. إذًا، فحتى الشكل المادي للدواء قد يكون له مبرر اجتماعي واقتصادي؛ وهذا ما يتيح مجالاً لبناء بعد رمزي وثقافي لهذا الشيء، فالأقراص الطبية والكبسولات لا تحمل الدلالات نفسها التي تحملها الحقن أو القطرات الطبية أو المراهم مثلاً؛ إذ لكلّ شكل من الأدوية – بحسب السياق الزماني والمكاني – بعد رمزي وثقافي مرتبط به.

إنه البعد الرمزي للدواء، إنه المعنى الذي يعطيه إياه المستهلكون قبل استهلاكه، فحتى يقرر فرد ما أن يستهلك دواءً معيّنًا، عليه أولاً أن يراكم معارف حوله، وهي في الغالب معارف لا تنبع من مصدر طبي أو صيدلي، بقدر ما هي معارف اجتماعية ومن الثقافة السائدة للمستهلك، لكنها بالضرورة ترجع في الأصل إلى بروباغندا صحية أنتجتها جهات مسؤولة. وخلال فترة انتشاره الأولى في المغرب في حملة علاج التراكوما الجماعية، تم توزيع الأوريوميسين على أنه مادة طبية بالموازاة مع تقديم إرشادات عن كيفية استخدامه[47]. ولكن هل حافظ الناس على تلك الإرشادات والتعليمات؟ وهل استخدموا الدواء بالطريقة التي كانت تريدها المؤسسات، ولعلاج الأمراض التي كانت تحاول مواجهتها؟

لا يمكننا أن نورد أجوبة الماضي عن هذه الأسئلة، مقابل توافر إمكانية تقديم أجوبة الوقت الراهن؛ فقد صار الأوريوميسين بعد عقود من دخوله إلى المغرب أحد أشهر الأدوية العابرة للتخصصات الطبية. بالتزامن مع تزايد استعمال مثل هذه الأدوية الصيدلية، لتكف عن أن تكون بديلاً من الطب الشعبي المحلي، لتصير هي نفسها من مكوّناته[48].

2. سلعنة الأوريوميسين وشبكات تداوله

تزامنت سلعنة الأوريوميسين تاريخيًا مع شعبنته، وذلك عبر جعله متوافرًا بثمن بخس لأكبر عدد ممكن من المغاربة في مختلف نقاط البيع[49]. وقد امتدت حدود أهلنة بعض الأدوية الصيدلية في المغرب إلى جعلها متوافرة في المتاجر والأسواق جنبًا إلى جنب مع احتياجات الناس اليومية، بحيث يتم استخدامها – على عكس الدستور الطبي – انطلاقًا من أسس ثقافية خاصة، مثل سحق الحبوب

(45) "The Treatment of Trachoma," *Medical Journal of Australia*, vol. 1, no. 25 (June 1960), p. 984.

(46) Ching, p. 657.

(47) Reinhards et al., p. 525.

(48) Nina L. Etkin, Paul J. Ross & Ibrahim Muazzamu, "The Indigenization of Pharmaceuticals: Therapeutic Transitions in Rural Hausaland," *Social Science & Medicine*, vol. 30, no. 8 (1990), p. 919.

(49) Hicham Nhaili, "La législation pharmaceutique au Maroc durant le protectorat Français (1912–1956)," PhD. Dissertation, Université Mohammed V, Faculté de Médecine et de Pharmacie, Rabat, 2014, p. 72.

ووضع مسحوقها على الجراح، وتسمية بعضها تسمية خاصة بها محليًا، أو منح أسمائها الصيدلية لعلاجات غير صيدلية محلية الصنع[50]. وفي حالة الأوريوميسين في المغرب، مثل حالة أدوية شعبية أخرى، كان أصل هذه "الأهلنة" يرجع إلى عوامل لوجستية، ذلك أن السلطات الاستعمارية كانت تحاول السيطرة على الأمراض حتى في أبعد المناطق عن المراكز الكبرى، فتلجأ إلى اعتماد شبكات توزيع غير رسمية، تصل حدودها إلى أبعد النقاط على الخريطة المغربية، مثل مكاتب بيع التبغ[51].

استمر توزيع الأوريوميسين على السكان، وكان من الممكن الحصول عليه عبر عدة قنوات، أبرزها هؤلاء المختصون الذين كانوا يوزعون المرهم مجانًا على الساكنة، أو عبر شرائه من مختلف الأسواق، بثمن منخفض جدًّا، فقد تم بيع أنبوب من المرهم من 5 غرامات مقابل 30 فرنكًا، أو 6 سنتات أميركية[52].

تستمر محلات بيع المواد الغذائية، ومحلات بيع التبغ، في بيع عدد من الأدوية إلى حدود يومنا هذا؛ إذ يعرف المغاربة نسبيًا نوعًا من دمقرطة الصيدلية، ولا أقصد هنا سهولة الحصول على الأدوية أو وجودها بصفة متساوية للجميع، بل عدم احتكار الصيادلة لهذه الأدوية، عبر توفيرها لمن يستطيع الحصول عليها، من دون الحاجة إلى المرور عبر القنوات الرسمية، وسوق الفلاح[53] في مدينة وجدة مثال صارخ على هذه الدمقرطة، ففيه تباع تنويعة مختلفة من الأدوية، بأثمان أقل كثيرًا من تلك التي يطلبها الصيادلة، ومن دون الحاجة إلى وصفات طبية[54]. وأخيرًا، يمكن الحصول على الأوريوميسين عبر شبكة العلاقات الاجتماعية، من جار استخدم نصف العلبة، أو من صديق اشترى أكثر مما يحتاج إليه "من باب الاحتياط". وقد تكونت مؤخرًا على منصات مواقع التواصل الاجتماعي، مثل فيسبوك، مجموعات يقوم الناس فيها بطلب الحصول على أدوية من الأعضاء الآخرين، ربما لكونها مكلفة جدًّا في الصيدلية، أو لأنها غير متوافرة، فيتفاعل الأعضاء فيما بينهم في نشاط، ويتم تبادل الأدوية، وإرسالها واستقبالها، وحتى اقتراح بدائل مناسبة في التعليقات، من دون العودة إلى الطبيب أو الصيدلي، أو الحاجة إلى وصفة طبية.

وبهذا صارت سعلنة الأوريوميسين تتوازى مع سعي السلطات الصحية المعنية لتقليل الاعتماد على الموارد البشرية المكلفة، وتحقيق أهداف البرامج الصحية بأقل تكلفة ممكنة. وتتوازى سيرورات الشعبنة والسلعنة بما يؤدي إلى الانفصال عن حقل الطب الحيوي وشبكاته وتوقعاته أيضًا[55].

(50) Hilbrand Haak & Anita P. Hardon, "Indigenised Pharmaceuticals in Developing Countries: Widely Used, Widely Neglected," *The Lancet*, vol. 332, no. 8611 (1988), p. 621.

(51) رويان، ص 350–351.

(52) Reinhards et al., p. 538.

(53) فاروق الطاهري، "الطب الحيوي بوصفه طبًا شعبيًّا لدى المرضى النفسيين وعائلاتهم: دراسة في إعادة إنتاج الوصفات الطبية خارج المستشفى في المغرب"، **عمران**، مج 12، العدد 48 (ربيع 2024)، ص 41.

(54) المرجع نفسه، ص 41–42.

(55) Etkin, Ross & Muazzamu, p. 923.

إن معلوماتنا عن الشركة المسؤولة اليوم عن تصنيع مرهم الأوريوميسين وتوزيعه في المغرب محدودة جدًّا وسطحية. توجد الشركة في المنطقة الصناعية للساحل، حد السوالم، تحت اسم "بروموفارم ش.م Promopharm s.a"، وهي "شركة عامة مدرجة في بورصة الدار البيضاء منذ [حزيران/] يونيو 2007. تعمل في الإنعاش الصيدلي وفي قطاع المستحضرات الدوائية والتكنولوجيا الحيوية وعلوم الحياة مع التركيز على الأدوية والمواد الصيدلية المخصصة للعناية بالبشرة والتجميل. وقد تم تأسيسها في [آب/] أغسطس 1947"[56].

وعلى حد علمنا، لا تبذل الشركة في المغرب أي جهد من أجل التسويق للدواء، بل أكثر من ذلك، يتم بيع 1 في المئة من الأوريوميسين من دون حتى دليل استخدام داخل العلبة. ولم يعد المرهم حاليًا موجودًا في المتاجر والمحلات المختلفة. وبعد انقطاعه من السوق المغربية قبل سنوات، ظهر من جديد بثمن مرتفع، وبصفة محدودة في الصيدليات، لكن من دون الحاجة إلى تقديم وصفة طبية للحصول عليه، على عكس فرنسا مثلاً حيث لا يمكنك الحصول على الدواء نفسه من دون وصفة طبية، وداخل العلبة يجد المستهلك دليل استخدام مع إشارات إلى الأعراض الجانبية المحتملة[57].

رابعًا: الحلقة الأخيرة من بيوغرافيا الدواء: هل يحقّق الدواء الهدف من وجوده؟

1. الهرطقات الصيدلية: الطب الحيوي في أيدي العامة

يعبّر الطب الحيوي، وخصوصًا في شكله الصيدلي تحديدًا، عن نوع من الأرثوذكسية Orthodoxy، وهو، بسبب دقته، يفترض التزام المرضى بسيرورة من التعليمات التي تكون قاهرة أحيانًا، وهذا ليس نتاج تطورات جديدة، بل إن هذه "الدكتاتورية" صاحبته منذ أيامه الأولى. ففي زمن الاستعمار الفرنسي في المغرب، كان عدم تأكد الأطباء من التزام المرضى بأخذ الأدوية الموصوفة لهم، بالطريقة المطلوبة، يجعلهم يحشدون السكان من أجل مراقبة أخذهم للأقراص[58]. وهذا ما يمكن تسميته "الأرثوذكسية الصيدلية"، وهي عمومًا تلك التعليمات الصارمة التي لا يكون من دونها ممكنًا تحقيق ما هو مفترض من دواء، أو وصفة طبية ما. ومثلما يؤكد ذلك التاريخ، لا تكون أرثوذكسية من دون وجود هرطقات Heresies.

يختلف التعامل مع الهراطقة باختلاف الحقول التي ينتمون إليها، فالمهرطق الديني قد يكون معرضًا للقتل في صراعه مع أرثوذكسية دينية، والمهرطق السياسي قد يكون مهددًا بالاعتقال أو حتى الاغتيال، والمهرطق الاقتصادي والاجتماعي قد ينتهي به المطاف مبعدًا من الوسط الاجتماعي

(56) "شركة الإنعاش الصيدلي للمغرب"، **معلومات مباشر**، شوهد في 2024/8/7، في: https://acr.ps/1L9zRqE

(57) تأكد الباحث من هذا الأمر بنفسه.

(58) رويان، ص 353.

وعاجزًا عن كسب قوت يومه. فماذا عن المهرطق العلمي؟ ببساطة، لن يحصل له شيء، فحتى أقوى الأرثوذكسيات العلمية وأكبرها عاجزة عن مواجهة هراطقتها ووضع حد لهرطقتهم[59].

وحينما يتعلق الأمر بالهرطقة العلمية، هناك نوعان من الهراطقة؛ ينبثق الأول منهما من الوسط العلمي نفسه، ويمكن أن نسمّي من يقوم به المهرطق الداخلي Endoheretics، في حين يأتي الثاني من خارج الوسط العلمي، وهو الأكثر مناعة ضد عقاب الأرثوذكسية العلمية، ويمكن أن نسمي من يقوم به المهرطق الخارجي Exoheretics[60]. عادة ما لا يهتم الناس بالمهرطق الداخلي، إلا في حالات نادرة، ومن النادر أن يستفيد ماديًّا من هرطقته. وعلى العكس من ذلك، تنتبه العامة غالبًا للمهرطق الخارجي، بل تهتمّ به، وتدعمه أيضًا، بحيث يستفيد من ذلك ماديًا وبصفة مبهرة[61]. وهذا ما قد يتم في حالة الربح من وراء الإعلانات في قنوات على منصة يوتيوب، حيث ينشر الهراطقة الصيدليون أفكارهم. وهكذا، فهذه الهرطقة الصيدلية تنتشر أكثر من أي وقت مضى، بوساطة وسائل التواصل الاجتماعي.

صار من السطحي جدًّا اعتبار الاستخدامات "غير المناسبة" للأدوية عرضًا من أعراض الجهل والأمية، فالمشكل أكثر تعقيدًا من ذلك، وأعمق كثيرًا، فهو مشكل ثقافي أساسًا[62]؛ ذلك أنه لا تتقبل ثقافة شعبية ما الأدوية الغربية الصيدلية في نظامها العلاجي، إلا بعد إعادة تأويل طبيعتها وآثارها بمفاهيم محلية[63]. وهذا ما يعرف أيضًا بالأهلنة Indigenization، فحينما تتم أهلنة الطب الحيوي، يتم الدفع به إلى خانة جديدة من العلاقات الاجتماعية غير تلك التي من المفترض أن يتم الالتزام بها خلال البروتوكول العلاجي؛ أي علاقة المختص الصحي المهني بالمريض[64]. فمثلما سبقت الملاحظة، يعبر المرضى النفسيون خارج المستشفى بصراحة عن أهلنة الطب الحيوي، وتصير وصفة الطبيب في أيديهم وصفة شعبية، فيبقون على الأدوية التي تناسبهم، ويتخلون عن الأدوية التي ترهقهم، ويستبدلون بها ممارسة الرياضة أو تدخين الحشيش بوصفهما بديلاً مناسبًا بالنسبة إليهم من الأدوية الحيوية وأعراضها الجانبية الكثيرة[65].

تعبر هذه الحالات عن هرطقات صيدلية صريحة جدًّا، ومن منظور أنثروبولوجي، علينا أن نفهم العقلانية الموازية للعقلانية الصيدلية لاستخدام الأدوية. ذلك ما سيساعد على تجاوز تلك النظرة

(59) Donald Goldsmith (ed.), Isaac Asimov (fore.), *Scientists Confront Velikovsky* (New York: W. W. Norton Company, 1979), p. 7.

(60) Ibid., p. 8.

(61) Ibid., p. 12.

(62) C.H. Bledsoe & M.F. Goubaud, "The Reinterpretation of Western Pharmaceuticals among the Mende of Sierra Leone," *Social Science & Medicine*, vol. 21, no. 3 (1985), p. 258.

(63) Ibid., p. 262.

(64) Susan R. Whyte, "Pharmaceuticals as Folk Medicine: Transformations in the Social Relations of Health Care in Uganda," *Culture, Medicine and Psychiatry*, vol. 16, no. 2 (1992), p. 173.

(65) الطاهري، ص 48.

الأحادية المرتكزة على المقاربة العلاجية. عندها، يصير ممكنًا النظر إلى الأدوية ووصف طبيعتها من وجهة نظر الأفراد، ومن وجهة نظر العقلانية الشعبية، كما يصير ممكنًا رصد التمثلات التي تدفع نحو هذه الاستخدامات المختلفة للأدوية، وتبررها، وربما تفسرها أيضًا[66].

2. أهلنة المضادات الحيوية: الأوريوميسين دواءً لكل داء

يوجد دواء الأوريوميسين في السوق المغربي في نوعين اثنين: أحدهما مخصص للعينين، والآخر أكثر تركيزًا مخصص للبشرة. لكن النوع الأول هو الأشهر، والدليل على ذلك هو اشتهار الأوريوميسين بين المغاربة بـ "بوماضا دوا العينين"[67]، وأيضًا "البوماضا الصفرا" نسبة إلى لون العلبة الأصفر.

كما سبقت الإشارة إلى ذلك، لا يمكن، في فرنسا، تقديم دواء "الأوريوميسين" إلا بوصفة طبية من مختص؛ وهذا ما جعل من الممكن السيطرة على استخدام هذا المضاد الحيوي، وتفادي خرق الدستور الصيدلي والطبي.

في المغرب، تكفي بضعة دراهم لشراء الدواء من أقرب صيدلية، أو الحصول على هذا المرهم من أي مصدر غير رسمي آخر. لكن السؤال الذي يُطرح في هذه المرحلة من سيرة حياة الأوريوميسين: هل يؤدي الدواء في آخر لحظات حياته ما هو مفترض منه بصفته دواءً، أي علاجًا لأمراض العينين، والبشرة؟

للإجابة عن هذا السؤال، سنحلل عددًا من فيديوهات يوتيوب التي تتناول الأوريوميسين باعتباره دواء لتنويعة مختلفة من الأمراض، وأيضًا حلاً لعدد من المشكلات الجمالية. فقد أدت شبكة الإنترنت دورًا مهمًّا في تسهيل مشاركة المستهلك لخبراته من أجل "بناء معرفة" حول الأدوية. وهذا تحول جذري حقيقةً؛ ذلك أن المعارف الخاصة بالاستخدامات العلاجية للأدوية الصيدلية كانت، في الماضي، لا تتشكل إلا من منظور علمي من الاختصاصيين الصحيين، والحكومات، والشركات المنتجة للأدوية[68]. لكنّ المهرطقين الجدد في مجال الصيدلة غيروا الأمور لصالحهم، ولصالح "دمقرطة" الصيدلة.

يتوافر المرهم أصفر اللون في أنبوب لولبي صغير، يكون باللون نفسه الأصفر أو الأبيض. وعلى الرغم من كونه مضادًا حيويًا، فإن تعامل الناس معه لا يختلف كثيرًا عن تعاملهم مع الفازلين Vaseline أو المرطِّبات العديدة التي توجد في سوق التجميل، ولكن بِنيّة العلاج مع الاعتقاد أن له قدرات علاجية لا حصر لها. ليست هذه حالة مغربية فريدة، لا بالنسبة إلى الاعتقاد في القدرات الفعالة لدواء معين ولا في استخداماته في أغراض علاجية متعددة. فقد استخدم الناس مرهم المنثولاتوم Mentholatum في سيراليون Sierra Leone على أوجههم وشعور رؤوسهم من أجل تدفئة أنفسهم من الحمى الباردة.

(66) Cohen et al., p. 445.

(67) "بوماضا" هي تعريب لنطق الكلمة الفرنسية Pommade، وهي تطلق على كل مرهم لزج يمكن أن يُستخدم موضعيًّا على الجسم للتداوي.

(68) Ibid., p. 454.

وقد شرب آخرون، بمن فيهم أناس واعون ومثقفون، المرهم محللاً في الماء الدافئ، لأن الحمى، في اعتقادهم، تسكن البطن[69].

هناك مضاد حيوي شهير بمعالجة كل الأمراض بين الأفارقة، وهو التتراسكلين Tetracycline، والجدير بالذكر أن التتراسكلين والأوريوميسين مضادان حيويان من الفئة نفسها. ويُطلق على التتراسيكلين محليًا اسم يعني حرفيًا "معالج كل شيء"، لكنه رسميًا دواء لعلاج الحبوب والالتهابات الجلدية فقط. هو، بحسب السكان المحليين في بوركينا فاسو Burkina Faso، قادر فعلاً على علاج كل الأمراض من أوجاع البطن إلى آلام الظهر، ومن آلام الأسنان إلى الجروح وأوجاع الرأس والملاريا وحتى الإسهال. ويتوافر هذا الدواء في شكل كبسولات يتم تفريغ محتواها على الجروح، أو وضعه على تجاويف الأسنان، وخلطه بكل أنواع الأشربة[70].

تتم أهلنة المضادات الحيوية، بخاصة عندما يُدّعى أن نتائجها مبهرة وسريعة، وحين تُفتقد مدة طويلة[71]. وهذا ما ينطبق أيضًا على الأوريوميسين.

3. الأوريوميسين والهرطقة الصيدلية: يوتيوب منصة لأهلنة الأدوية الحيوية

إن تقنية البحث المستخدمة هنا هي الإثنوغرافيا الافتراضية، باعتبارها طريقة في البحث تقوم على الانخراط في المجتمع الافتراضي، وملاحظة مختلف التفاعلات والأنشطة الإلكترونية التي تتم داخله[72]. ولكن اعتماد منصة يوتيوب، للبحث في استخدامات الأوريوميسين المختلفة لدى المغاربة، لا يُعفي من القيام ببحث ميداني معمق. ومن ثمّ، لا يمكننا الادعاء أن البحث في المجتمع الرقمي كافٍ لفهم الظاهرة[73]، بل من الضروري ربطه بالواقع الاجتماعي.

مع تطور المجتمع الرقمي، "أضحت عملية الملاحظة تتم بصفتين، تبعًا لتمظهرات الحياة الاجتماعية في بعدَيها المادي والرقمي: أي الملاحظة 'المادية' (الفيزيقية) والملاحظة الإلكترونية أو التنوغرافية"[74]. إن عملية "التفاعل السوسيو-إلكتروني، وعملية التوثيق الرقمي والآلي لكل الآثار الناتجة عن ذلك التفاعل، تجعلان من الفضاء الرقمي أرشيفًا حيًّا، ديناميًا ومفتوحًا، يجري فيه حفظ البيانات الرقمية بشكل مستمر لحظة إنتاجها"[75]. وهذه ميزة أخرى لمنصة يوتيوب، تسهّل الوصول

(69) Bledose & Goubaud, p. 267.

(70) Sjaak van der Geest & Susan Reynolds Whyte, "The Charm of Medicines: Metaphors and Metonyms," *Medical Anthropology Quarterly*, New Series, vol. 3, no. 4 (December 1989), p. 352.

(71) Haak & Hardon, p. 621.

(72) محجوبة قاوقاو، "المجتمع الافتراضي وإشكالية تجديد منهج البحث السوسيولوجي: نحو بناء نموذج لدراسة التفاعلات الإلكترونية بواسطة الحاسوب"، **عمران**، مج 8، العدد 29 (صيف 2019)، ص 94.

(73) Christine Hine, "Ethnographies of Online Communities and Social Media: Modes, Varieties, Affordances," in: Nigel G. Fieldinget, Raymond M. Lee & Grant Blank (eds.), *The SAGE Handbook of Online Research Methods* (California: Sage publications, 2017), p. 412.

(74) محجوبة قاوقاو، "التنوغرافيا منهجًا للبحث السوسيولوجي والأنثروبولوجي: من الملاحظة الإلكترونية إلى إعادة كتابة الأثر الرقمي"، **ديناميات اجتماعية إفريقية، المجلة الإفريقية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، العدد 5 (2023)، ص 24.

(75) المرجع نفسه، ص 29.

إلى كل الفيديوهات المنشورة، إضافة إلى التعليقات والإعجابات، على عكس المنصات الأخرى التي يكون فيها الولوج مقصورًا على الأعضاء فقط، مثل مجموعات فيسبوك التي تتخذ أحيانًا معايير صارمة من أجل قبول أعضاء جدد حماية لخصوصية المنخرطين فيها.

لا ندّعي أن عودتنا إلى المواضيع المصورة التي تحفظها لنا منصة يوتيوب، إضافة إلى عدد المشاهدات والتعليقات، وتحليلها من أجل فهم "حدة أهلنة" الأوريوميسين، تجديدٌ في المنهج، بقدر ما هي "استعادة للمناهج المألوفة، كما عرفها السوسيولوجيون من قبل"[76]، ولكن في مجتمع بحث جديد نسبيًا، هو المجتمع الرقمي. وإن افترضنا أن الناس يعتمدون على معارف الهراطقة الصيدليين في يوتيوب من أجل العناية بأجسادهم، فهذا يعني من جهة تراجع سلطة النخبة الطبية والصيدلية، ومن جهة أخرى، ميلاد أخطار صحية جديدة، أبرزها ارتفاع قدرة الجسم على مقاومة أثر المضادات الحيوية. وبحسب منظمة الصحة العالمية، هذا خطر فعلي يهدد البشرية[77]. ومن أجل وصف أبعاد الظاهرة، سنعتمد تقنية تحليل المضمون لبعض الفيديوهات المنشورة على يوتيوب، لرصد مدى اندماج الأوريوميسين ضمن الطب الشعبي المغربي.

تتوزع الفيديوهات التي اخترناها، التي تناولت الأوريوميسين واستخداماته المختلفة في المغرب، في مدة زمنية قصيرة نسبيًا، فأقدم فيديو نُشِر في نيسان/ أبريل 2019، وأحدث فيديو نُشِر في تشرين الثاني/ نوفمبر 2021، وهي كالتالي:

جدول يبين ورود استخدام الأوريوميسين في فيديوهات صانعي محتوى من المغرب

العنوان	تاريخ النشر	عدد المشاهدات	عدد الإعجابات
سر وصفاء بشرتي بومادة بـ 9 دراهم تهناي من الحبوب والآثار ونتحداك، كلشي غيسولك شنو السر، في 3 أيام	22 نيسان/ أبريل 2019	609738	17000
بوماضة الصفراء لعلاج البواسير الداخلية والخارجية من أول استعمال	6 حزيران/ يونيو 2021	25558	364
بالبومدا الصفراء علاج فطريات الأظافر والتسوس ستعود كما كانت وصفة تغنيك عن الطبيب أريد فقط دعوة خير	25 شباط/ فبراير 2022	583030	8800

(76) قاوقاو، "المجتمع الافتراضي"، ص 98.

(77) "مقاومة المضادات الحيوية"، منظمة الصحة العالمية، 2020/7/31، شوهد في 2024/5/10، في: https://bit.ly/4b5XfGo

البومادا الصفراء تبيض الأسنان في ثواني قسمًا بالله تزيل الاصفرار وتسقط الجير بعد فرك أسنانك بها	8 تشرين الثاني/ نوفمبر 2021	47453	1500
معجزة البومادا الصفراء ستجعل بطنك مسطحًا في 3 أيام تذيب شحوم الكرش والجوانب نهائيًا بدون	11 تشرين الأول/ أكتوبر 2021	31037	621
أقسم بالله بالبومادا الصفراء لن يتوقف شعرك عن النمو بغزارة لن يتساقط بعد اليوم، ينبت الفراغات، يطول..	25 يوليو/ تموز 2020	342403	6500

المصدر: من إعداد الباحث.

يزيد مجموع المشاهدات في هذه الفيديوهات على المليون ونصف المليون مشاهدة، في فترة زمنية قصيرة لا تتجاوز ثلاث سنوات، بمجموع إعجابات في الفيديوهات المدروسة يكاد يصل إلى 35 ألفًا. وتحيل العناوين إلى الأوريوميسين باسم "البومادا الصفراء" أو "بومادة" فقط، كما أن هناك نوعًا من العجائبية في التعبير عن آثار الأوريوميسين "المعجزة". لكن الأكثر إثارة للانتباه والاهتمام بالنسبة إلى موضوع البحث، هو استخدام مرهم للعينين لعلاج تنويعة مختلفة جدًّا من الأمراض التي تنتمي إلى حقول مختلفة من الطب. يظهر الأوريوميسين في أحد الفيديوهات على أنه علاج تجميلي فعال للبشرة[78]، من أجل الحصول على "بشرة أصفى وأجمل"، وهذا في الواقع هو الهدف الفعلي من الأوريوميسين (3 في المئة) المخصص للبشرة. لكن المثير للانتباه في الفيديو، هو أن "المؤثّرة" تصوّر الأوريوميسين على أنه اختزال للوصفات الشعبية في شكل مرهم يأتي من حقل الطب الحيوي. والمفارقة، هي أن السيدة في الفيديو، تهاجم الأطباء والطب الحيوي؛ لأنهم لا يعتمدون الأوريوميسين لعلاج مشكلات البشرة، وفي اعتقادها هذا نوع من الاحتكار الذي يهدفون من ورائه إلى بيع أدويتهم الباهظة الثمن. فالمؤثّرة هنا "تناضل" من أجل توفير العلاج الفعال، بأقل تكلفة ممكنة، وهو موجود بصفة مكثفة في متناول الجميع، وستقول بكل صراحة "بغيت نجيب شي حاجة فمتناول ولاد الشعب، وبغيت نعاون بنات الشعب يتهلاو فراسهوم بشي حاجة بسيطة"[79].

في الفيديو الثاني، تقترح مؤثّرة الأوريوميسين (1 في المئة) علاجًا للبواسير[80]، والمثير للانتباه، هو أن صاحبة الفيديو تقترح وصفة متكاملة، يظهر فيها المضاد الحيوي كأنه من داخل حقل الطب الشعبي،

(78) "سر وصفاء بشرتي بومادة ب 9 دراهم تهناي من الحبوب والآثار ونتحداك، كلشي غيسولك شنو السر، في 3 أيام"، *Channel Rajoua*، يوتيوب، 2019/4/22، شوهد في 2024/8/7، في: https://bit.ly/4k3Q1Hm

(79) أردت أن أقدم شيئًا في متناول أبناء الشعب، أردت أن أساعد بنات الشعب حتى يعتنين بأنفسهن بشيء في المتناول.

(80) خديجو بيوتي، "بوماضة الصفراء لعلاج البواسير الداخلية والخارجية من أول استعمال"، خديجة بيوتي، يوتيوب، 2021/6/7، شوهد في 2024/8/7، في: https://bit.ly/410Wb24

والوصفة هي كالتالي: "ملعقة من الأوريوميسين (1 في المئة)، بضع قطرات من زيت الزيتون، نقوم بتحريك الخليط جيدًا، ثم نضيف إليه رأس ملعقة صغيرة من الكركم أو الخرقوم، ومن المستحسن أن نقوم بطحن الكركم يدويًّا. نضع الخليط في قطعة قماش أو قطن، ونقوم بتمريره على المنطقة المصابة بالبواسير".

وأكثر من ذلك، تقترح السيدة جدولة صارمة من أجل تحقيق النتائج المرجوة من العلاج "يجب استخدام الوصفة بشكل مستمر حتى بعد الشفاء". ونلاحظ في التعليقات سيدة تطرح سؤالاً في التعليقات حول إمكانية استخدام هذه الوصفة، وهي امرأة حامل في شهرها الثامن، وتجيب صاحبة الفيديو بأن الأمر "عادي".

هنا تبدو المؤثّرة بوصفها صاحبة تجربة ناجحة في العلاج "قادرة" على معرفة ما هو مناسب لكل حالة على حدة! إنه تجسيد فعلي للهرطقة الصيدلية؛ إذ يصير الطب الحيوي متداخلاً مع الطب الشعبي، وتصير الصيدلة جزئيًّا ضمن حقل الطب الشعبي، ويصير المعالج الشعبي نوعًا من الطبيب – المعالج – الصيدلي. يعتقد أحد الباحثين أن المعالجين الشعبيين مرغمون على التكيف مع سيرورة تحديث الحقل الصحي، وإلا استحال عليهم الاستمرار، وأحد أهم أشكال التأقلم هو إدماج الأدوية الصيدلية في ترسانتهم العلاجية[81].

في فيديو آخر، توصي إحدى المؤثّرات باعتماد الأوريوميسين دواءً لعلاج فطريات الأظافر[82]، ومن جديد، تقحم صاحبة الفيديو الأوريوميسين ضمن وصفة شعبية خالصة، وهذه هي مراحل تحضير الوصفة، واستخدامها: "أول شيء نقوم بأخذ فصين من الثومة الحمراء، ونقوم بحكها جيدًا، ونحاول جعل الثومة في شكل مسحوق، نقوم بإضافة الخل، سواء العادي، أو خل التفاح في ملعقة صغيرة. ثم نضيف نصف ملعقة من الملح العادي، ونضيف الأوريوميسين (1 في المئة)".

وطريقة الاستعمال هي كالتالي: "نقوم بوضع الخل والملح في إناء من المياه الدافئة، ثم نقوم بوضع أيدينا أو أرجلنا فيه (الأماكن التي فيها أظافر فيها فطريات)، وبعد خمس دقائق، نقوم بتجفيف الأيدي أو القدمين، ونقوم بقطع الأظافر إلى أقصى حد يمكن أن نصل إليه، ثم نقوم بوضع الخليط على الظفر المصاب ونقوم بتغليفه بالبلاستيك الغذائي، ويستحسن الإبقاء على الخلطة ليلة كاملة على المكان المصاب، وتتكرر العملية كاملة، بشكل يومي، من أجل إنجاح العلاج".

تشدد صاحبة الفيديو على ضرورة الالتزام بطريقتها؛ لأن أي خروج عنها سيُفشل العملية العلاجية التي اقترحتها، وهي تؤكد في أكثر من مناسبة أنها لا تتحدث من فراغ، بل انطلاقًا من تجربتها الشخصية.

(81) Ivan Wolffers, "Traditional Practitioners and Western Pharmaceticals in Sri Lanka," in: Whyte & Geest (eds.), p. 47.

(82) "بالبومدا الصفراء علاج فطريات الأظافر والتسوس ستعود كما كانت وصفة تغنيك عن الطبيب أريد فقط دعوة خير"، عالم أجمل النساء، يوتيوب، 2022/2/26، شوهد في 2024/8/7، في: https://bit.ly/414FPpi

وهذا أحد أهم المعايير التي عبرها يمكن بناء علاقة متينة بين مجتمع ما وأحد الأدوية؛ أي التجارب الناجحة التي يمكن استنساخها من أجل الحصول على النتائج نفسها[83].

في فيديو آخر يظهر الأوريوميسين على أنه علاج لاصفرار الأسنان[84]، ومن جديد، جزء من وصفة شعبية – حيوية، وهي: "نضع حوالى ملعقتين من خل التفاح في إناء، نضيف أي معجون أسنان يفضله المعني بالأمر، ونقوم كذلك بإضافة المسواك مسحوقًا في حوالى رأس ملعقة صغيرة، ثم نضيف قليلاً من مسحوق القرنفل. وفي إناء منفصل نقوم بوضع قليل من الأوريوميسين (1 في المئة) مع مسحوق المسواك وزيت الزيتون ونقوم بخلط كل شيء".

أما عن طريقة الاستعمال، فنقوم بـ"غسل الأسنان بالخليط الأول بالفرشاة، ثم نقوم بوضع الخليط الثاني على ورق معدني ونقوم بتغليف الأسنان به".

قد يكون اللون الأصفر للأوريوميسين مساهمًا في اختياره علاجًا محتملاً لاصفرار الأسنان، وربما كان اللون الأصفر للمرهم قادرًا على محو الصُّفْرَةِ في الأسنان. وهذا اعتقاد شائع بين الناس في عدد من المجتمعات، فهناك من يتحدث عن دواء صيدلي في شكل قرص أصفر، يتم استخدامه شعبيًا لعلاج الملاريا، ولأن الملاريا تجعل البول شديد الصفرة، فالقرص – يحارب النار بالنار – ويقضي على المرض في جسد المصاب بالملاريا[85]. ويتم ربط الأدوية ذات اللون الأحمر بالدم؛ إذ يكفي أن تكون حمراء، حتى تصلح لتصفية الدم، بل تعزيزه أيضًا[86].

يظهر الأوريوميسين كذلك في فيديو آخر علاجًا للسمنة، وجزءًا من وصفة للتنحيف وإزالة الدهون الزائدة في الجسد[87]: "نضع ملعقة صغيرة من الأوريوميسين (1 في المئة) في إناء، نضيف ملعقة صغيرة من زيت الثوم، وملعقة أخرى من زيت الليمون، ثم نخلط العناصر بشكل جيد. ومن المستحسن تفادي الأوريوميسين (3 في المئة) لأنها مخصصة لحب الشباب. ينبغي استخدام (1 في المئة) المخصصة للعينين (من أجل تنحيف الجسد).. نقوم بملء كوب بالماء المغلي، ونضيف إليه ملعقة صغيرة من نبات الينسون (النافع)، وملعقة صغيرة من حبة حلاوة، ثم عود واحد من القرفة، ونقوم بإضافة ملعقتين من عصير الليمون، ثم نقوم بتغطية الكوب حتى لا تتبخر فوائد المواد مع المياه".

أما طريقة الاستخدام فهي كالتالي: "نقوم بدهن المنطقة المراد تنحيفها بالخليط الأول، ثم تغليف المنطقة بالبلاستيك الغذائي، ثم نقوم بشرب الخليط الثاني بعد تصفيته من أجل إنجاح الوصفة".

---

(83) Bledose & Goubaud, p. 263.

(84) "البومادا الصفراء تبيض الأسنان في ثواني قسمًا بالله تزيل الاصفرار وتسقط الجير بعد فرك أسنانك"، أسرار جمال المغربيات، يوتيوب، 2022/11/8، شوهد في 2024/8/7، في: https://bit.ly/3EIG5Tp

(85) Bledose & Goubaud, p. 264.

(86) Ibid., p. 269.

(87) "معجزة البومادا الصفراء ستجعل بطنك مسطحا في 3 أيام تذيب شحوم الكرش والجوانب نهائيا بدون"، أسرار جمال المغربيات، يوتيوب، 2021/10/11، شوهد في 2024/8/7، في: https://bit.ly/4b7B6rA

يمثل هذا الفيديو نوعًا "متطرفًا" من الهرطقة الصيدلية، فهو يظهر كأنه يهاجم الحقل الطبي بمفاهيمه؛ فهو يدعي الصرامة، ويرفض المرهم المخصص لحب الشباب في وصفة تنحيف الجسد، لكنه يقبل المرهم المخصص لأمراض العينين. وهذا اعتراف ضمني بالهدف المفترض من الدواء – أي علاج حب الشباب، وأمراض العينين – لكنه في الوقت نفسه تجاهل له، باعتماده من أجل تحقيق شيء آخر، أي إزالة الدهون، مع تأكيد الاعتقاد أن "فوائد الدواء ستتبخر" في حال عدم تغطيتها، وهي إعادة صياغة شعبية للأهمية التي يبديها الصيادلة لإبقاء الأدوية مغلقة حتى تحفظ فعاليتها، وتظل آمنة ومؤمنة.

جعل المؤثّرون للطب الشعبي طابعًا صارمًا شبيهًا بما هو عليه الأمر في حقل الطب الحيوي، وفي المقابل، جعلوا الطب الحيوي جزءًا مكملاً للطب الشعبي، من دون أن يكون منفصلاً حقًا عنه. ذلك أقصى ما يمكن تحقيقه من أهلنة للطب العصري الحيوي، عبر جعله ضمنيًّا جزءًا من منظومة العلاج الشعبية.

من الشائع الاعتقاد أن الأدوية الصيدلية أقوى فاعلية من الأدوية الشعبية والأعشاب. وهذا جانب إيجابي في الأدوية الصيدلية، فهي تعمل بسرعة على تخفيف الأعراض وعلاج الأمراض، لكن هناك جانب سلبي أيضًا يتم ربطه بهذه "القوة"، إنها تلك الصدمة التي قد يحدثها الدواء على الجسد؛ ما قد ينتج أعراضًا جانبية غير مرغوب فيها. على العكس من ذلك، تتسم الأدوية الشعبية، والأعشاب الطبيعية، بنوع من البطء في العمل، كما أنها تعمل طبيعيًّا على علاج المشكل، من دون أن تنتج أعراضًا جانبية غير مرغوب فيها[88]. وهذا الخلط بين الأمرين ليس إلا محاولة للتخفيف من أخطار الطب الحيوي، ومضاعفة فاعلية الطب الشعبي، إنها نقطة التقاء بين الحقلين، التي ضمنها فقط يكون ممكنًا الوصول إلى "العلاج المثالي" بحسب المهرطقين الجدد في الصيدلة.

يتضح هذا أكثر في وصفة مخصصة لتقوية الشعر وعلاج الصلع، شاهدها على يوتيوب أكثر من 300 ألف شخص[89]، والوصفة هي كالتالي: "نضع ملعقة صغيرة من مسحوق الشاي في قنينة زجاجية من الممكن إغلاقها بإحكام، ثم نضيف إليها ملعقة صغيرة من مسحوق نبات الحلبة، وملعقة أخرى من الزعتر، ونقوم بتحريك الخليط جيدًا. وبعد ذلك نضيف ملعقة صغيرة من مسحوق القرنفل، وقليلاً من زيت الزيتون أو الزيت النباتي. نضيف إلى الخليط أوريوميسين (1 في المئة)، ومن المستحسن تفادي (3 في المئة) ومن جديد نحرك الخليط جيدًا. نقوم بغلق القنينة جيدًا، ونضعها في مياه مغلية لخمس دقائق، وبعد ذلك نغطي القنينة جيدًا بورق معدني ونضعها بعيدًا عن أشعة الشمس، وعلى مدى 12 يومًا، نقوم بتحريك القنينة يوميًا حتى يتجانس الخليط بشكل ممتاز، وبعدها تصير الوصفة جاهزة".

(88) Linda K. Sussman, "The Use of Herbal and Biomedical Pharmaceuticals on Mauritius," in: Whyte & Geest (eds.), p. 206.

(89) "أقسم بالله بالبومادا الصفراء لن يتوقف شعرك عن النمو بغزارة لن يتساقط بعد اليوم، ينبت الفراغات، يطول"، أسرار جمال المغربيات، يوتيوب، 2020/7/25، شوهد في 2024/11/7، في: https://acr.ps/1L9zRPw

وطريقة الاستعمال هي وضع شيء من الخليط على فروة الرأس كل ليلة، وغسل الشعر صباحًا جيدًا، مرة واحدة على امتداد أسبوع.

هذه الوصفة، بكل تفاصيلها، هي تجسيد حقيقي للهرطقة الصيدلية، وخلالها يمكن ملاحظة كيف يصير المطبخ مختبرًا علميًّا لإنتاج أدوية جديدة، انطلاقًا من مواد نباتية وعلاجات شعبية شائعة، ممزوجة بدواء عصري من المفترض أنه مخصص للعينين. وهذه الصرامة في اختيار الأيام (تحريك الخليط لـ 12 يومًا، والاستخدام مرة كل ليلة على امتداد أسبوع) هي محاولة لإعطاء الطابع "الصيدلي" لهذه الوصفة. ولهذا، يصير من المستحيل الحديث عن طب عصري وآخر شعبي في هذا السياق، بل قد يكون من الممكن القول إن الطب الشعبي قد تمت صيدلته، أو إن الصيدلة، أو الطب الحيوي، قد تمت أهلنته، بحيث لا يكون ممكنًا الفصل بين العصري والشعبي، بل ربما قد يكون من الأنسب اعتبار كل الأدوية المتوافرة جزءًا من نسق ثقافي واحد[90].

هناك شبه اتفاق بين محتويات الفيديوهات كلها على أن الأوريوميسين فعال في كل الحالات، وهذا ما يفسر اختلاف الأمراض التي يعالجها في نظر صناع المحتوى هؤلاء. لكن المثير للانتباه هو تلك الاتهامات التي يوجهها هؤلاء الأفراد إلى الأطباء والصيادلة، واتهامهم بإخفاء قوة هذا المرهم، من أجل بيع الأدوية المكلفة أكثر. وهنا يتضح دور الهراطقة في مختلف الحقول؛ أي الادعاء أن قضيتهم عادلة في مواجهة أرثوذكسية لا ترحم، وهم فقط القادرون على إنقاذ الناس، بالمعارف التي يعتقدون أنها تكون ثورية[91]. فببساطة شديدة، تقول هذه الهرطقة إنه يمكن الاستغناء عن الطب الحيوي في شكله النخبوي، لكن يمكن استثمار اكتشافاته داخل الطب الشعبي. وفي هذا السياق، يكف الأوريوميسين عن أن يكون نتاج تطور الطب الحيوي، ليصير مادة مكملة لتوليفة من الوصفات الطبية الشعبية. وهذا من جهة اعتراف بأهمية الأدوية الحيوية، ورفض للنخبة التي تقرر كيف تستخدمها من جهة أخرى.

خاتمة

يمكن أن تكون الأشياء، باختلاف أشكالها وأهميتها، موضوع سلعنة وتفريد؛ أي تراجع عن هذه السلعنة بإعطاء الشيء خصائص فريدة، تميزه من بقية السلع. والأشياء التي لا تخضع لهذا المنطق في مجال معين تكون كذلك في مجال آخر، فالحجر الذي لا يزيد عن كونه حجرًا في مدينة متحضرة، قد يكون موضوع تقديس وعبادة في قرية صغيرة وسط الأدغال. وفي حالة دراستنا هذه، كانت الأدوية هي الأشياء التي تخضع بصفة مستمرة ولانهائية لمنطق السلعنة والتفريد؛ فحتى بعد شراء الدواء من أجل استهلاكه، لا يكون هذا دليلاً على أنه لن يعود إلى السّوق من جديد.

والسلعة المثالية هي التي يمكن تقديمها على أنها موضوع للتبادل مع كل شيء آخر، وهكذا فالعالم "المسلعن" بصفة مثالية، هو العالم الذي يكون فيه كل شيء قابلاً للتبادل وكل شيء مطروحًا للبيع.

(90) Bledose & Goubaud, p. 277.

(91) Vuk Stambolovic, "Medical Heresy–The View of a Heretic," *Social Science and Medicine*, vol. 43, no. 5 (1996), p. 602.

وعلى العكس من ذلك، يكون العالم الأكثر "عودة عن السلعنة" عالمًا كل شيء فيه متفرد، مميز، وغير قابل للتبادل[92]. لكن الأدوية، تجعل من هذا شيئًا صعب التحقق، فحتى بعد فردنة الدواء – أي العودة عن سلعنته – عبر سحبه من فضاء التداول[93]، يكون جاهزًا في أي لحظة للعودة إلى التداول من جديد، سواء في شكل هدية، أو إعارة، أو ربما للبيع بمقابل مادي من جديد. فحلم كل شركة هو أن تكون منتجاتها موجهة إلى الاستهلاك النهائي[94]، لكن هذا شيء مستحيل، خصوصًا في حالة الأدوية.

والأدوية، فضلاً عن كونها "سلعًا مثالية"، أشياء لها حيوات مثيرة للاهتمام أيضًا، فسيرة حياة الدواء نفسه قد تكون مختلفة من مستهلك إلى آخر، ومن بقعة جغرافية إلى أخرى. فمن منظور أنثروبولوجيا الصيدلة، لا تهم حقًا العلاقة التي تجمع المريض بالمعالج، بل الأهم هو قطاع العلاج الشعبي، حيث يعالج الناس أنفسهم ذاتيًا باستخدام أدوية يعتقدون أن لها تأثيرًا معيّنًا[95].

والأوريوميسين الذي كان مثالنا لذلك، بدأ حياته في الولايات المتحدة مضاداً حيويًا قويًا وغامضًا نسبيًا، ليحل به المطاف في المغرب في إطار برنامج لمحاربة التراكوما جماعيًّا، لينتهي في الوقت الراهن علاجًا محتملاً لعدد كبير ومتنوع من الأمراض.

إنها القوة التحريرية التي تمتلكها الأدوية، وهي التي جعلت إمكانية العلاج متاحة للناس، حتى يكون في استطاعتهم استخدامها من أجل مساعدة أنفسهم. وتزداد حدة هذا "التحرر العلاجي" في المجتمعات التي تكون فيها الأدوية منتشرة بكثافة من دون مراقبة ولا قيود[96]. وهذا ما ينتج منه مباشرةً تحرير الأدوية من سلطة الصيدلة، وجعلها أدوية عصرية تمت أهلنتها Indigenised لتصير جزءًا من الثقافات المحلية[97]. ومن أجل فهم سيرورة "الأهلنة" هذه، يجب النظر بدقة في بيوغرافيا الأدوية، وهذا ما حاولنا القيام به في بحثنا هذا، مركزين على حالة دواء الأوريوميسين. فبعد أن تتبعنا مراحل اكتشافه، ورصدنا بداية تجربته دواءً ضد التراكوما في المغرب، أمكننا فهم سبب انتشار الدواء بين المغاربة من دون قيود على البيع والتوزيع، من أجل محاصرة التراكوما والتهابات الملتحمة الموسمية في كل بقاع المغرب بأقل تكلفة ممكنة عبر تبني العلاج الذاتي.

ووقفنا على أن الحلقة الثالثة من بيوغرافيا الدواء هي الأكثر غنى على الإطلاق، حيث رافقنا المستهلكين وهم يحولون الدواء بين أيديهم ويوجهونه إلى أي شيء يريدونه، ويصفونه لأنفسهم ولغيرهم لعلاج كل ما يريدونه. ووقفنا على أن التطبيب الذاتي يتم بكل حرية، حينما تكون الأدوية متوافرة بكثرة، لأن هذا يجعل الأمر أكثر سهولة. ويكون الأمر أكثر كثافة في بعض المناطق الهامشية (ومنها المناطق الهامشية في المدن الكبرى)، حيث يخلق الأفراد استراتيجيات علاج موحدة من

(92) Kopytoff, p. 69.

(93) Ibid., p. 74.

(94) Ibid., p. 75.

(95) Whyte & Geest (eds.), p. 5.

(96) Geest & Whyte, p. 348.

(97) Haak & Hardon, pp. 620–621.

أجل علاج بعض الأمراض الشائعة. ويصير التعامل معها روتينيًا، وتسهيلاً لهذا التوجه – أي التطبيب الذاتي – يخزّن الناس الأدوية في بيوتهم[98].

هذا هو السياق الذي يظهر فيه نوع جديد من الهرطقة؛ الهرطقة الصيدلية، التي تعارض حقلَي الصيدلة والطب الرسميين، باعتبارهما حقلين لهيمنة أيديولوجية للسلطة ووجهة نظر نخبوية ذات طابع علمي عالمي، كما تعارضهما باعتبارهما قطاعَين ربحيَين، وأخيرًا، باعتبارهما ممارسة مهنية مقيّدة في بعدَيها المحلي والعالمي[99]. لم يعد الهراطقة اليوم معزولين ومشتتين، فقد صاروا منتجين لخطابات لها صدى كبير، محاولين إيجاد معانٍ جديدة للأشياء، غير تلك المعاني التي يقدمها الخطاب الحداثي والعلمي باعتباره الخطاب السائد[100]. وقد تحقق هذا بوساطة شبكة الإنترنت التي عكست اتجاه تدفق المعلومات في الحقل الطبي[101]. وحقق صانعو محتوى الهرطقة الصيدلية أرباحًا مادية كبيرة واكتسبوا شهرة واسعة.

أنتج الهراطقة الجدد وصفات طبية جديدة، ليست عصرية ولا شعبية، تختلط فيها الأعشاب، والمواد الطبيعية التي تستخدم عادة في وصفات العلاج الشعبية، بالأدوية الحيوية لعلاج مجموعة كبيرة من الأمراض. وقد اختفت بذلك الحدود التي كانت تفصل الحقلين، وصار المطبخ بديلاً من المختبر من أجل صناعة وصفات جديدة تتجاوز التصنيفات الكلاسيكية للعلاج. إنها عقلانية موازية لعقلانية الطبيب، وإضافةً إلى كونها تعبّر عن هموم صحية، فهي أيضًا تعبّر عن هموم أخرى اجتماعية، سياسية واقتصادية[102]. فقد تحدث هؤلاء المؤثّرون في فيديوهاتهم باستمرار عن التكلفة المرتفعة للطب العصري، وعن تواطؤ الأطباء والصيادلة من أجل استنزاف جيوب المغاربة، على الرغم من أن العلاجات قد تكون أرخص كثيرًا، وأسهل وأسرع. والهراطقة هنا يقدمون أنفسهم على أنهم منقذون، يملكون البديل المناسب للشعب، فأساس فضيلة المهرطق ليس الواجب، وإنما التعاطف مع الآخر[103].

المراجع References

العربية

"مقاومة المضادات الحيوية". منظمة الصحة العالمية. 2020/7/31. في: https://bit.ly/4b5XfGo

ديارموید، جيفريز. **الأسبرين: قصة استثنائية لعقار عجيب**. بيروت: دار الساقي للنشر والتوزيع، 2005.

رويان، بوجمعة. **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912–1945**. ط 2. الرباط: منشورات الرباط نت، 2020.

(98) Geest, Whyte & Hardon, p. 165.

(99) Akile Gürsoy, "Beyond the Orthodox: Heresy in Medicine and the Social Sciences from a Cross–Cultural Perspective," *Social Science and Medicine*, vol. 43, no. 5 (1996), p. 580.

(100) Stambolovic, p. 601.

(101) Cohen et al., p. 455.

(102) Geest, Whyte & Hardon, p. 166.

(103) Stambolovic, p. 602.

الطاهري، فاروق. "الطب الحيوي بوصفه طبًا شعبيًا لدى المرضى النفسيين وعائلاتهم: دراسة في إعادة إنتاج الوصفات الطبية خارج المستشفى في المغرب." **عمران**. مج 12، العدد 48 (ربيع 2024).

قاوقاو، محجوبة. "المجتمع الافتراضي وإشكالية تجديد منهج البحث السوسيولوجي: نحو بناء نموذج لدراسة التفاعلات الإلكترونية بواسطة الحاسوب". **عمران**. مج 8، العدد 29 (صيف 2019).

_____. "النتنوغرافيا منهجًا للبحث السوسيولوجي والأنثروبولوجي: من الملاحظة الإلكترونية إلى إعادة كتابة الأثر الرقمي". **ديناميات اجتماعية إفريقية: المجلة الإفريقية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**. العدد 5 (2023).

الأجنبية

Abraham, John. "Pharmaceuticalization of Society in Context: Theoretical, Empirical and Health Dimensions." *Sociology*. vol. 44, no. 4 (2010).

Appadurai, Arjun (ed.). *The Social Life of Things: Commodities in Cultural Perspective*. Cambridge: Cambridge University Press, 2013.

Bietti, G. B. "Progrès de la chimiothérapie et de l'antibiothérapie du trachome: Épreuves d'efficacité, nouveaux produits, traitement intermittent." *Bulletin of the World Health Organization*. vol. 28, no. 4 (1963).

Bledsoe, C.H. & M.F. Goubaud. "The Reinterpretation of Western Pharmaceuticals among the Mende of Sierra Leone." *Social Science & Medicine*. vol. 21, no. 3 (1985).

Boase, A. J. "Aureomycin in Trachoma." *The British Journal of Ophthalmology*. vol. 34, no. 10 (1950).

Ching, Renald. "Aureomycin in the Treatment of Trachoma." *AMA Archives of Ophthalmology*. vol. 45, no. 6 (1951).

Cohen, D. et al. "Medications as Social Phenomena." *Health*. vol. 5, no. 4 (2001).

Duggar, B. M. "Aureomycin: A Product of the Continuing Search for New Antibiotics." *Annals of the New York Academy of Sciences*. vol. 51, no. 2 (1948).

Duke–Elder, Stewart. Derek Ainslie & Arthur James Boase. "Aureomycin in Ophthalmology: A Preliminary Report." *British Journal of Ophthalmology*. vol. 34, no. 1 (1950).

Etkin, Nina L. Paul J. Ross & Ibrahim Muazzamu. "The Indigenization of Pharmaceuticals: Therapeutic Transitions in Rural Hausaland." *Social Science & Medicine*. vol. 30, no. 8 (1990).

Fieldinget, Nigel G., Raymond M. Lee & Grant Blank (eds.). *The SAGE Handbook of Online Research Methods*. London: Sage Publications, 2017.

Frogerais, André. "Les origines de la fabrication des antibiotiques en France." *Hal Open Science* (2015).

Goldsmith, Donald. (ed.). Isaac Asimov (fore.). *Scientists Confront Velikovsky*. New York: W. W. Norton & Company, 1979.

Gürsoy, Akile. "Beyond the Orthodox: Heresy in Medicine and the Social Sciences from a Cross–Cultural Perspective." *Social Science & Medicine*. vol. 43, no. 5 (1996).

Haak, Hilbrand & Anita P. Hardon. "Indigenised Pharmaceuticals in Developing Countries: Widely Used, Widely Neglected." *The Lancet*. vol. 332, no. 8611 (1988).

Jukes, Thomas H. "Some Historical Notes on Chlortetracycline." *Reviews of Infectious Diseases*. vol. 7, no. 5 (1985).

Nhaili, Hicham. "La législation pharmaceutique au Maroc durant le protectorat français (1912–1956)." PhD. Dissertation. Université Mohammed V. Faculté de Médecine et de Pharmacie. Rabat. 2014.

Petryna, Adriana. Andrew Lakoff & Arthur Kleinman (eds.). *Global Pharmaceuticals: Ethics, Markets, Practices*. Durham: Duke University Press, 2006.

Rabinow, Paul. *Making PCR: A Story of Biotechnology*. Chicago: The University of Chicago Press, 1996.

Reinhards, J. et al. "Studies in the Epidemiology and Control of Seasonal Conjunctivitis and Trachoma in Southern Morocco." *Bulletin of the World Health Organization*. vol. 39, no. 4 (1968).

Reinhards, J. A. Weber & F. Maxwell–Lyons. "Collective Antibiotic Treatment of Trachoma: Report on Comparative Trials Leading to More Economic Methods of Treatment." *Bulletin of the World Health Organization*. vol. 21, no. 6 (1959).

Stambolovic, V. "Medical Heresy – The View of a Heretic." *Social Science & Medicine*. vol. 43, no. 5 (1996).

"The Treatment of Trachoma." *Medical Journal of Australia*. vol. 1, no. 25 (June 1960).

Toulant, et al. "Essais de traitement du trachome par l'auréomycine et la chloromycétine." *Bulletin de L'académie Nationale de Médecine*. vol. 135, no. 5–6 (1951).

Van der Geest, Sjaak. "Anthropology and the Pharmaceutical Nexus." *Anthropological Quarterly*. vol. 79, no. 2 (Spring 2006).

Van der Geest, Sjaak & Kerry Chamberlain. "Researching the Life Stages of Medicines." *Medische Antropologie*. vol. 23, no. 2 (2011).

Van der Geest, Sjaak & Susan Reynolds Whyte. "The Charm of Medicines: Metaphors and Metonyms." *Medical Anthropology Quarterly*. New Series. vol. 3, no. 4 (December 1989).

Van der Geest, Sjaak, Susan Reynolds Whyte & Anita Hardon. "The Anthropology of Pharmaceuticals: A Biographical Approach." *Annual Review of Anthropology*. vol. 25, no. 1 (1996).

Westermarck, Edward. *Ritual and Belief in Morocco*. vol. II. New York: University Books Inc, 1968.

Whyte, Susan Reynolds. "Pharmaceuticals as Folk Medicine: Transformations in the Social Relations of Health Care in Uganda." *Culture, Medicine, and Psychiatry*. vol. 16, no. 2 (1992).

Whyte, Susan Reynolds & Sjaak van der Geest. *The Context of Medicines in Developing Countries: Studies in Pharmaceutical Anthropology*. Dordrecht: Springer Netherlands, 1988.

Zeitlyn, David. "Life–History Writing and the Anthropological Silhouette." *Social Anthropology/Anthropologie Sociale*. vol. 16, no. 2 (2008).

صدر حديثًا

يوسف دعي

الرياضة والسياسة في المغرب بين الضبط والمقاومة

كرة القدم نموذجًا

يظهر الكتاب اهتمام الحكومات والدول في جميع أنحاء العالم، بلعبة كرة القدم، حيث وجدت فيها على اختلاف توجهاتها مصدرًا للاستثمار السياسي، سواء كان على المستوى الدبلوماسي، بما في ذلك الدعاية والبحث عن الهيبة والاعتراف في الساحة الدولية، أو أداةً لتعزيز قيم الوحدة والإجماع، خاصة في الفترات التي تعرف فيها الدول أزمات اقتصادية أو سياسية. إن التاريخ يقدم العديد من الحوادث والشواهد التي تُعبر عن علاقة متشابكة بين الرياضة والسياسة في السياق المغربي؛ إذ منذ ظهور الرياضة في المغرب مع الحماية الفرنسية، شكّلت منصة سياسية بامتياز، سواء في استغلالها من السلطة لإغراق الأفراد في الرموز والهوية الوطنية الجامعة، وهو ما كان سائدًا في فترة حكم الملك الراحل الحسن الثاني، وبدرجة أقل في عهد الملك الحالي محمد السادس. أو في المقابل، يقدم مجال كرة القدم مساحة مُنفلتة للتعبير عن عواطف الغضب والرفض والمقاومة، وتقويض مشروعية السلطة.

المعرّف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/PWFE4700
القبول Accepted
2025-6-26
التعديل Revised
2024-12-17
التسلم Received
2024-5-24

حواء الزين | Hawa Alzain* والشفاء الأمين | Elshifa Elamin**

سجال الكلمات والرصاص في السودان: تحليل إثنوغرافي رقمي لخطاب حرب الخامس عشر من نيسان/ أبريل 2023

Sudan's War of Words and Bullets: A Digital Ethnographic Analysis of the 15 April War Discourse 2023

ملخص: تحلل الدراسة العلاقة بين الخطاب والحرب التي اندلعت في 15 نيسان/ أبريل 2023 في السودان، بين القوات المسلحة السودانية وقوات الدعم السريع وما تزال مستمرة حتى الآن. وتعتمد الإثنوغرافيا الرقمية أداةً لجمع البيانات ووصفها، بغية إنجاز تحليل نقدي للخطاب المرافق للحرب والمندرج في ديناميّاتها. يتّسم هذا الخطاب بطبيعة ثنائية، ويقيم علاقة تأثير وتأثر بالحرب، تتأسس على توظيف التنوع الثقافي والتعدد اللغوي والتمايزات الإثنية لتأجيج التناقضات ووصم الخصوم وحشد الأنصار، من أجل تحقيق أهداف الحرب العسكرية من دون الالتفات إلى الآثار النفسية والاجتماعية لاستراتيجيات التجييش.

كلمات مفتاحية: الحرب، السودان، الإثنوغرافيا الرقمية، السلطة، الخطاب.

Abstract: The article examines the relationship between discourse and the ongoing war in Sudan, which began on 15 April 2023, between the Sudanese Armed Forces and the Rapid Support Forces (RSF). It employs digital ethnography as a tool for data collection and description in conjunction with critical discourse analysis. It finds that discourse surrounding the April War is of a binary nature and shares a reciprocal relationship with the war itself. This relationship is rooted in the instrumentalization of factors such as cultural diversity, linguistic plurality, and ethnic distinctions in Sudan toward achieving military objectives – while disregarding the psychological and social impacts of mobilization strategies.

Keywords: War, Sudan, Digital Ethnography, Power, Discourse.

* باحثة، حاصلة على الماجستير في اللسانيات والمعجمية العربية من معهد الدوحة للدراسات العليا (المؤلِّفة المسؤولة).

Researcher. She received a master's in Linguistics and Arabic Lexicography from the Doha Institute for Graduate Studies (Corresponding Author). Email: hmu002@dohainstitute.edu.qa

** أستاذة مساعدة في اللغة الإنكليزية بكلية الآداب، جامعة أم درمان الأهلية، السودان.

Assistant Professor of English Language, Faculty of Arts, Omdurman Ahlia University, Sudan.

Email: elshifamn@gmail.com

مقدمة

تعرّض السودان للصراعات والنزاعات والحروب والانقلابات السياسية والعسكرية والانتفاضات والثورات خلال عقود طويلة؛ وهذا كان له تأثير في الدولة وفي حياة مواطنيه. وواحدة من هذه الحروب هي حرب 15 نيسان/ أبريل 2023، التي نُشير إليها هنا بـ "حرب نيسان/ أبريل" اختصارًا، وقد نتجت من انتقال الحروب السودانية السابقة إلى العاصمة السودانية الخرطوم، وما زالت مستمرة فيها، في حين تتراجع في بعض الولايات السودانية وقد تمتد إلى ولايات أخرى. ولمختلف هذه الحروب أسباب كثيرة ذات علاقة مباشرة بالتنوع الإثني والتعدد اللغوي والقبلي والثقافي، وتأجيج النزاعات وسعي أطرافها لتحقيق أهداف سياسية والاستحواذ على الثروة[1]، والصراع على السلطة.

وعلى الرغم من ثراء الرصيد البحثي حول العلاقة بين الحرب والخطاب، فإننا لم نعثر على دراسات تتناول هذه العلاقة في سياق حرب نيسان/ أبريل، أو تهدف إلى التعرّف إلى طبيعة العلاقة بينهما. ولذلك، أردنا لهذه الدراسة أن تغطي بعض هذا النقص في البحث في النزاعات الحربية السودانية، وذلك من خلال تسليط الضوء على المكوّن الخطابي في استراتيجياتها. وبناء عليه، تحاول الدراسة الإجابة عن السؤالين التاليين: كيف تتشكل مفردات خطاب حرب نيسان/ أبريل في السودان؟ وما طبيعة العلاقة بين هذه الحرب والخطاب المعبّر عنها؟

ولكي نجيب عن السؤالين، اعتمدنا من جهة تقنية البحث على الإثنوغرافيا الرقمية Digital Ethnography في جمع البيانات ووصفها، وعلى التحليل النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis في تحليل البيانات. وترصد الإثنوغرافيا الرقمية التفاعلات الاتصالية في الفضاء الرقمي، وتتتبّع ما يصدر منها عن الجماعات الافتراضية، وما يعبّر عنه ذلك من تفاعلات اجتماعية من خلال الخطاب[2]. وتُستخدم الإثنوغرافيا الرقمية أيضًا لوصف حياة الأشخاص والقيم التي يتبنونها باستخدام ملاحظة حسابات أو صفحات أو مواقع إلكترونية محددة، على امتداد فترات زمنية معيّنة، بغض النظر عن حدود وجود أصحابها المكانية، التي تكون غالبًا متباعدة[3]. إن اعتمادنا الإثنوغرافيا الرقمية جاء من طبيعة دراستنا التي تعتمد على بيانات توضع على مواقع التواصل الاجتماعي على نحوٍ رئيس؛ وذلك من خلال تتبّع تفاعلات سودانيين على موقع فيسبوك. ونتيجةً لصعوبة معالجة مثل هذه البيانات بأدوات الإحصاءات اللغوية، اخترنا عينة من مئة صفحة فيسبوك لمجموعات وشخصيات عامة Public Users Profiles، مقسّمة على خمسين صفحة داعمة لقوات الدعم السريع

(1) أحمد يونس، "السودان: 68 عامًا من الاستقلال... 60 عامًا من الحروب"، **الشرق الأوسط**، 2024/8/17، شوهد في 2025/3/7، في: https://bit.ly/448LQnG

(2) رجاء جيئزاوي، "الحركات الاحتجاجية الشبكية في المغرب: الفضاء الرقمي مجالًا لتشكيل الخطاب المطلبي للهامش"، **عمران**، مج 12، العدد 47 (شتاء 2024)، ص 100.

(3) الطاهر بصيص وعبد الرحمان قدي، "الإثنوغرافيا الافتراضية واستخداماتها في دراسات الوسائط الجديدة"، **الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية**، مج 7، العدد 4 (حزيران/ يونيو 2022)، ص 86.

أو تتبنى خطابها، وخمسين صفحة داعمة للقوات المسلحة السودانية أو تتبنى خطابها. وذلك كما هو موضح في الشكل.

شكل يوضّح عيّنة الدراسة

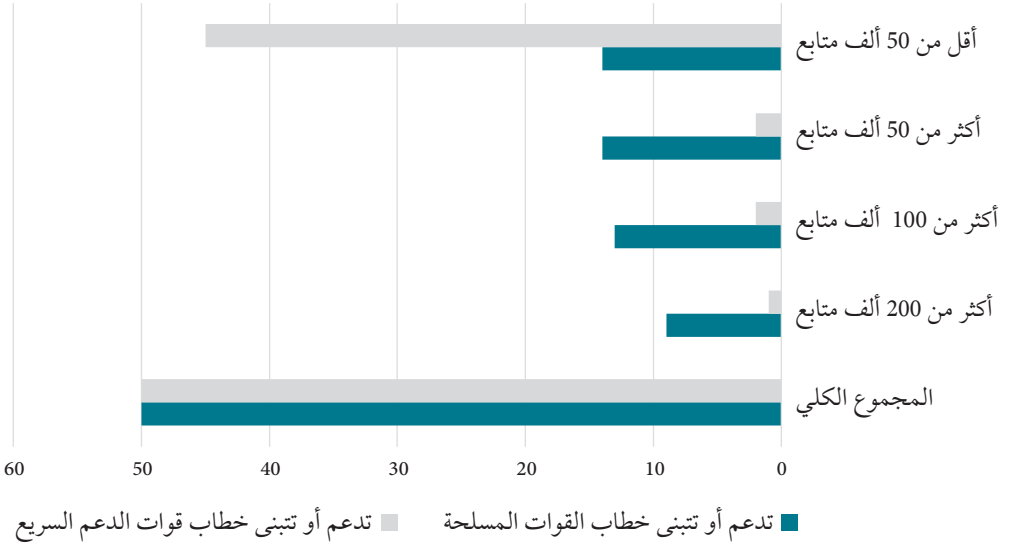

المصدر: من إعداد الباحثتين.

في عينة الدراسة، تتوزع الصفحات التي تتبنى خطاب القوات المسلحة أو تدعمه على 22 مجموعة عامة و28 صفحة عامة، وعدد متابعيها كالتالي: أكثر من 200 ألف متابع في 9 صفحات، وأكثر من 100 ألف متابع في 13 صفحة، وأكثر من 50 ألف متابع في 14 صفحة، وقرابة 50 ألف متابع في 14 صفحة. ومن أهمها "صفحة دعم القوات المسلحة السودانية"، و"صفحة أنا الجيش أنا الشعب"، و"صفحة الجيش السوداني"، و"صفحة دعم الجيش السوداني". أما الصفحات التي تتبنى خطاب الدعم السريع أو تدعمه، فهي تتوزّع على 5 صفحات لمجموعات عامة و45 صفحة عامة، وكان فيها عدد المتابعين كالتالي: أكثر من 200 ألف متابع في صفحة واحدة، وأكثر من 100 ألف متابع في صفحتين، وأكثر من 50 ألف متابع في صفحتين أيضًا، وقرابة 50 ألف متابع في 45 صفحة. ومن أهمها صفحة "آل جنيد العز"، و"صفحة جغم الكيزان والفلول"، و"صفحة جاهزية سرعة حسم الجغامي (جغام الفلول)" و"صفحة جاهزية لحل القضية". وتدلّ هذه الأرقام على أن متابعي صفحات كلا الطرفين يُعدَّون بالآلاف؛ ما يعني إمكانية انتشار الخطابات التي تنشرها، ومساهمتها في توحيد رؤية متابعيها وتوجيه تصوراتهم وبناء قناعاتهم حيال الحرب. وطوال الفترة من 15 نيسان/ أبريل إلى كتابة هذه الدراسة، وعلى امتداد ما يقارب 15 شهرًا، تتبعنا المنشورات المكتوبة والمسموعة لكلا الطرفين، إلا أننا ركّزنا على المنشورات المكتوبة لسهولة ملاحظة لغتها، ودوّنا المفردات التي لاحظنا أنها الأكثر استخدامًا خلال فترة الحرب وذات دلالات لها بها علاقة.

لمعالجة مدوّنة البحث، اعتمدت الدراسة التحليل النقدي للخطاب، لوصف البيانات وتحليلها، بالتركيز على ما تقوله خطابات العيّنة في موضوعات السلطة، والأيديولوجيا، واللاعدالة الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية من منظور عرقي وجندري. ولا يتعلق تحليل الخطاب كما نعتمده في هذه الدراسة باللغة فقط، بل يشمل أيضًا السياق الذي أنتج تلك اللغة، وبما يساعد على فهم الخلفيات الثقافية والتاريخية والأيديولوجية التي تؤثر في إنتاج اللغة وإعادة إنتاجها واستخدامها بين أفراد المجتمع. ومن أجل بلوغ هذا الهدف، يدرس التحليل النقدي للخطاب في المقام الأول طريقة تصوير الخطاب لكيفيات استخدام السلطة الاجتماعية، وموقعها من قضيتَي المساواة والعدالة، وكيفية اشتراك الخطاب في إعادة إنتاج تلك السلطة والتشريع لها أو مقاومتها ضمن سياقَيه الاجتماعي والسياسي[4].

لا تسمح لنا طبيعة مجتمع الدراسة الرقمي المغلق بالجزم بطبيعة الأطراف الناشرة للخطابات والمستعملة للغة التي تحملها. ولكن الهدف البحثي الذي نسعى له لا يستلزم ذلك، فليس مهمًّا أن نتعرّف إلى الأطراف التي تدعم الجيش بصفة دقيقة، وإن كانت مجموعات اجتماعية بعينها من سكان هذه المدينة أو تلك مثلاً، أو من المنتسبين إلى هذه المؤسسة أو تلك، أو ممّن اتّبع هذا الخط السياسي أو ذاك. إن الهدف من الدراسة هو الوقوف على مفردات الخطاب المُستخدَم في بناء المواقف من الحرب، وكيفيات الانخراط فيها مساندةً لهذا الفريق أو ذاك. ومن أجل ضبط منهج الدراسة، بحيث تؤدي إلى تحصيل نتائج مقبولة، ركزنا على المواضيع الخمسة التي عرضناها، وذلك باستعراض المفردات التي تحيل إليها، مع اعتمادنا مصادر خارجية لتعريفها وشرحها والإشارة إلى ما تحيل إليه من معنى أو معانٍ، ولم نعتمد على ما يرد منها في صفحات شخصية مغلقة Private Profiles، للحفاظ على مبدأ الخصوصية، واحترام أخلاقيات البحث.

وبناءً على ما سبق، تقع الدراسة في ثلاثة أقسام: يبني القسم الأول الإطار النظري والمفهومي، ويتناول ملامح الرصيد البحثي للموضوع، ويناقش الأدوات المفهومية التي تستند إليها الدراسة. ويعرض القسم الثاني التعبيرات والمفردات التي تعتمد عليها الدراسة في وصف طبيعة الخطاب الثنائية لحرب نيسان/ أبريل. ثم يحلل القسم الثالث الثنائيات الخطابية في سياق تحليل خطاب حرب نيسان/ أبريل.

أولاً: العلاقة بين الخطاب والحرب

1. بعض ملامح الرصيد البحثي في العلاقة بين الخطاب والحرب

بيّنت دراسات عديدة أن اللغة تمثّل مادة العلاقات الاجتماعية[5]، حيث يمكن أن تتأسس الممارسات المتطرفة في السلوك اللغوي المنتج للخطاب. ويعني ذلك أنه لا يمكن – إلا من خلال دراسة الخطاب – فهم العلاقة بين طرفي أي نزاع اجتماعي، وأسبابه وفي بعض الحالات كيفية حلّها؛ ذلك لأن النزاعات الاجتماعية لا تقوم فقط على أسباب كُلّية مثل المظالم، أو التنافس على الموارد، أو

(4) Teun Adrianus Van Dijk, "Critical Discourse Analysis," in: Teun Adrianus Van Dijk, *The Handbook of Discourse Analysis* (West Sussex: John Wiley & Sons Inc, 2015), pp. 466–467.

(5) Asif Agha, *Language and Social Relations* (Cambridge: Cambridge University Press, 2007).

الفشل البنيوي للدولة، بل أيضًا على الحقائق التي يعيشها الناس؛ وهي حقائق مبنية ومنقولة عبر الخطاب الذي يسهم في بناء الهويات والعلاقات بين الأفراد. وعلى ذلك، فإن سوء فهم أنماط خطابية تنتجها هويات محددة ذات مصالح معيّنة يمكن أن يكون سببًا في اندلاع النزاعات بينها وممارسة العنف. وبما أن الخطاب يوفّر رؤى حول كيفية تشكيل الموضوعات الثقافية أو الدينية[6]، فيمكن، إذًا، تحليل قضايا المعرفة والسلطة والديمقراطية وغيرها باستخدام أساليب التحليل الخطابي[7].

وفي هذا السياق، يُلاحظ أن عددًا من الدراسات جعل من العلاقة بين الخطاب والحرب، بوصفها وضعًا اجتماعيًّا استثنائيًّا، موضوعًا له. ومنها الدراسات السودانية التي ركّزت على تحليل الجانب التاريخي السياسي في الاضطرابات التي مرّت بها الفترة الانتقالية في السودان، بعد انتفاضة كانون الأول/ ديسمبر 2019، وعلى تأثير التحولات التي طرأت في التحالف الذي تكوّن لإدارة الفترة الانتقالية[8]، في علاقة بجذور تجمع المهنيين السودانيين التاريخية ونشأته وتطوره واستراتيجياته التنظيمية والقيادية ودوره خلال الفترة الانتقالية[9]. وتناولت دراسة أخرى الاستعارة في خطاب الحرب على لبنان في تموز/ يوليو 2006؛ بوصفها استراتيجية للمواجهة الإعلامية، كما تجسدت في الخطابين الأميركي والإسرائيلي وفي السجال معهما في الخطاب العربي، بحيث تبيّن أن تلك الحرب لم يقدها السلاح، بقدر ما قادها خطاب بلاغي استعاري مؤسّس على تصورات ذهنية كيّفتها من خلال صوغ لُغتها[10]. وإضافة إلى ما سبق، نشير إلى الدراسة التي اتخذت من الحرب الروسية – الأوكرانية موضوعًا لدراسة اتجاهات الخطاب الصحفي المصري حيالها. وقد تبيّن منها أن الاستراتيجيات المتبعة في تغطية تلك الحرب توزّعت بحسب أدوار القوى الفاعلة في الخطابات حولها؛ حيث سيطر خطاب محدد على كل موقع إعلامي محدد، بناء على السياسة التي يتبناها مناصروه حيالها[11].

ولكن البحث في علاقة الحرب بالخطاب لم يقتصر على المواجهات ما بين الدول الاستعمارية وحركات التحرير أو بين الدول المتنازعة، بل شمل النزاعات الداخلية في بعض الدول. ففي السياق الأفريقي الذي يقع السودان ضمن جغرافيته، تناول عدد من الدراسات علاقة الخطاب بالحرب، كما في مثال النزاع المسلح بين حكومة آبي أحمد وجبهة تحرير شعب التيغراي في إثيوبيا، حيث استُخدمت أدوات لغوية لعزل الخصوم ونبذهم ونزع إنسانيتهم وتعبئتهم على أساس عرقي أو

(6) Aaron V. Cicourel, "Language as a variable in social research," *Sociological Focus*, vol. 3, no. 2 (Winter 1969–1970), pp. 43–52

(7) Innocent Chiluwa, *Discourse Analysis and Conflict Studies* (Thousand Oaks: SAGE Publications, 2019), pp. 9–10.

(8) حسن الحاج علي أحمد، "فترة انتقالية مضطربة: تحولات التحالف الهجين في السودان"، **عمران**، مج 12، العدد 47 (شتاء 2024)، ص 9.

(9) أحمد إبراهيم أبو شوك، "تجمع المهنيين السودانيين وسؤال التنظيم والقيادة في الثورة السودانية (2018–2019)" **عمران**، مج 12، العدد 48 (ربيع 2024)، ص 89.

(10) محمود العشيري، "الاستعارة؛ استراتيجية حرب: دراسة في لغة الخطاب السياسي للحرب على لبنان (تموز/ يوليو 2006)"، **مجلة كلية دار العلوم – جامعة القاهرة**، العدد 55 (2013)، ص 209.

(11) محمد محمد علي عمارة، "تحليل خطاب الحرب الروسية الأوكرانية في مواقع الصحف المصرية الخاصة: دراسة تحليلية"، **المجلة المصرية لبحوث الرأي العام**، مج 22، العدد 2 (نيسان/ أبريل–حزيران/ يونيو 2023)، ص 315.

عنصري أو غير ذلك من أشكال التمييز. وعلى ذلك، لم يؤدِّ ذلك الصراع إلى تفاقم الانقسامات الإثنية والثقافية والسياسية فحسب، بل كذلك إلى تفاقم خطاب الكراهية لتأطير (الآخر) المعادي[12]. ويمكن اعتبار مثل هذه الدراسات جزءًا من مثيلاتها التي تتناول أوضاعًا أفريقية عامة، وهي تبيّن دراسة ديناميكيات اللغة في سياق العمل على حلّ النزاعات أساسي، وأن من بين الأسباب التي جعلت المجتمع الدولي غير قادر على حلّ بعضها فشله في استكشاف دور اللغة في محادثات السلام مثلاً، سواء نشبت النزاعات المراد حلها لأسباب إثنية أم دينية أم غيرها[13].

تبيّن نماذج الدراسات السابقة الذكر أهمية الخطاب ودوره الفعّال في سير الحروب التي تعتمد عادة على قدرته التنظيمية على خلق الوحدة بين أفراد المجموعات المتحاربة، وحشد الدعم في صفوفها، وبناء على ذلك يُعتبَر شريكًا نشطًا فيها[14]، فالخطاب لُغة لها جيش وبحرية، وفقًا لجودث إيرفن وسوزان جال[15]. كما أن له دورًا في تشكيل الهوية الاجتماعية والثقافية، ويزداد دوره هذا حسمًا في ظروف الحرب التاريخية والاجتماعية، من خلال صوغ المرجعية الأساسية لهويات المنخرطين فيها[16].

وانطلاقًا من ذلك، سوف نعتمد في دراسة طبيعة خطاب حرب نيسان/ أبريل وعلاقته بها، على القضايا الخمس المحددة التي سبق عرضها؛ لأنها تعتبر أساسية في مسار الحرب وفي تشكيل هويات المتحاربين سياسيًّا وأيديولوجيًّا واجتماعيًّا؛ أي من منظور عنصري - عرقي وجندري.

2. الأدوات المفهومية لدراسة الخطاب وطبيعة علاقته بالحرب

أ. الخطاب

ترى ثورية دريد أن الخطاب Discourse يتجاوز الجملة إلى السياق والظروف التي أنتجته[17]. ولا يمكن فهم طبيعة خطاب ما، من خلال تحليل مكوناته اللغوية فقط؛ بل يجب التأكيد أيضًا أن علاقات منظمة داخل الخطاب نفسه تؤثّر في الواقع وتتأثّر به[18]. وفي هذا السياق، يمكن وصف

(12) Lucas Mafu, "Discourse Structures, Weaponization of Language and Ethiopia's Civil War," *Sage Open*, vol. 14, no. 3 (2024).

(13) John Emike, Joel Iyiola & Ofeh Augustine, "Language in Conflict Resolution in Africa: The Discourse Strategies," *American Research Journal of English and Literature*, vol. 3, no. 1 (2017), pp. 1–7.

(14) Scott A. Reid & Sik Hung Ng, "Language, Power, and Intergroup Relations," *Journal of Social Issues*, vol. 55, no. 1 (1999), p. 120.

(15) Judith T. Irvine & Susan Gal, "Language Ideology and Linguistic Differentiation," *Regimes of language: Ideology, Politics and Identities*. vol. 81 (2000), pp. 35–36.

(16) عبد السلام المسدي، **اللغة والهوية في الوطن العربي** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 231.

(17) Thouria Drid, "Discourse Analysis: Key Concepts and Perspectives," *Al–Athar*, vol. 9 (May 2010), pp. 20–25.

(18) Deborah Schiffri, "Discourse," in: Ralph W. Fasold (ed.), *An Introduction to Language and Linguistics* (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), p. 171.

التفاعلات اليومية في وسائل التواصل الاجتماعي بأنها خطاب؛ لأنها تشكّل أداءً كلاميًّا مكتمل التأثير. ونقصد بالخطاب في هذه الدراسة تحديدًا التعبيرات والمفردات اللغوية المستعملة في كل تناول لحرب نيسان/ أبريل، في مختلف تشكيلاتها وتركيباتها وحمولاتها الممكنة، ضمن سياقها التاريخي وباعتبارها تهدف إلى إحداث تأثير في واقع هذه الحرب. بهذا المعنى، نعتبر أن الخطاب شكل من أشكال الممارسة الاجتماعية؛ وذلك انطلاقًا من رؤية نورمان فيركلاف إلى الظاهرة اللغوية على أنها ظاهرة اجتماعية، وإلى الظاهرة الاجتماعية على أنها ظاهرة لغوية[19]. وفي هذا الصدد، تضيف رقية حسن أن الخطاب هو مرآة المجتمع؛ لأن القيم الثقافية والموضوعات والمعتقدات غالبًا ما تكون منسوجة على نحوٍ معقّد في الخطاب، وأن دراسة خطاب المجتمعات يوفّر رؤى حول أنماط حياة الأفراد وممارساتهم الاجتماعية، إضافة إلى أن فهم الخطاب بوصفه مرآة للقيم الثقافية لا يثري فهمنا للمجتمعات فحسب؛ بل يسلّط الضوء أيضًا على دور الخطاب في الكشف عن المعايير الثقافية للأفراد والمجتمعات وتشكيلها[20].

وهنا نضيف أن الخطاب لا يعكس الواقع فقط، بل قد ينتج الواقع ويشكّله ويعيد إنتاجه أيضًا، وذلك لأن العلاقة بين الخطاب والبنى الاجتماعية علاقة تسير في اتجاهين؛ فالخطاب يتحدد على نحوٍ مباشر من خلال البنى الاجتماعية، ليعود فيؤثر فيها ويرتبط بتحقيق استمراريتها ضمن مساراتٍ معقدة للتغيير الاجتماعي. ونتيجة لهذه العلاقة الجدلية بين الخطاب والبنى الاجتماعية، فإن الخطاب يكتسب أهمية كبيرة من حيث علاقات القوة والصراع على السلطة (مثل الحروب والنزاعات)[21].

ولتحليل خطاب حرب نيسان/ أبريل، فإننا نتّبع منهجًا لا يقتصر على تخصص واحد؛ بل يعتمد على عدّة تخصصات، تجمع بين مجالات مختلفة، لمحاولة فهم طبيعة تلك العلاقة. وفي هذا الجانب، تقدم دراسات الخطاب مناهج تحليلية تربط بين مختلف المجالات منها براغماتية اللغة، ونظرية أفعال الكلام لميشيل فوكو على وجه التحديد، والتحليل النقدي للخطاب، وتحليل المحادثة، وعلم اللغة الاجتماعي التفاعلي، وإثنوغرافيا الاتصال[22].

ب. السلطة

يري شياو-ينق شيانق أن السلطة Power هي القدرة المشروعة على التأثير في الآخرين. وموضوع الشرعية هو ما يميز السلطة من غيرها من أنواع السيطرة والقوة[23]. وقد تأتي تلك الشرعية وتمرر

(19) Norman Fairclough, *Language and power* (New York: Longman, 1989), pp. 22–23.

(20) Rukya Hassen, "Discourse as Medium of Knowledge: Transmission of Knowledge by Transmission of Discourse People Live," *Journal of Education and Practice*, vol. 6, no. 31 (2015), pp. 119–128.

(21) Fairclough, p. 35.

(22) Shiao–Yun Chiang, "Power and Discourse," in: Karen Tracy (ed.), *The International Encyclopedia of Language and Social Interaction*, vol. 1: A–D (Oxford: Wiley Blackwell, 2015).

(23) Ibid.

عن طريق القوة مثل الحروب والنزاعات أو عن طريق الخطاب والأيديولوجيا وغيرها. ونقصد بالسلطة في سياق دراستنا مفهومها الأوسع الذي يراه فوكو وذلك من منظور طبيعتها؛ فهي علاقة تسير في كل الاتجاهات ولا تقتصر – على سبيل المثال – على الرؤساء التنفيذيين أو الساسة الذين يملون القواعد على مرؤوسيهم؛ بل هي منتشرة في التفاعلات والمواقف اليومية، مثل المشاركة في وسائل التواصل الاجتماعي وغيرها[24]. ثمّ إن علاقات السلطة التي تنشأ بين القوى الاجتماعية تشكل عاملاً أساسيًّا، يحدد الطبيعة المحافظة أو التحويلية لإنتاج الخطاب ولإعادة إنتاجه. ويمكن ممارسة السلطة عن طريق الخطاب، انطلاقًا من أن الخطاب يجسد افتراضات أيديولوجية تضفي الشرعية على علاقات السلطة القائمة أو تشكّلها أو تعيد تشكيلها، ومن ثمّ إذا حدث تحول في علاقات السلطة من خلال الصراع الاجتماعي، يمكننا، في المقابل، أن نتوقع تحوّلاً في أنظمة الخطاب تباعًا. وقد تكون تحوّلات أنظمة الخطاب ضرورية حتى بالنسبة إلى مجموعة اجتماعية مهيمنة، للحفاظ على مكانتها أو تغييرها على سبيل المثال[25].

ج. الأيديولوجيا

تعرَّف الأيديولوجيا Ideology عادة بأنها أنظمة من المعتقدات المشتركة، غالبًا بين مجموعات محددة بدلاً من المجتمع الاجتماعي بأكمله. أما عن طبيعة علاقتها بالخطاب، فإنها تعتبَر وسيلة للسيطرة على المجتمع عبر الخطاب. وقد يكون الخطاب الوسيلة المفضلة للأيديولوجيا. أضف إلى ذلك أن الممارسات الخطابية التي يلجأ إليها الناس عادة من دون تفكير هي ممارسات أيديولوجية؛ بحيث تدعم علاقات السلطة التي تكون بين أيدي مجموعات اجتماعية متنافسة[26]. ويمكن النظر إلى الأيديولوجيا على أنها أحد أشكال الإدراك الاجتماعي، يتقاسمه أعضاء المجموعة الاجتماعية، ويتشكّل إطارًا معرفيًّا معقّدًا يتحكّم في تشكيل الإدراكات الاجتماعية الأخرى، مثل المعرفة والرأي والموقف، والتحيّزات الاجتماعية. ويتألّف أيّ إطار أيديولوجي من معايير وقيم وأهداف ومبادئ تُختار وتُطبّق وتُدمج، بطريقة تصبّ في صالح الإدراك والتفسير والفعل في الممارسات الاجتماعية التي تخدم مصلحة مجموعة اجتماعية ما[27].

د. العنصرية واللاعدالة الاجتماعية

تقوم العنصرية Racism على غياب العدالة الاجتماعية Social Justice، فهي نظام اجتماعي معقّد من الهيمنة، ذو أساس عرقي أو عنصري لا عدالة فيه ولا مساواة، وهي تتألف من مكوّن اجتماعي

(24) Michel Foucault, *The History of Sexuality*, vol. 1: *An Introduction, English Translation* (New York: Random, 1978), pp. 15–17.

(25) Fairclough, p. 40.

(26) Ibid., p. 37.

(27) Teun Adrianus Van Dijk, *Discourse and Power* (New York: Palgrave Macmillan, 2008), pp. 102–103.

ومكوّن معرفي، وهو الذي يضطلعُ الخطاب بدور أساسي في بلورته[28]. فالعنصرية العرقية، مثلاً، ليست فطرية، ولا تتطور تلقائيًّا بين الأفراد، بل إنها مكتسبة وتحدث عادة من خلال التواصل والتفاعل عن طريق الخطاب؛ أي من خلال النص والحديث وغيرها من أشكال التواصل الأخرى. فالعنصرية يُعبّر عنها وتُصاغ ويُدافع عنها وتُضفى عليها شرعية في الخطاب؛ ومن ثمّ، يُعاد إنتاجها ومشاركتها داخل المجموعة المهيمنة، وهكذا تُعلَّم العنصرية في المجتمعات[29]. ومن سمات هذا الخطاب، احتواؤه على التمييز اللفظي أو العنصرية اللفظية، والوصم والتحقير والتنمّر على أساس عرقي. ولذلك فإن فهم الخطاب العنصري مرتبط بالتعرف إلى انتماءات منتِجيه ومستقبِليه وهوياتهم، وكذلك بسماته اللغوية والثقافية، يمكّننا تحليلها من اكتساب رؤية عميقة لأنظمة المعتقدات والقيم المجتمعية والسرديات السائدة في مجتمع ما، والمعايير والسلوكيات الاجتماعية والثقافية وغيرها[30].

هـ. الجندر

يشير مفهوم الجندر Gender في هذه الدراسة إلى العملية التي تشكّل الفروق في الأدوار الاجتماعية والسلوكيات والخصائص العقلية والعاطفية، وحتى الجسمانية للنساء والرجال في المجتمع[31]. وتؤدّي اللغة المرتبطة بالجندر دورًا مهمًا في تشكيل الخطاب عبر سياقات مختلفة؛ إذ تُستخدم لتحديد الهويات والتفضيلات والاختلافات والقواسم المشتركة أو المتباينة بين الذوات الاجتماعية[32]. ويتخلل ذلك بناء الصور النمطية، واستبعاد الآخرين أو الإساءة لهم أو تمييزهم بناءً على هويتهم الجنسية مثلاً، وبناء التحيزات والتمييزات تجاهها في المجتمعات. في هذا السياق، يختار الأفراد أنماطًا لغوية محددة، ذكورية أو أنثوية، لتلبية توقعات مجتمعاتهم، أو لتحقيق أغراضهم التواصلية التفاعلية[33]. ويخضع الخطاب التواصلي على شبكات التواصل الاجتماعي لهذه التأثيرات نفسها، ويقوم بالأدوار المشار إليها نفسها. ولذلك يمكن القول إن اللغة المستخدمة في الخطاب لا تسمح فقط بمشاركة المعلومات عن الأيديولوجيات والثقافات والتعبير عنها حول قضية محددة، بل تؤدّي أيضًا دورًا محوريًّا في تشكيل الهويات الجندرية وإعادة تشكيلها؛ وذلك من خلال عدد من العناصر

(28) Teun Adrianus Van Dijk, "Discourse Analysis of Racism," in: John Hans Stanfield (ed.), *Rethinking Race and Ethnicity in Research Methods* (London: Routledge, 2011).

(29) Adrianus, *Discourse and Power*, pp. 102–103.

(30) Hassen, pp. 1–2.

(31) ليلى قريدي، "مفهوم الجندر وإشكالية الترجمة"، **مجلة التمكين الاجتماعي**، مج 2، العدد 4 (كانون الأول/ ديسمبر 2020)، ص 48.

(32) David Defranza, Himanshu Mishra & Arul Mishra, "How Language Shapes Prejudice Against Women: An Examination Across 45 World Languages," *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 119, no. 1 (February 2020), p. 4.

(33) PM Gygax et al., "A Language Index of Grammatical Gender Dimensions to Study the Impact of Grammatical Gender on the Way We Perceive Women and Men," *Frontiers Psychology*, vol. 10 (2019), pp. 1–2.

والقيم الاجتماعية والثقافية التي تؤثر في أفهام الأفراد ومنظورهم إلى الأشياء من حولهم[34]. وفي سياق الحروب، يمكن أن تعزز اللغةُ الصورَ النمطية الأيديولوجية، عبر التعابير والمفردات المرتبطة بالجندر؛ وهو ما يؤدي إلى فهم متحيّز للصراع، يكون على الأغلب مضطهِدًا للنساء[35].

3. بنية الحرب الثنائية المتقاتلة في الميدان وفي الخطاب

على مر الأحداث التاريخية التي عاشها السودان الحديث، تمظهرت صراعات ساسته ونخبه ومثقفيه ضمن بنية متناقضة تتقاتل فيها ثنائيات Dualities بُنيت تاريخيًّا، بحيث تعكس جذور الصراعات القائمة بينها. وليست الثنائية موضوعًا جديدًا في السودان؛ فقد تناولتها عفاف أبو حسبو في عام 1980، وأشارت إلى أن لها وجودًا منذ ما قبل الاستعمار، إلا أنه عمل على تغذيتها وإعادة إنتاجها، لتصبح سمة في الفضاء السياسي العام. وتقول إن الاستعمار البريطاني حاول استخدام الثنائيات القائمة وأضاف إليها أخرى ليُضعِف الحركة الوطنية في مستعمراته، ومن بينها السودان. ومنها ثنائيات التقليديين مقابل الحداثيين، والإقليميين مقابل الوطنيين، والطائفيين مقابل العلمانيين، والمعتدلين مقابل المتطرفين في النخب المتعلمة ... إلخ[36]. وتضيف أبو حسبو أن تلك الثنائيات عبرت مما قبل الوضع الاستعماري إلى الوضع الاستعماري نفسه، ثم إلى الاستقلال، وهو ما دعاها إلى أن تتحدث عما أسمته "مركزية الثنائية". وفي تفصيل قولها، أشارت إلى أن الحركة القومية السودانية اتّسمت عمومًا بالصراع الداخلي الذي تبلور في ثلاثينيات القرن العشرين ثم أربعينياته، وسيطر على العلاقات السياسية الداخلية في السودان إلى ما بعد استقلاله. ومن مظاهر تلك الثنائية وجود فكرتين قوميتين متعارضتين في ذلك الوقت: إحداهما تدعو إلى هوية سودانية مستقلة وتطالب باستقلال السودان عن مصر وبريطانيا تحت شعار السودان للسودانيين، وثانيتهما تدعو إلى وحدة وادي النيل تحت راية الحكم المصري. أما بعد استقلال السودان، فقد صارت الثنائيات العرقية والإثنية من سِمات المجتمع السوداني[37]. ويذهب عبد الله الفكي البشير إلى ما ذهبت إليه أبو حسبو، ويرى أن من أبرز تجليّات آثار الاستعمار ثنائيات الإرث السياسي السوداني، ويضيف إلى الثنائيات السابقة: التطهير مقابِل التمكين، واليسار مقابِل اليمين، والإسلاميين مقابِل الشيوعيين، والمدنية مقابِل العسكرية، وفي الوقت الحالي ثنائية الجيش مقابِل الدعم السريع[38].

(34) Israt Jahan, "The Impact of Gendered Language on Our Communication and Perception Across Contexts and Domains," *Journal of Language and Linguistic Studies*, vol. 17, no. 4 (2021), p. 3.

(35) Blackburn Robert M, Jennifer Jarman & Bradley Brook, "The Puzzle of Gender Segregation and Inequality: A Cross–National Analysis," *European Sociological Review,* vol. 16, no. 2 (2000), p. 1.

(36) Afaf Abu Hasabu, *Factional Conflict in the Sudanese Nationalist Movement 1918–1948* (Khartoum: The Graduate College University of Khartoum, 1985), pp. 3–6.

(37) Ibid.

(38) عبد الله الفكي البشير، "دور الفكر في إحداث التغيير في السودان"، الملتقى السوداني للسانيات، يوتيوب، 2024/5/12، شوهد في 2025/7/7، في: https://youtu.be/sTfXi7oUEZM?feature=shared

وفي هذه الدراسة، نتناول أحد أوجه هذه الثنائيات، ونسميها تحديدًا الثنائيات الخطابية Discourse Dichotomies، التي تشير إلى البنية الثنائية المتصارعة، بل المتقاتلة في الخطاب بحمولاته الاجتماعية والثقافية والأيديولوجية، وهي تختلف عن الثنائيات Dualities التي أشارت إليها أبو حسبو والفكي، وهي غالبًا ما كانت ذات خلفية تاريخية وحمولة سياسية. على أننا نعتبر أن الثنائيات الخطابية المتصارعة تعكس الثنائيات الاجتماعية والسياسية من جهة، وتعيد إنتاجها من جهة أخرى.

ثانيًا: ثنائيات خطاب حرب نيسان/ أبريل

يتّسم خطاب حرب نيسان/ أبريل بطبيعة ثنائية حادة التقابل، يمكن افتراض أنها انعكاس لبنية صراع تاريخية وسياسية معقّدة في السودان، كما سبقت الإشارة، بحيث يُستخدم الخطاب أداةً لتعزيز المواقف المتعارضة وإعادة إنتاج الهويات المتصارعة والنزاعات والحروب. وللإجابة عن سؤال الدراسة الأول: ما طبيعة خطاب حرب نيسان/ أبريل؟ نعرض محتويات الخطاب في صيغة ثنائيات نثبتها ونصف مكوناتها، ومن ثم نحللها باستخدام منهج التحليل النقدي للخطاب، للكشف عن الأرضية التي يقوم عليها؛ وهي التي نستند إليها في القسم الثالث من هذه الدراسة.

1. ثنائية الموقف من الحرب

ظهرت هذه الثنائية تعبيرًا عن الموقف من حرب نيسان/ أبريل؛ فهناك من يؤيد الحرب دعمًا لها، وذلك بأن يقضي الجيش على قوات الدعم السريع المتمردة على الدولة على حدّ تعبيرهم. وهناك من يرى أنه يجب وقف الاقتتال؛ إذ إن المتضرر الوحيد هو المواطن السوداني الذي ينتمي إليه أفراد كلا الطرفين المتقاتلين. وبين هذا وذاك، ظهرت تلك الثنائية تعبيرًا عن الموقفين الرئيسين من حرب نيسان/ أبريل. أما معاني تلك المفردات والتعبيرات والشعارات الثنائية، التي يستعملها كلا الطرفين للدفاع عن موقفهما، فهي كالتالي:

أ. "لا لِلحَرْب، لازِم تَقيف"

إن تيار "لا للحرب ولازم تقيف" اصطفت حوله قوى سياسية ومجتمعية وشعبية، أبرزها قوى الحرية والتغيير (الائتلاف الحاكم سابقًا) ومكوّنات مهنية مجتمعية[39]. دعونا ننظر إلى معاني المفردتين في الفقرة التالية، قبل تحليلها.

- "لا لِلحَرْب": أي يجب ألا تكون حرب في السودان. وهو تعبير عن موقف ظهر منذ بداية الحرب وقبل ترجيح كفة أحد الطرفين. وغالبًا ما يكون موقفًا ودعوة حقيقية إلى وقف الحرب. ويبدو أنه ينطلق من دوافع أخلاقية وإنسانية في المقام الأول غالبًا[40].

(39) عادل عبد الرحيم، "بعد 12 أسبوعًا.. حرب السودان بين داعم لوقفها ومؤيد لحسمها (تقرير)"، **الأناضول**، 2023/7/24، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/j4hv5459

(40) فيصل محمد صالح، "كيف تفهم الحرب في السودان...؟"، **العربية**، 2024/3/2، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/36dduxnh

• "لازِم تَقيف": تعبير أطلقه من يؤيد ضرورة وقف الاقتتال بين الطرفين المتحاربين في السودان. ويعني أن الحرب يجب أن تتوقف.

ب. "بَلْ بَسْ-البَلابِسَة-، جَغِم، دَبِلْ له"

إن تيار "بَلْ بَسْ- البَلابِسَة-، جغم، دَبِلْ له" هو تيار يدعم الجيش ويدعو إلى القضاء على تمرد الدعم السريع، ويضم تيارات إسلامية وأحزابًا سياسية؛ أبرزها حزب الأمة[41] جناح مبارك المهدي. أما معاني العبارات أعلاه، فهي كالتالي:

• "بَلْ بَسْ-البَلابِسَة": "بل بس" تعني القتل والتنكيل - فقط لا غير - في سياق حرب نيسان/ أبريل. واشتُقَّت منها مفردة "البلابسة"، وهي صفة تُطلق على من يدعمون موقفًا، "بل بس" ومفردها "بَلْبُوسي"، فـ "البلبوسي" هو الداعم لموقف الجيش في مواصلة القتل لحسم حرب نيسان/ أبريل لصالحه. وتعبير "بل بس" قد استُعمل في ثورة كانون الأول/ ديسمبر 2018 السودانية، وكان وقتها يعني استمرار المواجهة السياسية أو الاحتجاجية الجذرية ضد نظام الرئيس السوداني الأسبق عمر البشير، وهو موقف يرفض الحلول الوسط بين الثورة ونظام الإنقاذ/ البشير. وفي الوقت الحالي، تعني الانحياز إلى بديل الحرب بين الجيش والدعم السريع واستمرار المواجهة العسكرية حتى يحسم الجيش الحرب، ويتم القضاء على (التمرد)[42].

• "جَغِم": المعنى المباشِر لتعبير "جَغَم" هو أَكَل. وقد اشتهر بوصفه مرادفًا لتعبير "بَل بَس". على الرغم من أن السودانيين من الطرفين المتقاتلين يستعملونه الآن للإيحاء بشدة فتكهم بخصومهم، فيقولون: إن الكتيبة كذا "جَغَمَت" الفريق كذا، وهكذا. وقد يُستعمَل مع ترديده مرتين فيقولون: "جَغِم جَغِم"، وذلك مبالغة في تصوير شراسة موقف الاقتتال في سياق حرب نيسان/ أبريل[43]. وقد امتد المعنى واستُعمل في السياق العام السوداني بمعنى (الحَسْم) بصورة عامة.

• "دَبِلْ له": تعبير اشتهر خلال حرب نيسان/ أبريل، ويعني زيادة الضرب والهجوم مرة تلو الأخرى. فكلمة "دَبِل" - فعل أمر - مفردة شهيرة في اللهجة السودانية تعني ضَاعِف. وهي بمعنى المفردة الإنكليزية Double نفسه. وقد استعملها من يدعم خط "نعم للحرب"، في إشارة منهم إلى معنى الفتك بالأعداء مرات عديدة، وذلك مبالغة في التوصيف أيضًا.

من خلال المسرد أعلاه نلاحظ أن هناك تباينًا في وجهات النظر بين التيارين، وتقابُلاً واضحًا يعود أساسه إلى مواقف الطرفين قبل اندلاع الحرب، وبعد توقيع الاتفاق الإطاري في 5 كانون الأول/ ديسمبر

(41) عبد الرحيم.

(42) خالد محمود، "الحرب تفرز مصطلحات جديدة لا يعرفها أحد سواهم: السودانيون يتحدثون بلغة 'ناس الشجرة' و'الدعامة' و'الكيزان' و'البلابسة'"، **أخبار السودان**، 2023/6/28، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/t7ymbxpv

(43) بكري الصائغ، "مصطلحات وتعبيرات سودانية جديدة ظهرت بعد معارك أبريل 2023"، **الراكوبة**، 2023/8/12، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/4xkk548h

2022 بين المكون العسكري والقوى المدنية (الحرية والتغيير – المجلس المركزي)، للتوصل إلى اتفاق يحلّ الأزمة السياسية في السودان حينها[44]. وقد أسهم هذا التباين في توليد تلك الثنائيات وانتشارها؛ وهذا يؤثر في مسار حرب نيسان/ أبريل بوقفها أو استمرارها.

2. ثنائية التسمية

إن أهم الثنائيات التي أنتجتها أو أعادت إنتاجها حرب نيسان/ أبريل، هي التعبيرات التي يستعملها الطرفان المتقاتلان والسودانيون عمومًا وغيرهم، لوصف أفراد كلا الطرفين ومجموعاتهما. فهي تعبيرات كثيرة حاولنا ذكر أهمها وأشهرها – ما أمكن – وذلك على النحو التالي.

أ. تسميات الدعم السريع

• "الجَنْجَويد": اسم ارتبط بقوات الدعم السريع، وهو اسمها الأول الذي أطلقه عليها سكان منطقة دارفور في غرب السودان، وهو الإقليم الذي ظهرت فيه تلك القوات. وسُمّوا "جنجويد"؛ لأن أفراد هذه المجموعات يمتطون الجياد ويحملون أسلحة رشاشة ويهجمون على القرى وينهبونها ويغتصبون نساءها ومن ثم يحرقونها، ويُطلق على الواحد منهم "جِني على ظهر جويد" تصغيرًا لجواد، وجمعهم "جِن على ظهور الجياد"، ومن هنا أُطلِق عليهم اسم "جَنْجَويد"[45]. وكانت هذه المفردة موجودة قبل حرب دارفور 2003، وكانت تعني عصابات النهب التي تنتمي إلى بعض القبائل العربية في دارفور.

• "الدعامَة": اسم أُطلِق على منتسبي قوات الدعم السريع؛ إذ كان اسمها الأول "جَنْجَويد"، ومن ثم تطوّر وأصبح "دَعامَة" نسبة واختصار لقوات الدعم السريع؛ وهو الاسم الذي أُطلِق عليها عند تأسيسها على يد الرئيس الأسبق البشير في عام 2013.

• "الأَشَاوِسْ": اسم يُطلَق على أفراد الدعم السريع أيضًا، أو أطلقه أفراد الدعم السريع على أنفسهم ومناصريهم، شاع بعد حرب نيسان/ أبريل. وقد اختيرَ استعماله نسبة إلى معناه في اللغة العربية؛ إذ كان يستعمل قديمًا عند العرب، ويعني الرجال الأبطال الذين لا يخافون الموت والذين يتميزون بالضراوة القاسية[46].

• "أَوْلَادْ أَبُوكْ": تعني ابن والده، وكان يستخدمها بعض القبائل العربية في دارفور لمخاطبة بعضهم كناية عن صلة الرحم والدم والقبيلة، وهي القبائل التي ينتمي إليها معظم أفراد الدعم السريع. وفي سياق حرب نيسان/ أبريل، أصبحت تعني أفراد الدعم السريع. مع احتفاظهم بمعناها الأصلي واستخدامها بينهم أيضًا إلى وقت إجراء الدراسة.

(44) عبد الرحيم.

(45) عبد الجليل سليمان، "من هم 'الجنجويد'؟"، درج، 2019/6/27، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/yx2e3v2b

(46) صالح الحارتي، "أزلام.. طحالب.. أشاوس"، **بوابة الوسط**، 2021/2/23، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/5c37k2fz

• "نَاسْ الشجَرَة": كناية عن أفراد الدعم السريع، وقد شاع هذا التركيب، بعد أن سألت مذيعة في إحدى القنوات الفضائية قائد قوات الدعم السريع، محمد حَمْدَان دَقَلو، عن مكان وجوده في أثناء حوار تلفزيوني فرد عليها "تحت الشجرة"، في إشارة منه إلى أنه لا يمكنه إخبارها بمكان وجوده الحقيقي لاعتبار هذا الأمر من الأسرار الميدانية له ولقواته. وقد زاد انتشار هذا التركيب، بعد أن استخدمه قائد القوات المسلحة السودانية، الفريق أول عبد الفتاح البُرهان، حين ظهر في شريط تلفزيوني في غرفة العمليات الخاصة بالقوات المسلحة السودانية، وهو يقول لقادته العسكريين متهكمًا: "ناس الشجرة بيسلموا عليكم"[47]. في إشارة منه إلى قوات الدعم السريع.

• "الكَدَمُول": هو الشخص التابع لقوات الدعم السريع أو المؤيّد لهم. وهو مأخوذ من اسم العمامة التي يرتديها أفراد الدعم السريع. والكَدَمُول هو عمامة تُلف حول الرأس، يبلغ طولها 100–200 سنتيمتر، ويعتبر اللونان الأخضر والبني رئيسَين فيها، إضافة إلى ألوان أخرى، وتُصنع من الأقمشة القطنية؛ لأنها باردة. وشكلها أقرب إلى العمامة السودانية شائعة الظهور، وتُلف حول الرأس والرقبة وتغطي الوجه ما عدا العينين منعًا للأتربة وجفاف الفم. والكَدَمُول لم تتميز به قبيلة محددة تاريخيًّا أو ثقافيًّا؛ فقد اشترك في ارتدائه سكان المناطق الجافة في السودان وغيره، سواء كانت عربية أو أفريقية[48]. ولكنه في وقت حرب نيسان/ أبريل ارتبط بقوات الدعم السريع، وأصبح رمزيًا لها وصارت تُعرَف به، حتى إن أحد الولاة منع لبسه في إحدى الولايات، غالبًا لأسباب أمنية وربما لأسباب أخرى.

• "شفشافة": اسم يُطلق على أفراد الدعم السريع ومن ينتمي إليهم، ويعني السارقين أو اللصوص. وجاءت التسمية من معنى كلمة "الشفشفة"، والتي كانت تعني قبل الحرب المعنى نفسه.

• "أولاد الضيف": تعبير يُسمّى به أفراد الدعم السريع ومناصروهم، ويعني أنهم أفراد ليس لديهم آباء أو نسب معروف، وهو معنى خاص بثقافة بعض القبائل التي ينتمي إليها أفراد الدعم السريع.

• "عرب الشتات": اسم يُطلق على أفراد الدعم السريع ومناصريهم في إشارة إلى العرب الذين يقطنون الصحراء الأفريقية، كناية عن عدم انتمائهم إلى وطن وأصولهم غير السودانية.

• "مقاطيع/ ملاقيط غرب أفريقيا": في إشارة إلى عرب صحراء غرب أفريقيا، كناية عن عدم انتماء أفراد الدعم السريع إلى السودان أو عدم وصفهم بأنهم سودانيون.

(47) الصائغ.

(48) فاطمة علي سعيد، "الكدمول.. ثقافة وافدة أم إرث محلي؟"، **الصيحة**، 2021/8/7، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/36u62n7w

ب. تسميات الجيش السوداني

• "الجياشَة": صفة مشتقة من "الجيش"، تُطلَق على أفراد الجيش السوداني.

• "الفُلُول": صفة تُطلق على مؤيدي نظام حكومة الرئيس السوداني الأسبق البشير. وجاء أصل التسمية من المعنى اللغوي لمفردة "فل"؛ أي انكسر وانهزم، باعتبار أن ما حدث للنظام السابق من ثورة كانون الأول/ ديسمبر السودانية هو هزيمة وانكسار[49]. ويُطلِق أفراد الدعم السريع ومناصروهم وأحيانًا غيرهم صفة "فلول" على كل من يقف إلى جانب الجيش ويؤيدهم، وحتى على أفراد الجيش أنفسهم في سياق حرب نيسان/ أبريل.

• "الكِيزَان": صفة مفردها "كُوز"، يطلقها أهل السودان عمومًا على المنتمين إلى الحركة الإسلامية، وتشمل الإخوان المسلمين في السودان. والكوز في معناه اللغوي هو إناء بعُرْوة من فخار أو غيره له "أذن" يشرب فيه أو يُصَبُّ منه. وبحسب الروايات، فقد أُطلِق على الإسلاميين السودانيين صفة الكوز؛ لأنهم كانوا يرددون مقولة "الدين بحر ونحن كيزانه". وفي رواية أخرى، فإن من أطلق عليهم هذه التسمية هم أنصار الرئيس السوداني الأسبق جعفر نميري أيام خلافهم مع الإسلاميين، حيث شبهوهم بـ"كوز اللوْرِي"، و"اللوْرِي": اسم عربة من نوع الشاحنات في السودان، و"كوز اللوْرِي" مصنوع من الألمنيوم عادة؛ لذا يصدر أصواتًا عالية للفت انتباه سكان القرى بأن اللوْرِي قادم. وذلك في دلالة على صوت الضوضاء الفارغ الذي يصدره ذاك الإناء. وهي الصفة التي اتصف بها أفراد ذاك النظام، بحسب تعبيرهم[50]. وقد امتدت التسمية لتشمل كل من ينتمي إلى ذاك النظام أو يؤيده. وقد اشتهر هذا التعبير كثيرًا في سياق حرب نيسان/ أبريل لدى قوات الدعم السريع تجاه كل من يعارضهم من مدنيين أو عسكر.

• "دولة 56": مصطلح أطلقه أفراد الدعم السريع على نظام الدولة السودانية الحالية بأنه نظام 1956؛ أي النظام الذي ورث الحكم بعد استقلال السودان في العام نفسه. وهو نظام دولة متّهَم بأنه حكرٌ للجماعات العربية المسلمة على النيل الأوسط المنفردة بالسلطة والثروة[51]. وهو تعبير يمثل مطلبًا لقوات الدعم السريع التي تقول إنها تريد تفكيك تلك الدولة وحلّها.

• "فَلَنْقَاي": اسم اشتهر وارتبط بالجيش السوداني ومؤيديه، ويعني الشخص المدني أو غير العسكري الذي جاء من منطقة مهمشة، لكنه يخدم أو يتبع السلطة أو العسكر (وغالبًا يقصد بهم أبناء دارفور من غير القبائل العربية الذين ينتمون إلى الجيش السوداني أو يؤيدونه). ويقال إن مفردة "الفلنقاي" يرجع تأريخها إلى زمن المهدية، وقد كانت تعني حينها الشخص الذي يتودد

(49) عبد الرحمن يوسف، "معنى الفلول"، **اليوم السابع**، 2011/7/12، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/3np3s3xx

(50) عمران سلمان، "'كيزان' السودان.. وزوال البلاء العظيم"، **الحرة**، 2019/4/19، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/pauzrvuj

(51) عبد الله علي إبراهيم، "دولة 56 والسردية الوطنية السودانية"، **إندبندنت عربية**، 2023/8/6، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/yc6hjrx9

إلى التاجر، أو الخليفة، أو العُمدة، أو أصحاب السلطة عمومًا. ويُقال إن أصلها "فَلَنْقَة"، وتعني الخدمة السخية التي يقوم بها الإنسان للغير من دون عائد مادي. وبلغة أهل دارفور "الفَلَنْقَايَات" أو "الفُلْقَانَه" هم (العبيد أو الخدَم) الذين يملكهم السلطان والذين يدينون له بالولاء والطاعة العمياء، فـ"الفلنقاي" قد يؤدي أدوارًا مختلفة باسم السلطة من دون التفكير في آثارها الأخلاقية والإنسانية[52].

• "أَبْلَدَة": شاع هذا الاسم في أثناء حرب نيسان/ أبريل، واستعمله أفراد قوات الدعم السريع ومناصروهم لوصف كل من يقف في صف القوات المسلحة السودانية. ويقصدون به الشخص الثقيل الفهم، القليل الذكاء.

3. ثنائية الرمز النسائي

إن من أهم الثنائيات التي أنتجتها أو أعادت إنتاجها حرب نيسان/ أبريل تلك التعبيرات التي يستعملها الطرفان المتقاتلان والسودانيون عمومًا وغيرهم لوصف المرأة في سياق الحرب؛ فهي إما أن تكون "أُم قُرُون" أو"كَنْدَاكَة".

أ. "أُم قُرُون"

تُطلق تسمية "أُم قُرُون" في الأساس على الحسناء ذات الضفائر المسدولة من قبائل الرزيقات السودانية الموجود أغلبها في غرب السودان، وغيرها من القبائل في المنطقة نفسها. و"أُم قُرُون" تمثل إرثًا ثقافيًّا في مجتمعات البادية؛ فهي فانوس مضيء للرجل في حياته، تشعل الحماسة في المجتمعات بمدحها للشجعاء وهجائها للجبناء، وهي حاضرة في التاريخ النضالي منذ تكوين الدولة السودانية[53]. وفي سياق حرب نيسان/ أبريل، أصبحت تعني المرأة التي تدعم قوات الدعم السريع أو تنتمي إليهم اجتماعيًّا أو إثنيًّا أو ثقافيًّا أو فكريًّا.

ب. "كَنْدَاكَة"

"كَنْدَاكَة" هو اسم زوجات الملوك، أو لقب الملكات النوبيات في الممالك السودانية القديمة من القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي. وتعني المرأة القوية. وقد ارتبطت التسمية تاريخيًّا في السودان بأشهر ملكتين؛ هما أماني رينا وأماني شاخيتو. وقد انتشر الاسم على نطاق واسع مع ثورة كانون الأول/ ديسمبر، وأصبح يُطلَق عمومًا على كل امرأة قوية مناهضة للظلم واللاعدالة الاجتماعية. وفي سياق حرب نيسان/ أبريل، يُطلق على من يُناصِرن القوات المسلحة السودانية في حربها ضد قوات الدعم السريع.

(52) سليمان مسار، "'الفلنقاي' وحالة اللاوعي"، **إسكاي سودان**، 2024/3/16، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/y7yycztd

(53) عبد الله عيسى كتر عابد، "أم قرون والكنداكة"، **الراكوبة**، 2024/1/24، شوهد في 2025/3/7، في: https://tinyurl.com/9s94nvzm

4. ثنائية "نحن وهُم"

أظهرت حرب نيسان/ أبريل ثنائية "نحن وهُم"، ممثلةً في خطاب قوات الدعم السريع وخطاب القوات المسلحة السودانية؛ حيث استخدم أفراد الدعم السريع ومناصروهم مفردات ثقافتهم في مقابل ثقافة اللهجة السودانية[54]. ويظهر لنا هذا الاختلاف في التعبير من خلال ملاحظتنا وتتبعنا لبعض حسابات وسائل التواصل الاجتماعي، حيث نرى أن بعض مفردات قبائل الدعم السريع وتعبيراتها قد طغت على خطاب حرب نيسان/ أبريل في وسائل التواصل الاجتماعي. وهي مفردات لم تكن تُستعمل من قبل في هذه الوسائل، نذكر منها:

- "طِقِيق": مفردة ظهرت في خطاب الدعم السريع، ثم استخدمها أفراد الطرفين لاحقًا. وتعني الضرب وتكرار الضرب للعدو[55].
- "جَري دَنْقَاس": تعبير يعني جري العدو مع انخفاض الرأس وانخفاض الظهر كناية عن الجبن والعار، ويستخدم في سياق حرب نيسان/ أبريل بمعنى الفرار من أرض المعركة والقتال[56].
- "عَرد": تعبير استخدم وانتشر في سياق حرب نيسان/ أبريل، ويعني الهرب والجري خوفًا وجُبنًا[57].

جدول يُلخّص مفردات وتعبيرات حرب نيسان/ أبريل

مفردات وتعبيرات مرتبطة بالجيش	مفردات وتعبيرات مرتبطة بالدعم السريع
"بَلْ بَسْ- البَلابِسَة" (دعاة الحرب)	"لازِم تَقِيف" (يجب وقف الحرب)
"جَغِم" (قتل)	"لا لِلحَرْب" (يجب وقف الحرب)
"دَبَلْ له" (زده)	"الأَشَاوِسْ" (الشجعاء)
"الجياشَة" (أفراد الجيش)	"الدعامَة" (أفراد قوات الدعم السريع)
"دولة 56" (السودان بعد استقلاله في عام 1956)	"نَاسْ الشجَرَة" (أصحاب الشجرة، وهُم الدعم السريع)
"أَبَلْدَة" (قليل الفهم)	"الجَنْجَويد" (أفراد الدعم السريع)

(54) نُشير هنا إلى أنه لا يوجد لهجة سودانية واحدة، فهناك مجموعة لهجات محلية. وعادة ما يُقصد باللهجة السودانية تلك اللهجة التي يتكلم بها سكان العاصمة والوسط والمثقفون من السودانيين.

(55) زول خبر، "#بل_جغم_فتك_متك_عرد# جري دنقاس ابلدة ام قاش"، زول خبر، يوتيوب، 2024/5/26، شوهد في 2025/6/25، في: https://tinyurl.com/5hyr4b5b

(56) المرجع نفسه.

(57) المرجع نفسه.

"الفُلُول" (باقي الجيش المهزوم)	"أَوْلَادْ أَبُوكْ" (أفراد الدعم السريع)
"الكِيزَان" (المؤتمر الوطني، الإسلاميون)	"الشَفشَافة" (اللصوص)
"فَلَنْقَاي" (من ينتمي إلى الجيش)	"الكَدَمُول" (عمامة للف الرأس)
"كَنْدَاكَة" (المرأة الثائرة)	"أُم قُرُون" (المرأة من قبائل أفراد الدعم السريع)
	"أولاد الضيف" (من ليس له نسب)
	"عَرَب الشتات" (ليسوا سودانيين)
	"مَقاطيع غَرب أفريقيا" (من ليس له نسَب ومكانه غرب أفريقيا)

المصدر: من إعداد الباحثتين، استنادًا إلى مدونة الدراسة التي أشرنا إليها في مقدمة الدراسة وهي: 50 صفحة/ مجموعة عامة تتبنى خطاب القوات المسلحة أو تدعمه، و50 صفحة/ مجموعة عامة تتبنى خطاب قوات الدعم السريع أو تدعمه.

ثالثًا: السلطة والتفاوت والعدالة في ثنائيات خطاب حرب نيسان/ أبريل

يُمثّل الجيش السوداني وقوات الدعم السريع طرفَي الصراع في حرب نيسان/ أبريل. ويرجع تأسيس الجيش السوداني إلى ما قبل مملكة كوش السودانية في عام 732 ق. م.، بينما يرجع تاريخه الحديث إلى إعلان استقلال السودان من الاستعمار الإنكليزي – المصري في 1 كانون الثاني/ يناير 1956، حين آلت الشؤون الدفاعية إلى قوة دفاع السودان التي تَغيَّر اسمها إلى الجيش السوداني في 31 كانون الثاني/ يناير 1956[58]. ومن هذا التاريخ، ظل الجيش حاضرًا في المشهد السياسي السوداني إلى 11 نيسان/ أبريل 2019؛ إذ ترأس الفريق أول أحمد عوض بن عوف، وزير الدفاع حينها، المجلس العسكري الانتقالي لحُكم السودان، بعد ثورة كانون الأول/ ديسمبر، ثم تلاه في المنصب نفسه البرهان في 12 نيسان/ أبريل 2019، والذي تولى لاحقًا السلطة كاملةً باعتباره السلطة العليا في البلاد[59].

أما قوات الدعم السريع، فيرجع ظهورها عام 2003، بعد تفجُّر صراعات بين الحكومة السودانية والحركات المسلحة في دارفور. وقد كان للدعم السريع (الذي كان مواليًا للحكومة حينها) دورٌ مؤثرٌ في العمليات القتالية التي جرت في المنطقة وحسم من خلالها علاقاته العدائية مع القبائل المسلحة (المتمردة على الجيش). ثم كانت نقطة التحول في تاريخه في عام 2013، حين أُعيدَت هيكلته باعتباره قوة نظامية منفصلة عن الجيش السوداني تحت قيادة البشير، تتفاعل، بناءً على قرارها الخاص، مع بعض الأحداث التي كان لها أثر في تعزيز وجودها محليًّا وصعودها إقليميًّا. ثم أعلن الدعم السريع

(58) عبد الرحمن الفكي، **تاريخ قوة دفاع السودان** (الخرطوم: الدار السودانية للكتب، 1971)، ص 67.

(59) "القوات المسلحة السودانية"، **تقرير**، مركز أبحاث غرب آسيا (6 تموز/ يوليو 2023)، ص 4.

انحيازه إلى ثورة كانون الأول/ ديسمبر، وساهم في إطاحة الرئيس البشير في نيسان/ أبريل 2019[60]؛ وهو الأساس الذي اعتبر بموجبه نفسه شريكًا في ذلك التحول. وبعد نهاية حُكم البشير دخَل السودان الفترة الانتقالية التي تشكلت قيادتها من مكون مدني مثّلته قوى الحرية والتغيير، ومكوّن عسكري تكوّن من شقين متنافسين؛ هما الجيش والدعم السريع. وعلى الرغم من توافق التحالف المدني والعسكري على تكوين حكومة انتقالية مدتها ثلاث سنوات[61]، استمر وضع التذبذب وعقد التحالفات وفكها وإعادة عقدها بين المكونات المدنية والعسكرية حتى 25 تشرين الأول/ أكتوبر 2021 حينما أطاح البرهان الحكومة المدنية برئاسة عبد الله حمدوك، وانفرد المكون العسكري بالسلطة[62]، وصولاً إلى اندلاع حرب نيسان/ أبريل.

1. ثنائية خطاب حرب نيسان/ أبريل حول السلطة

تقوم السلطة على ركائز لا يمكن أن تكون إلا بها، وتتجلى هذه الركائز في امتلاكنا الموارد الاجتماعية النادرة، مثل القوة والمال والعقار والمعرفة والمعلومات والمكانة، واللغة أو الخطاب. ويُعدّ الخطاب من أهم موارد السلطة في هذا العصر؛ لأن التحكم في الخطاب يعني التحكم في أذهان الناس وأيديولوجياتهم وممارساتهم الاجتماعية[63]. وبحسب ما عددناه من محتويات خطاب الحرب لدى طرفي النزاع المسلح، تمثلت لنا علاقات السلطة في خطاب حرب نيسان/ أبريل في استعمال مفردات وتعبيرات مثل: "فلول"، و"جياشة"، و"جنجويد"، و"أشاوس"، و"أولاد أبوك"، و"ناس الشجرة"، و"دعامة"؛ إذ يسعى كل فريق لتنميط نفسه بصورة محددة، وتنميط الآخر أيضًا. يصف أفراد الدعم أنفسهم بأنهم "أشاوس"؛ أي الرجال الأبطال الذين لا يخافون الموت والذين يتميزون بالضراوة القاسية والشجاعة، وغيرها من الأسماء التي عرفناها، وذلك في مقابل تعريف الآخر بأنه "فُلُول"؛ أي الذي "فلّ" وغاب بسبب هزيمته وانكساره، وغيرها من التسميات. ويحدث العكس أيضًا في الطرف المقابل، حيث يحاول أفراد الجيش تنميط أنفسهم بأنهم قوات مسلحة سودانية؛ وهو تنميط قائم على حقيقة أنهم فعلاً يُسمون بهذا الاسم، مقابل تنميط أفراد الدعم بأنهم متمردون؛ أي متمردون عليهم باعتبارهم قوات مسلحة سودانية شرعية.

بهذا التقابل، استُخدم الخطاب، في حرب نيسان/ أبريل، بوصفه عكسًا لعلاقات السلطة المادية، من حيث هي سلطة قائمة وشرعية في مواجهة سلطة صاعدة، متمردة عليها وساعية لإطاحتها. ليس مهمًّا

(60) البدوي عبد القادر البدوي، "قوات الدعم السريع السودانية: من ميليشيات إلى قوة نظامية (2003–2018)"، **تحليل استراتيجي**، رقم 6، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2021/8/17، ص 1–4، شوهد في 2025/6/23، في: https://tinyurl.com/vnwpbsb9

(61) حسن الحاج علي أحمد، "فترة انتقالية مضطربة: تحولات التحالف الهجين في السودان"، **عمران**، مج 12، العدد 47 (شتاء 2024)، ص 8.

(62) شيماء محي الدين، "الصراع في السودان: الأسباب والتداعيات والمآلات المستقبلية"، **مجلة الدراسات الإفريقية**، مج 46، العدد 1 (كانون الثاني/ يناير 2024)، ص 372.

(63) تون أ. فان دايك، **الأيديولوجيا والخطاب: مقدمة متعددة التخصصات**، ترجمة سعيد بكار ولحسن بوتكلاي (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023)، ص 51.

في هذا السياق تحديد من يمتلك الشرعية ومن هو خارج عنها، من خلال تحليل اللغة المستخدمة في تسمية أطراف الحرب. هذا من ناحية السلطة بوصفها سلطة سياسية مادية وفعلية، أما من ناحية السلطة الرمزية فكلا الطرفين سعى لاكتسابها، من خلال تعريف الآخر أو إعادة تعريفه بتسميات وتوصيفات وسرديات وتحديدات تضعِفه، وتسحب منه شرعية الوجود فيما يمنحها لذاته. وبذلك يتعامل الخطاب مع قضية السلطة عبر ثنائية الشرعية والتمرد، حيث يُصور أحد الأطراف على أنه الحامي للدولة والآخر على أنه مهدد لها من خلال تكوين خطاب سلطوي يؤكد التفوق الأخلاقي والسياسي لأحد أطراف النزاع، إضافة إلى استخدام الخطاب لاستراتيجيات أخرى مثل الإقصاء. وتُستمد شرعية الخطاب من وضع الحرب القائم نفسها بوصفها علاقة سُلطة؛ حيث تعتمد الأطراف المتحاربة على مفاهيم مثل الدفاع عن الوطن أو تحقيق الديمقراطية، في سعي لإضفاء طابع مشرف ونبيل على مواقفها في نظر مؤيديها لممارسة سلطتها عليهم. ويُستخدم الخطاب لإنتاج مفاهيم لصيقة بالحرب، من قبيل السيطرة والإخضاع والهزيمة والنصر أو إعادة إنتاجها، عبر خطابات التعبئة. وبكل هذه العناصر يندرج خطاب الحرب في بناء سرديات يُنتجها الفاعلون في الحرب، لتبرير سياساتهم وسعيهم للحفاظ على السلطة أو الاستيلاء عليها.

2. ثنائية خطاب حرب نيسان/ أبريل حول الأيديولوجيا

في سياق خطاب حرب نيسان/ أبريل، تقوم ثنائية مواصلة الحرب أو إيقافها على أيديولوجية متكاملة تؤجج الصراع وتمثل وقودًا لاستمرار الحرب. وقد أشار أحمد إبراهيم أبو شوك في هذا الصدد إلى أن ثنائية "لا للحرب" و"نعم للحرب" تندرج ضمن ثنائية أعم هي ثنائية "نحن وهُم"؛ تلك الثنائية الإقصائية التي يتوزع وفقًا لها قاموس السياسة السودانية.

ينقسم مؤيدو "نعم للحرب" إلى ثلاث مجموعات؛ تعتقد المجموعة الأولى أن الحرب ستقضي على قوات الدعم السريع. وتعتقد المجموعة الثانية أن استمرار الحرب سوف ينهي سيطرة النخبة النيلية المسيطرة على مقاليد السلطة والثروة منذ استقلال السودان في عام 1956. أما المجموعة الثالثة، فترى في قوات الدعم السريع مصدرًا للشر، وهي تتكون من الغاضبين على قوات الدعم السريع التي أخرجتهم عنوة من ديارهم. أما المنادون بإيقاف الحرب فهم أيضًا ثلاث مجموعات؛ تعتقد المجموعة الأولى أن ذلك الإيقاف قد يعيد الوضع السياسي إلى ما قبل 15 نيسان/ أبريل. وأما المجموعة الثانية، فهي مجموعة النضال المسلح التي وقّعت سلام جوبا في عام 2020. بينما تحاول المجموعة الثالثة أن تضع مشروعًا سياسيًّا مكملاً لمشروع مالك عقار الذي يستند إلى مرتكزات، منها ضرورة مخاطبة الأسباب التي أدت إلى اندلاع الحرب، وغيرها من المرتكزات[64].

بذلك يُستخدم خطاب حرب نيسان/ أبريل لاستقطاب الأنصار والمؤيدين وإضفاء الشرعية على الأفكار المصورة للحرب، سواء أكانت تعتبرها واجبة الاستمرار أم واجبة الإيقاف، بحيث يكون ذلك

(64) أحمد إبراهيم أبو شوك، "لا للحرب في السودان: الرأي والرأي الآخر"، **سودانايل**، 2023/6/3، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/3ma9f88y

التصوير من أسس تبرير ممارسات الأطراف المتنازعة. ففي بعض عناوين الخطاب، مثل "بل بس"، والذي تبنّته أغلب الفئات المساندة للجيش مثلاً، دعوة مباشرة إلى استمرار الحرب والقتال حتى القضاء على الخصم، بينما يمثل خطاب "لا للحرب" محاولة لتفكيك ذلك المنطق الحربي لـ"بل بس". إن المنطق التبريري الذي يقوم عليه الخطاب الأيديولوجي، سواء أكان في علاقة بالحرب أم لا، هو الذي يفسر مسعى كل طرف لفرض رؤيته ومعتقداته ووجهة نظره وإسكات الأصوات المعارضة داخل معسكره وخارجه في الآن نفسه. ومهما كانت مفردات ذلك الخطاب بسيطة، فإنها في تجانسها وامتداداها وربطها التفاصيل بعضها ببعض تؤدي إلى تعزيز تصورات محددة عن الهوية والانتماء الوطني؛ ومن ثمّ، تبرير الحرب وأسباب استمرارها أو تبرير الدعوة إلى إيقافها. وفي الأمثلة التي استعرضناها، ادعى أنصار الجيش السوداني أنهم يدافعون عن الدولة الوطنية السودانية ضد الميليشيات المتمردة، بينما يروّج أفراد الدعم السريع لخطاب تفكيك "دولة 56"، في إشارة إلى ضرورة إعادة هيكلة الدولة السودانية التي يصفونها بأنها منحازة إلى مصلحة نُخب معينة. ومن مفردات هذه الثنائية الأيديولوجية المؤسسة لبنية خطاب الحرب الديمقراطية والعدالة والوطنية وغيرها. ويرى أغلب مؤيدي قوات الدعم السريع أن النزاع المسلح وسيلة لتحقيق عدالة تاريخية ضد تهميش بعض المناطق والقبائل والمظالم التي تعرضت لها، بينما يرى مؤيدو القوات المسلحة أن حرب الدعم السريع على الجيش محاولة غير شرعية قانونيًّا ولا مشروعة سياسيًّا للاستيلاء على السلطة والدولة بقوة السلاح. وفي الحالتين، يشتغل الخطاب بمنطق تبرير الحرب وشرعنتها أو العكس، ولكن في محاولة متقاسمة من طرفي النزاع لترسيخ التجييش الأيديولوجي حول كل طرف، بإنتاج تعبيرات جديدة أو إعادة إنتاج تعبيرات سابقة مأخوذة من سياقات سياسية واجتماعية واقتصادية تاريخية، تعزز الانتماء الجمعي إما إلى الشرعية السياسية للسلطة القائمة أو إلى المظلومية المناوئة لها، من خلال تقديمها بوصفها امتدادًا لنضالات سابقة.

3. ثنائية خطاب حرب نيسان/ أبريل حول العنصرية واللاعدالة الاجتماعية

يتميز النظام الاجتماعي السوداني بتاريخية معقدة للامساواة الاجتماعية، لا تزال مستمرة إلى الآن، وتقوم على تهميش الفقراء وأبناء الطبقات الشعبية، وأبناء الأقليات العرقية والإثنية، وإقصائهم من مساحات تقسيم الثروة والسلطة والمشاركة الاجتماعية، والمساواة الثقافية. فعلى مستوى اللامساواة الاجتماعية العامة بين الأعراق، يمكن أن تكون العنصرية ضمنية، وقد تتجلى في تفاصيل التفاعل اليومي، ولكنها تؤثر تأثيرًا قويًّا وعميقًا في بناء المواقف الاجتماعية وإعادة بنائها وتأكيدها في مجالات الحياة جميعها، خاصة تلك التي تتميز بتعدد المشاركين فيها وتنوعهم العرقي في السودان. أما على مستوى الخطاب، فتتمظهر العلاقات العنصرية في استعمال مفردات وتعبيرات مثل: "الكدمول"، و"الفلنقاي"، و"الأبُلدة". ومن خلال هذه الأمثلة، يتبين لنا أن ممارسة اللغة الخطابية، بوصفها ممارسة ثنائية، تقف على أرضية عنصرية صلبة من جهة، وتعيد ترسيخها من جهة أخرى. وتقوم صلابة تلك الأرضية على ثارات تاريخية معقدة، أشرنا إلى بنائها وإعادة بنائها منذ ما قبل الحقبة الاستعمارية من تاريخ السودان الحديث، مستخدمة ثقافة عنصرية متكاملة. وفي هذا الصدد يشير فان دايك إلى أن

في البُنى اللغوية تمثيلات للبُنى العنصرية القائمة فعلاً، وأنها تشتغل على مستوى المعنى من خلال المفردات وعلى اعتبار بناء ذلك المعنى فعلاً يتم في سياقات تاريخية واجتماعية معينة؛ لأن الإنسان لا يولد بتمثلات أو مواقف أو آراء عنصرية، بل يتعلمها من خلال التلقين الذي تُستخدَم فيه لغة مجتمعه التي تُعتبَر من أهم الأنظمة الرمزية المعبرة عن العنصرية والمبلغة عنها والبانية لها في الوقت نفسه[65].

إن كلمة "الكدمول"، مثلاً، التي استُعيدت من التراث الشفوي السوداني، ليُوصف بها أفراد الدعم السريع ومن يناصرهم بصورة عامة، هي اسم لباس لسكان المناطق الصحراوية الجافة التي تقع على الشريط الصحراوي شمال السودان وغربه مرورًا بتشاد والنيجر وجنوب المغرب ومالي. وهو لباس متناسب مع مناخ تلك المناطق وخصائص طبيعتها البيئية من ارتفاع لدرجة الحرارة، وحضور دائم تقريبًا للغبار وأتربة العواصف الرملية، وهذه الخصائص هي التي تستدعي ارتداءه لإخفاء معظم أجزاء الوجه وتغطية ملامحه. وهذا اللباس موجود ومُنتشر منذ ما قبل ظهور الحركات المسلحة. وتفيد كل هذه المعطيات أن "الكدمول" موروث ثقافي اجتماعي متناسب مع البيئة الصحراوية التي ظهر فيها وانتشر. ولكن إعادة صوغ دلالاته بحيث تصير ثقافية في معنى الأيديولوجيا العنصرية جعلت منه لباسًا غريبًا؛ إذ دخل إلى السودان عبر دارفور، عن طريق أفراد حركة العدل والمساواة الذين كانوا أول من استخدمه، وهو يخفي ملامح مسلحين لا يريدون أن يُعرفوا، ويُعدّ مكوّنًا من مكونات استراتيجية قتالية كما اشتهر في حرب نيسان/ أبريل[66]. ومن خلال هذه الممارسة الخطابية الموجهة أيديولوجيًّا، لم يعد "الكدمول" مكوّنًا من مكونات ثقافات مجموعات عرقية ما، فقد تحول إلى علامة رمزية أو أيقونة عنصرية.

وتشتغل تعبيرات عنصرية أخرى ضمن خطاب حرب نيسان/ أبريل كالمنطق والآلية التحويلية، حيث تشير تسميات من قبيل "فلنقايات"، و"أبُلدة"، و"عرب الشتات" إلى أفراد وجماعات بناءً على انتماءاتهم الإثنية والمناطقية. وتتأكد الفعالية العنصرية لمثل هذه التسميات في الحالات التي يُظهر خطاب الحرب فيها كيفية تداخل استغلال الهويات العرقية مع استغلال الهويات الإثنية، بوصفها أداة للحرب تجعل التمييزين العنصري والإثني مترسخين وقابلين باستمرار للاستدعاء في بناء الصور النمطية لتبرير اضطهاد من تصورِهُم عنصريًّا والسيطرة عليهم.

وبذلك يعيد خطاب الحرب إنتاج العبارات والتمثيلات والاستعارات العنصرية، بحيث يعيد إنتاج الصور النمطية لمن يُقدَّمون على أنهم لا يستحقون العدالة الاجتماعية. وبذلك يكون إنتاج الفوارق الاجتماعية وإعادة إنتاجها على أساس التمييز العنصري والإثني غير العادل، نوعًا من المقدمة لتبرير شيطنة جماعة أو جماعات بعينها، وإقصائها، وحرمان من يُقدَّمون على أنهم من الفئات الأقل شأنًا من المشاركة الاجتماعية باعتبارهم غير جديرين بها، ومن المشاركة السياسية باعتبارهم غير مؤهلين

(65) المرجع نفسه.

(66) سعيد.

للقيادة. وبهذه المحتويات ذات الآثار الاجتماعية والسياسية والثقافية، يمثل خطاب الحرب رابطًا قويًّا بين العنصرية واللاعدالة الاجتماعية، بحيث تكون له أدوارٌ محورية في تأجيج النزاعات وترسيخ مسبباتها، واستمرار الحرب، واستشراء العنف القتالي المنظم بين المجموعات؛ أي استمرار عدم استقرار السودان إلى آماد طويلة أخرى.

إن وقوفنا على توظيف ظاهرة ثقافية توظيفًا خطابيًّا، كالتوظيف الذي أشرنا إليه، يحقق الافتراض الذي صغناه عن طبيعة العلاقة بين الخطاب وحرب نيسان/ أبريل بأنها علاقة تأثير وتأثّر، فقد أثرت الحرب في اللغة من خلال توليد مفردات وتعبيرات عنصرية مضلِّلة تاريخيًّا وغير عادلة سياسيًّا وغير منصفة اجتماعيًّا للثنائيات المتقاتلة بحيث صارت تلك اللغة نفسها موْرِدًا من موارد استمرار الحرب، دفاعًا عن معتقدات يقدمها على الغالب طرفا النزاع، تحت عنوان تحقيق العدالة الاجتماعية، وتنازع الحق فيها وشرعية المطالبة بها.

4. ثنائية خطاب حرب نيسان/ أبريل حول العلاقات الجندرية

تبدو البنية الثنائية المتقابلة التي تتكون من "الكنداكة" و"أم قرون" مثيرة للاهتمام والتأمل. هناك من يرى إمكانية قراءة الاعتماد على التاريخ النوبي في تعميم مفردة "كنداكة" وصفًا للمرأة السودانية وعدم فعل الأمر نفسه مع مفردات مثل "أم قرون" و"مِيرَم"، على أنها تعميم يحتفي بمجتمع احتكر السلطة في السودان منذ استقلاله، متناقضًا مع الانتقادات التي أثارتها احتجاجات ثورة كانون الأول/ ديسمبر التي ذاع فيها هذا التعبير[67]. إن ذلك الاستعمال الخطابي تنميط ثقافي ذو مرتكزات أنثروبولوجية تبجل ثقافة بقعة جغرافية محددة من مجمل السودان، وتسقط ثقافات سودانية أخرى، وهذا دليل على سيطرة عقل نخبوي مركزي على أدوات المعرفة الاجتماعية والتاريخية بمكونات السودان الثقافية، من منظور جندري[68].

ظهرت مفردة "الكنداكة" في أثناء ثورة كانون الأول/ ديسمبر، وكان سياق ظهورها سياقًا قوميًّا جامعًا، بحيث لم يكن محتملاً أن ينتج اعتراضًا عليها. أما تسمية "أم قرون"، فقد ظهرت في سياق حرب نيسان/ أبريل، وهو سياق قبَلي، تنتفي فيه القومية لمصلحة القبيلة. ولذلك، لا يمكن أن نجادل في منطق إنتاج الخطاب الجندري في سياق حرب نيسان/ أبريل، باعتماد سياقي ظهور التسميتَين وما صاحبهما من تأييد أو خلاف، بل على أساس سؤال: كيف اختيرت المرأة الرمز في الحالتين؟ ففي سياق الثورة، كان اختيار مفردة "كنداكة" من دون غيرها من المفردات – على كثرتها – لأنها تضمن وصف المرأة السودانية القوية الثائرة، وتسميتها على أساس معنى المفردة المستعملة. وفي المقابل، كان ظهور تسمية "أم قرون" واستعمالها من أفراد قوات الدعم السريع ومناصريهم وغيرهم من السودانيين خلال الحرب على أساس أن تلك المفردة تعني المرأة التي تنتمي إلى القبائل العربية

(67) عماد البليك، "ماذا تعني 'كنداكة' أيقونة المرأة في احتجاجات السودان؟"، **العربية**، 2019/4/17، شوهد في 2024/4/20، في: https://tinyurl.com/2xtsntkf

(68) عابد.

التي تقطن غرب السودان، التي لها أيضًا من القوة ما يبرر استعمال التسمية. وليس في اختيار هاتين التسميتَين ولا في السياقَين خلاف إذًا، بما أنهما تشيران إلى القوة الرمزية للنساء وأن استعمالهما كان في خضم الحرب.

ولذلك فإن انعدام الخلاف، يعني أن خطاب الحرب الجندري يقوم على ثنائية لا تقيم في الحقيقة للنساء وزنًا. كما يعني أن الصراع التاريخي الضارب في القدم يوظف الثقافة لخدمة أهداف تصوير الحرب من منظور ثقافي ورمزي ليبدو صراعًا ثقافيًا في مظهره. وفي هذا الصراع المرير، نلمس في الخطاب الحربي الجندري إنتاج صور النساء ومنازلهن وأدوارهن و/ أو إعادة إنتاجها خلال الحرب وفقًا لأطر ثقافية وأيديولوجية محددة، حيث يُعاملن بتمجيدهن رمزيًا وتهميشهن فعليًّا. وليست تلك القوالب إلا القوالب التقليدية ذاتها التي تقيّد مشاركتهن وتمنع تحررهن الفعلي، وتبقيهن في أوضاع تحمل آثار الحرب من جوع وتشرد وتهجير وعنف اقتصادي وحربي ذي أساس جندري، وتحمُّل المسؤولية العائلية بمفردهن والتعرض للاغتصاب والتحرش والاستعباد والاستغلال الجنسي، إضافة إلى انقطاع الفتيات عن الدراسة[69].

خاتمة

من خلال خطاب حرب نيسان/ أبريل 2023، تبيّنت لنا حلقة أخرى في تاريخ الحروب والنزاعات والانقلابات في السودان. وتكشّفت لنا جملة من السياقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي في إطارها تدور رحى الحرب وينتج خطابها ويروَّج. وقد وظّف خطاب الحرب واقع التعدد العرقي والتنوع الثقافي والاختلاف الإثني الموجود في السودان توظيفًا سياسيًّا وأيديولوجيًّا يجيّش للحرب ويوفّر لها الموارد، لا المادية فحسب، بل الرمزية أيضًا من خلال اللغة. وقد كان تركيزنا في التحليل على قضايا السلطة وتوزيعها وممارستها وبناء/ نزع شرعيتها، وقضايا العنصرية والتعدد العرقي وترسيخه واستدامته واستثماره للتهميش والإقصاء والاستبعاد، وقضايا اللاعدالة الاجتماعية في المشاركة الاجتماعية والسياسية وعدم توفير أسس المساواة بين القبائل والطبقات والمناطق والمجموعات الإثنية، وقضايا الأيديولوجيا وتوظيفها لتجانس المجموعات والجماعات الاجتماعية في بناء الهويات والسرديات والمطالبات بالتقاسم والاعتراف، وقضايا الجندر في علاقة بتحديد أدوار النساء ومنازلهن واستغلالهن رمزيًّا مع الإبقاء واقعًا على هامشيتهن وتعريضهن للاستغلال بأنواعه. وبذلك كان انتقال الحرب السودانية إلى الخرطوم، من خلال حرب نيسان/ أبريل، مناسبة أخرى لاختبار ما يمكن اعتباره قاعدة العلاقة بين الحرب والخطاب تأثيرًا وتأثرًا في الاتجاهين. ولم يكن الخطاب في النماذج التي سجلناها وحللناها مجرد أسلوب لنقل المعلومات عن الحرب أو طريقة لعكس صورتها فقط؛ بل تبين لنا أيضًا أنه جزء من بنيتها العميقة، يحدد من هو الطرف الظالم، ومن هو الطرف المظلوم، وما القضية العادلة والقضية غير العادلة، ومن يمتلك الشرعية ومن لا يحق

(69) Amal Bourhrous et al., "Through Their Eyes, Experiences of Displaced Sudanese Women and Girls in Eastern Chad," Stockholm International Peace Research Institute, SIPRI (March 2025).

له ذلك؛ ومن ثم إعادة إنتاج البنية الثنائية المتقاتلة بين طرفي النزاع، واستمرار الحرب بينهما وزيادة طول أمدها وتجديد فرص انتقالها من موضع إلى آخر و/ أو من صيغة إلى أخرى.

اعتمدت الدراسة على أدوات الإثنوغرافيا الرقمية والتحليل النقدي للخطاب، بناءً على إطار نظري لفهم التفاعل الخطابي الرقمي في سياق حرب نيسان/ أبريل. وعلى الرغم من أهمية النتائج التي تولدت من هذه الأدوات، فقد تبين لنا أن لهما حدودًا؛ إذ لم نستطع الجزم بمدى تأثير خطاب الحرب في التفاعلات بين المتصارعين على أرض الواقع، ولم نستطع التأكد ممّا إذا كانت بعض هذه الخطابات ناتجة أو غير ناتجة من حملات منظمة تشنها مجموعات مهيكلة أو من مبادرات فردية تحركها دوافع شخصية ومنافع ذاتية غير مرتبطة مباشرة بسياق جماعي قابل للتحديد. وقد ركّز التحليل النقدي للخطاب على كشف العلاقات القائمة أو التي يمكن أن تقوم بين السلطة واللاعدالة الاجتماعية وغيرها من القضايا في النصوص، لكنه لم يوفر لنا – على نحوٍ حاسم وواضح – أدوات كافية لفهم الأبعاد النفسية والسلوكية لمن ينتجون خطاب الحرب أو يعيدون إنتاجه أو يتبنونه ويروجونه. يضاف إلى ذلك أننا لم نتناول دور وسائل الإعلام التقليدية (القنوات والإذاعات الفضائية والتلفزيونية ... إلخ) في إنتاج خطاب الحرب أو إعادة إنتاجه أو تبنيه وترويجه، وهو ما يحتاج إلى دراسات منفصلة.

وبالإقرار بهذه الحدود المنهجية والتحليلية التي كانت لدراستنا، يمكن القول إنها قد فتحت مجالاً لأسئلة جديدة جديرة بالطرح والبحث منها: كيف يتفاعل الخطاب الحربي الرقمي في وسائل التواصل الاجتماعي مع الخطاب الحربي التقليدي في القنوات التلفزيونية والفضائية وغيرها؟ وهل يمكن أن يواجه خطاب الحرب، سواء أكان رقميًا أم بوسائل تقليدية بخطاب اللاحرب؟ وما تأثير الخطاب الحربي في النسيج الاجتماعي المتعدد والمتنوع في فترة ما بعد انتهاء الحرب؟

المراجع References

العربية

أبو شوك، أحمد إبراهيم. "تجمّع المهنيين السودانيين وسؤال التنظيم والقيادة في الثورة السودانية (2018–2019)". **عمران**. مج 12، العدد 48 (ربيع 2024).

أحمد، حسن الحاج علي. "فترة انتقالية مضطربة: تحولات التحالف الهجين في السودان". **عمران**. مج 12، العدد 47 (شتاء 2024).

البدوي، البدوي عبد القادر. "قوات الدعم السريع السودانية: من ميليشيات إلى قوة نظامية (2003–2018)". **تحليل استراتيجي**. رقم 6. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. 2021/8/17. في: https://tinyurl.com/vnwpbsb9

بصيص، الطاهر وعبد الرحمان قدي. "الإثنوغرافيا الافتراضية واستخداماتها في دراسات الوسائط الجديدة". **الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية**. مج 7، العدد 4 (حزيران/ يونيو 2022).

جيئزاوي، رجاء. "الحركات الاحتجاجية الشبكية في المغرب: الفضاء الرقمي مجالاً لتشكيل الخطاب المطلبي للهامش". **عمران**. مج 12، العدد 47 (شتاء 2024).

العشيري، محمود. "الاستعارة؛ استراتيجية حرب: دراسة في لغة الخطاب السياسي للحرب على لبنان (تموز/ يوليو 2006)". **مجلة كلية دار العلوم – جامعة القاهرة**. العدد 55 (2013).

عمارة، محمد محمد علي. "تحليل خطاب الحرب الروسية الأوكرانية في مواقع الصحف المصرية الخاصة: دراسة تحليلية". **المجلة المصرية لبحوث الرأي العام**. مج 22، العدد 2 (نيسان/ أبريل– حزيران/ يونيو 2023).

فان دايك، تون أ. **الأيديولوجيا والخطاب: مقدمة متعددة التخصصات**. ترجمة سعيد بكار ولحسن بوتكلاي. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023.

الفكي، عبد الرحمن. **تاريخ قوة دفاع السودان**. الخرطوم: الدار السودانيّة للكتب، 1971.

قريدي، ليلى. "مفهوم الجندر وإشكالية الترجمة". **مجلة التمكين الاجتماعي**. مج 2، العدد 4 (كانون الأول/ ديسمبر 2020).

"القوات المسلحة السودانية". **تقرير**. مركز أبحاث غرب آسيا (6 تموز/ يوليو 2023).

محي الدين، شيماء. "الصراع في السودان: الأسباب والتداعيات والمآلات المستقبلية". **مجلة الدراسات الإفريقية**. مج 46، العدد 1 (كانون الثاني/ يناير 2024).

المسدي، عبد السلام. **اللغة والهوية في الوطن العربي**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013.

الأجنبية

Abu Hasabu, Afaf. *Factional Conflict in the Sudanese Nationalist Movement 1918–1948*. Khartoum: The Graduate College University of Khartoum, 1985.

Agha, Asif. *Language and Social Relations*. Cambridge: Cambridge University Press, 2007.

Blackburn, Robert M. Jennifer Jarman & Bradley Brook. "The Puzzle of Gender Segregation and Inequality: A Cross–National Analysis." *European Sociological Review*. vol. 16, no. 2 (2000).

Bourhrous, Amal et al. "Through Their Eyes, Experiences of Displaced Sudanese Women and Girls in Eastern Chad." Stockholm International Peace Research Institute. SIPRI (March 2025).

Chiluwa, Innocent. *Discourse Analysis and Conflict Studies*. Thousand Oaks: SAGE Publications, 2019.

Cicourel, Aaron V. "Language as a Variable in Social Research." *Sociological Focus*. vol. 3, no. 2 (Winter 1969–1970).

Defranza, David. Himanshu Mishra & Arul Mishra. "How Language Shapes Prejudice Against Women: An Examination Across 45 World Languages." *Journal of Personality and Social Psychology*. vol. 119, no. 1 (February 2020).

Drid, Thouria. "Discourse Analysis: Key Concepts and Perspectives." *Al–Athar*. vol. 9 (May 2010).

Emike, John. Joel Iyiola & Ofeh Augustine. "Language in Conflict Resolution in Africa: The Discourse Strategies." *American Research Journal of English and Literature*. vol. 3, no. 1 (2017).

Fairclough, Norman. *Language and power*. New York: Longman, 1989.

Fasold, Ralph W. (ed.). *An Introduction to Language and Linguistics*. Cambridge: Cambridge University Press, 2006.

Foucault, Michel. *The History of Sexuality*. vol. 1: *An Introduction, English Translation*. New York: Random, 1978.

Gygax, PM et al. "A Language Index of Grammatical Gender Dimensions to Study the Impact of Grammatical Gender on the Way We Perceive Women and Men." *Frontiers Psychology*. vol. 10 (2019).

Hassen, Rukya. "Discourse as Medium of Knowledge: Transmission of Knowledge by Transmission of Discourse People Live." *Journal of Education and Practice*. vol. 6, no. 31 (2015).

Irvine, Judith T. & Susan Gal. "Language Ideology and Linguistic Differentiation." *Regimes of language: Ideology, Politics and Identities*. vol. 81 (2000).

Jahan, Israt. "The Impact of Gendered Language on Our Communication and Perception Across Contexts and Domains." *Journal of Language and Linguistic Studies*. vol. 17, no. 4 (2021).

Mafu, Lucas. "Discourse Structures, Weaponization of Language and Ethiopia's Civil War." *Sage Open*. vol. 14, no. 3 (2024).

Reid, Scott A. & Sik Hung Ng. "Language, Power, and Intergroup Relations." *Journal of Social Issues*. vol. 55, no. 1 (1999).

Stanfield, John Hans. *Rethinking Race and Ethnicity in Research Methods*. London, Routledge, 2011.

Tracy, Karen (ed.). *The International Encyclopedia of Language and Social Interaction*. vol. 1: A–D. Wiley Blackwell, 2015.

Van Dijk, Teun Adrianus. *Discourse and Power*. New York: Palgrave Macmillan, 2008.

_____. *The Handbook of Discourse Analysis*. West Sussex: John Wiley & Sons Inc, 2015.

صدر حديثًا

تقديم
عزمي بشارة

الجينوسايد أو جريمة الجرائم

مجريات محاكمة إسرائيل في لاهاي

يضمّ الكتاب بين دفّتيه الوثائق الأساسية في الدعوى التي رفعتها جمهورية جنوب أفريقيا ضد إسرائيل أمام محكمة العدل الدولية في لاهاي، وطلبت فيها تطبيق اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها في قطاع غزة، وبينت فيها أن جريمة الإبادة الجماعية تنطبق على الحرب التي تشنّها إسرائيل على القطاع منذ 8 تشرين الأول/ أكتوبر 2023. وقد توخّى الكتاب ترجمة جميع الوثائق التي قُدِّمت إلى المحكمة، بما فيها لائحة الاتهام ومرافعات الفريق القانوني لجمهورية جنوب أفريقيا، إضافة إلى مرافعة فريق إسرائيل القانوني أمام المحكمة لرد الدعوى، فضلاً عن الأوامر التي أصدرتها المحكمة في الدعوى، وملف الأدلة الذي رفعته جنوب أفريقيا إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، والذي يوثق ويثبت نية إسرائيل ارتكاب جريمة إبادة جماعية ضد الفلسطينيين في غزة، وتحريضها على القيام بذلك، وتتضمن ردًّا تفصيليًّا وتفنيدًا لما جاء في مرافعة إسرائيل أمام محكمة العدل الدولية.

ترجم هذه النصوص فريق من باحثي المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، وراجعها عزمي بشارة، واضعًا لها مقدمة نظرية تناول فيها تجريم الإبادة الجماعية (الجينوسايد) في القانون الدولي، وإشكالية إثبات وجود نية الإبادة، محلِّلاً دعوى جنوب أفريقيا ضد إسرائيل وأمر المحكمة بشأنها، وموجهًا نقدًا شديدًا إلى مقاربة إسرائيل للهولوكوست وتحويلها إلى وسيلة لاحتكار دور الضحية واتهام منتقديها باللاسامية، وكذلك انحياز مؤسسات أكاديمية متخصصة في الهولوكوست والإبادة الجماعية تعاملت مع جرائم إسرائيل بوصفها "دفاعًا عن النفس"، على الرغم من الأدلة التي ساقتها جنوب أفريقيا.

تقارير
Reports

جوار النافذة، 135×115 سم، مواد مختلطة على قماش (2025).
By the window, 135x115 cm, mixed media on canvas (2025).

المعرّف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/DDMU4071

صلاح الدين العجلة | Salaheldean Elegla*

تداعيات العدوان الإسرائيلي على الاقتصاد الفلسطيني في قطاع غزة وتحديات التعافي الاقتصادي

The Impact of the Israeli War on the Palestinian Economy in the Gaza Strip: The Challenges of Economic Recovery

ملخص: يهدف التقرير إلى الوقوف على تأثير الحرب الإسرائيلية في النشاط الاقتصادي في قطاع غزة. ويستخدم عدة مؤشرات؛ منها: حجم الدمار بحسب عدد الهجمات العسكرية، وحجم خسائر القطاع الاقتصادي، وتراجع الناتج المحلي، والمساهمة القطاعية في تكوينه، إضافة إلى معدلات البطالة، والفقر، وتطور معدلات انعدام الأمن الغذائي لكل الفئات، وتراجع القوة الشرائية، والارتفاع الكبير في الأسعار. ويستعرض التقرير مفهوم التعافي الاقتصادي وطبيعته ومؤشراته والتحديات التي تواجهه، إضافة إلى تحديات إعادة الإعمار. ويقدم نبذة عن طبيعة التدخلات المطلوبة لتحقيق التعافي الاقتصادي، ثم يقترح عددًا من التوصيات ذات العلاقة.

كلمات مفتاحية: الاقتصاد الفلسطيني، قطاع غزة، آثار الحرب، النشاط الاقتصادي، التعافي الاقتصادي.

Abstract: This report examines the impact of the Israeli war on the economy in Gaza the challenges facing economic recovery. It identifies the impact of the aggression on economic activity according to indicators such as the scope of destruction based on the number of military offensives, the extent of economic sector losses, and decline in GDP and its makeup by sector. It also considers rates of unemployment, poverty, and food insecurity and the significant rise in prices. In the second part, the report reviews the concept of economic recovery, its indicators, and the challenges facing recovery and reconstruction. Finally, the report provides an overview of the interventions required to achieve economic recovery, then presents a number of relevant recommendations.

Keywords: Palestinian Economy, Gaza Strip, Effects of War, Economic Activity, Economic Recovery.

* طالب دكتوراه في برنامج اقتصاديات التنمية بمعهد الدوحة للدراسات العليا.

PhD Student in Development Economics at the Doha Institute for Graduate Studies.

Email: sel010@dohainstitute.edu.qa

مقدمة

يُعدُّ العدوان الإسرائيلي، الذي بدأ في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، الأوسع والأشد فتكًا وخطرًا على مجمل الحياة في قطاع غزة خلال نصف قرن. ونتيجة لذلك، تعرض الاقتصاد الفلسطيني في القطاع لأكبر صدمة اقتصادية واجتماعية في تاريخه. ولعل أفدح الخسائر التي مُني بها الشعب الفلسطيني تتمثل في الأعداد الفائقة من الشهداء في سياق المقتلة الاستعمارية التي تحدث منذ 7 تشرين الأول/ أكتوبر، فقد بلغ عدد الشهداء 56 ألف[1]؛ 32 في المئة منهم من الأطفال، و22 في المئة منهم نساء، و7 في المئة منهم مسنون، و4 في المئة من الطواقم الطبية والتعليمية، وغيرها من الفئات[2].

ترافق ذلك مع تدمير واسع النطاق زمانيًا ومكانيًا لأشكال الحياة كافة؛ فقد دُمّرت المباني السكنية، والبنى التحتية، والمؤسسات الاقتصادية، والتعليمية، والصحية، والبيئية. وبلغ عدد المباني المدمرة 330500 مبنى؛ دُمّر 21 في المئة منها كليًا. يشهد هذا العدد على حجم الدمار والضرر الذي لحق بالحياة في القطاع، فضلاً عن الشلل الذي أصاب الأنشطة الاقتصادية في جميع القطاعات؛ ما أثر على نحو مباشر في الموارد الاقتصادية والحياة اليومية للسكان.

اتسم الاقتصاد الفلسطيني في قطاع غزة، قبل اندلاع الحرب الأخيرة، بالضعف والهشاشة؛ بفعل تداعيات سياسات الحصار والتضييق الاقتصادي المستمر، فضاعفَ ذلك من تأثر الناتج المحلي بالصدمات الخارجية الناجمة عن التدمير الواسع والمستمر، وعزّز من حدّة الأضرار التي خلّفتها العمليات العسكرية، وسرّع من وتيرة انتقال آثارها السلبية إلى مختلف القطاعات. ومن المرجّح أن تتعمق هذه الآثار وتمتد فترةً طويلة، خاصة مع التدمير الواسع للبنى التحتية الأساسية، وتعطّل قطاعات عديدة عن العمل كليًا. ويُشير هذا التراجع الحاد في الناتج المحلي إلى دخول الاقتصاد الفلسطيني في مرحلة ركود عميقة؛ نتيجة هذا التدمير للأصول وتوقف الأنشطة الاقتصادية.

يهدف هذا التقرير إلى تحليل تداعيات العدوان الأخير على مجمل النشاط الاقتصادي في قطاع غزة، من خلال تقييم عمق الآثار السلبية المباشرة وغير المباشرة التي خلّفها هذا العدوان. ويناقش أيضًا فرص التعافي الاقتصادي وإمكاناته، التي تتمثل في استعادة حيوية الاقتصاد المحلي، عبر إنعاش الوحدات الاقتصادية المتضررة، وتحسين المؤشرات الاقتصادية الرئيسة، مثل الناتج المحلي الإجمالي، ومتوسط نصيب الفرد منه، وتحقيق النمو المستدام في القطاعات الاقتصادية الرئيسة، وزيادة مستويات الاستهلاك المحلي والاستثمار، إضافةً إلى تعزيز سلاسل التوريد وتوفير فرص العمل اللازمة لاستدامة التعافي. وفي سبيل ذلك، يستعرض التقرير أبرز التحديات التي تواجه

(1) حتى تاريخ إعداد هذا التقرير، 28 حزيران/ يونيو 2025.

(2) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، "عدد المباني المهدمة"، شوهد في 2025/6/28، في: https://tinyurl.com/m6u6wn7m

الاقتصاد الفلسطيني في مرحلة ما بعد العدوان، مقدمًا تحليلاً شاملاً حول إمكانية تجاوز هذه التحديات أو التخفيف من حدتها.

أولًا: تأثير العدوان في النشاط الاقتصادي في قطاع غزة

أثّرت مجمل أوجه الدمار في النشاط الاقتصادي، خاصة أن مؤسسات القطاع الخاص في جميع القطاعات، لحقها تدمير واسع النطاق، فضلاً عن الإغلاق وتوقف الأنشطة تمامًا.

1. حجم الدمار بمعيار عدد الهجمات

للإحاطة الشاملة بحجم الدمار الناجم عن العدوان ومدى انتشاره جغرافيًا، يستعرض الجدول (1) التوزيع المكاني للهجمات التي شنّتها قوات الاحتلال، إلى جانب عددها الإجمالي؛ ذلك أن استخدام مؤشر عدد الهجمات العسكرية يعكس بصورة مباشرة حجم الصدمات التي يتعرض لها الاقتصاد المحلي وشدّتها؛ فالهجمات العسكرية ليست مجرد أرقام إحصائية، بل هي في جوهرها عوامل تُحدث صدمات سلبية متعددة الأبعاد، وتؤدي إلى تقويض مقومات الإنتاج والتبادل التجاري والخدمات، وإضعاف البنى التحتية الأساسية التي تعتمد عليها جميع الأنشطة الاقتصادية. وتأكيدًا لهذا النهج، فقد أكدت لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا) أن الدمار الذي تشهده غزة غير مسبوق من حيث النطاق والحجم؛ لأنه يشمل خسائر في الأصول السكنية وسبل العيش والموارد الطبيعية والبنية التحتية، فقد يكون له آثار عميقة ومنهجية، تستمر على مدى العقود المقبلة؛ فالحرب ستجعل القطاع دون الحد الأدنى لأي نشاط اقتصادي فعّال، أو أي وسائل للإنتاج، أو الاكتفاء الذاتي، أو التوظيف، أو القدرات التجارية[3].

الجدول (1)

القذائف والصواريخ التي سقطت على كل محافظة (2023-2025)

الشهر	محافظة شمال غزة	محافظة غزة	المحافظة الوسطى	محافظة خانيونس	محافظة رفح	الإجمالي
تشرين الأول/ أكتوبر 2023	165	316	130	157	105	873
تشرين الثاني/ نوفمبر 2023	195	320	155	169	89	928
كانون الأول/ ديسمبر 2023	152	235	211	301	137	1036
كانون الثاني/ يناير 2024	136	198	247	269	119	969

(3) "Gaza War: Expected Socio–Economic Impacts on the State of Palestine," *ESCWA* (April 2024), p. 8, accessed on 9/7/2025, at: https://tinyurl.com/bdes44f2

شباط/ فبراير 2024	109	226	192	199	149	875
آذار/ مارس 2024	160	264	217	210	133	984
نيسان/ أبريل 2024	120	261	209	111	103	804
أيار/ مايو 2024	160	277	185	84	214	920
حزيران/ يونيو 2024	57	244	196	89	175	761
تموز/ يوليو 2024	55	262	196	157	123	793
آب/ أغسطس 2024	104	225	227	241	104	901
أيلول/ سبتمبر 2024	100	189	176	116	110	691
تشرين الأول/ أكتوبر 2024	199	209	184	109	111	812
تشرين الثاني/ نوفمبر 2024	190	191	173	87	106	747
كانون الأول/ ديسمبر 2024	137	206	159	73	88	663
كانون الثاني/ يناير 2025	43	155	129	89	67	483
شباط/ فبراير 2025	7	25	15	32	51	130
آذار/ مارس 2025	82	118	82	148	139	569
نيسان/ أبريل 2025	97	212	147	294	108	858
أيار/ مايو 2025	171	247	173	341	64	996
حزيران/ يونيو 2025	83	238	135	322	34	812
الإجمالي	2522	4618	3538	3598	2329	16605

المصدر:

"Gaza Monitor: 7 October 2023 to Present," ACLED, accessed on 9/7/2025, at: https://tinyurl.com/muxh42rd

ويؤدي تزايد عدد الهجمات إلى فقدان الاقتصاد قدرتَه على امتصاص الصدمات؛ وهذا يزيد من حدّة الآثار التراكمية السلبية، ويطيل الفترة الزمنية المطلوبة لاستعادة المستويات الطبيعية للنشاط الاقتصادي. ويؤدي هذا الوضع إلى تراجع الثقة لدى المستهلكين والمستثمرين على حد سواء، وهو ما ينعكس مباشرة في تدهور المؤشرات الكليّة، مثل الناتج المحلي الإجمالي، ومتوسط نصيب الفرد منه، ومستويات الاستهلاك والاستثمار[4].

(4) World Bank, "Note on the Impacts of the Conflict in the Middle East on the Palestinian Economy," *World Bank Economic Monitoring Report* (February 2024), p. 1, accessed on 9/7/2025, at: https://tinyurl.com/yr64tbpd

لذلك، فإن اعتماد التقرير على عدد الهجمات مؤشرًا كميًا لقياس حجم الدمار ليس عشوائيًا، بل ينبع من حقيقة اقتصادية، مفادها أن كل هجمة تُشكل صدمةً إضافيةً تُراكم خسائر جديدة، وترفع من التكلفة الإجمالية للتعافي وإعادة الإعمار. ومن خلال هذه النظرة التحليلية، يصبح في الإمكان تحديد المناطق الأكثر تضررًا، وتوجيه الموارد المحدودة بكفاءة أكثر نحو القطاعات والمناطق التي تحتاج إلى تدخل عاجل للتعافي وإعادة البناء، من أجل الحد من الآثار الطويلة الأجل في الاقتصاد المحلي.

يُبيّن الجدول (1) أن إجمالي عدد الهجمات التي شنّتها قوات الاحتلال، خلال الفترة 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 – شباط/ فبراير 2025، بلغ 13274 هجمة، تنوعت ما بين قصف مدفعي، وضربات صاروخية، وهجمات بالطائرات المسيرة، وضربات جوية، وتفجيرات عن بعد. وكانت محافظة غزة الأكثر تضررًا من هذه الهجمات بنسبة 28.5 في المئة، تليها محافظة الشمال بنسبة 22.5 في المئة. ويعكس هذا الأمر تفاوتًا واضحًا في مستوى الضرر، ويُشير إلى المناطق التي يُتوقع أن تواجه تحديات أكبر في عملية إعادة البناء والتعافي الاقتصادي، نتيجة لكثافة العمليات العسكرية وتركيزها فيها.

2. حجم الخسائر الاقتصادية بحسب القطاع

يُظهر الجدول (2) التداعيات الجسيمة والأضرار والخسائر التي لحقت بقطاعات الاقتصاد الفلسطيني في قطاع غزة نتيجة العدوان الإسرائيلي الأخير. وتبيّن القراءة التحليلية للأرقام أن قطاع الإسكان كان الأكثر تضررًا، بأضرار مباشرة وصلت إلى نحو 15.8 مليار دولار، وبنسبة 53 في المئة، من الحجم الكلي لقيمة الأضرار التي حددها البنك الدولي بنحو 29.880 مليار دولار حتى تشرين الأول/ أكتوبر 2024[5]. وهذا الأمر مؤشر دال على الضرر البالغ الذي لحق البنى التحتية السكنية، وانعكاساته المستقبلية على الاستقرار الاجتماعي والتعافي. وشغلَ قطاع التجارة والصناعة المرتبة الثانية من حيث حجم الأضرار، التي بلغت نحو 5.9 مليارات دولار وبنسبة 19.7 في المئة؛ ما يؤكد تعطّل قدرات الإنتاج وانقطاع سلاسل الإمداد وتراجع القدرة التنافسية للقطاع الإنتاجي الفلسطيني. في حين وصلت قيمة الخسائر في القطاعات الإنتاجية إلى 2.2 مليار دولار وبنسبة 11.5 في المئة من إجمالي الخسائر.

وكان قطاع الصحة أكبر القطاعات تأثرًا، بخسائر بلغت 6.3 مليارات دولار، وبنسبة وصلت إلى 33 في المئة من إجمالي الخسائر، وهذا يدلّ على حجم الضغط الهائل على الخدمات الصحية، وزيادة الاحتياجات الطبية، واستنزاف الموارد الاقتصادية لهذا القطاع الحيوي. وشكّل قطاع التعليم تحديًا اقتصاديًا إضافيًا، مع خسائر تجاوزت 3.2 مليارات دولار (16.8 في المئة)؛ ما قد ينعكس سلبيًا على رأس المال البشري وفرص النمو المستقبلي.

(5) World Bank, "Impacts of the Conflict in the Middle East on the Palestinian Economy," *World Bank Economic Monitoring Report* (April 2025), accessed on 22/7/2025, at: https://tinyurl.com/2ekujkke

الجدول (2)

الأضرار والخسائر بحسب القطاع (مليون دولار أميركي)[6]

القطاع	الأضرار	الخسائر
القطاعات الإنتاجية		
الزراعة والأنظمة الغذائية	835	1300
التجارة والصناعة	5900	2200
القطاع المالي	14	325
القطاعات الاجتماعية		
التعليم	874	3206
الصحة	1300	6300
الإسكان	15800	545
الحماية الاجتماعية	33	1390
التراث الثقافي	120	55
قطاعات البنية التحتية		
المياه والصرف الصحي	1500	64
النقل والمواصلات	2500	377
الطاقة	494	243
الخدمات البلدية	233	988
تكنولوجيا المعلومات والاتصالات	164	736
القطاعات الشاملة		
البيئة	92	165
الأراضي	11	115
التوظيف وفرص العمل	10	1050
الإجمالي	**29880**	**19059**

المصدر:

World Bank, European Union & United Nations, "Gaza and West Bank Interim Rapid Damage and Needs Assessment (IRDNA)" (February 2025), p. 4, accessed on 22/7/2025, at: https://tinyurl.com/36tmz4cu

(6) تشير الأضرار Damages إلى التكلفة المباشرة والفورية للدمار الذي أصاب الأصول المادية والبنية التحتية (مثل المباني، والمنشآت الصناعية والزراعية، والمعدات، والمرافق العامة). ويتم تقديرها بناءً على القيمة النقدية اللازمة لإعادة بناء أو إصلاح هذه الأصول إلى حالتها السابقة قبل وقوع الحدث. أمّا الخسائر Losses، فتشير إلى التكاليف الاقتصادية غير المباشرة أو الإضافية التي يتحملها الاقتصاد نتيجة تعطل النشاط الاقتصادي وتوقف الإنتاج والخدمات والدخل أو تراجعها، مثل خسائر الإيرادات، وتوقف الأعمال التجارية، وانخفاض الدخل الفردي والمؤسسي، وارتفاع تكاليف التشغيل والتعافي.

وتُشير الأضرار الجسيمة التي لحقت بقطاعات البنية التحتية، مثل النقل والمواصلات والطاقة والمياه والصرف الصحي، والتي بلغت مجتمعةً نحو 4.9 مليارات دولار من الأضرار المباشرة، إلى انعكاسات طويلة الأجل، تتعلق بإعاقة النشاط الاقتصادي، وزيادة تكلفة الاستثمار، وإضعاف جاذبية الاقتصاد الفلسطيني للمستثمرين المحليين والدوليين.

وفي المجمل، فإن إجمالي حجم الأضرار والخسائر الاقتصادية الذي بلغ نحو 48.9 مليار دولار، يُبرز بوضوح دخول الاقتصاد الفلسطيني في مرحلة حرجة من الركود والانكماش الهيكلي، مع ضرورة وضع سياسات تدخلية فورية واستراتيجية اقتصادية شاملة للتعامل مع آثار هذه الأزمة واستعادة مسارات النمو والاستدامة الاقتصادية.

وتُظهر البيانات الواردة في الجدول (3) تفاوتًا واضحًا في توزيع الأضرار الاقتصادية بين محافظات قطاع غزة، حيث تركزت الأضرار بصفة رئيسة في محافظة غزة التي بلغت حصتها (11.54 مليار دولار أميركي)، وهو ما يعادل 38.5 في المئة من إجمالي الأضرار المسجلة. وهذا يعكس الحجم الكبير للدمار الذي أصاب هذه المحافظة، التي تمثل المركز الحضري والاقتصادي الأكبر والأكثر كثافةً سكانيةً؛ ما يعمق الآثار الاقتصادية والاجتماعية التي ستستمر فترة طويلة، نتيجة لتعطّل الأنشطة الاقتصادية، وتدمير البنية التحتية والخدمات الأساسية.

الجدول (3)
إجمالي الأضرار بحسب كل محافظة (مليار دولار أميركي)

المحافظة	شمال غزة	غزة	دير البلح	خانيونس	رفح	الإجمالي
إجمالي الأضرار	5.476	11.541	3.646	5.805	3.412	29.88

المصدر: Ibid., p. 5.

جاءت محافظة خانيونس في المرتبة الثانية من حيث حجم الأضرار، مسجلةً نحو 5.8 مليارات دولار، تليها محافظة شمال غزة بنحو 5.48 مليارات دولار، وهذا يشير إلى الانتشار المكاني الواسع للضرر الاقتصادي والتفاوت الواضح في إمكانية هذه المحافظات وقدرتها على التعافي وإعادة البناء.

أما محافظتا رفح ودير البلح، فقد بلغ مجموع أضرارهما 7 مليارات دولار، وعلى الرغم من أن حجم الأضرار فيهما أقل من بقية المحافظات، فإنه يظل عاليًا مقارنة بحجم النشاط الاقتصادي فيهما؛ وهذا يفاقم من مستوى الاحتياج إلى التدخل المباشر والعاجل لضمان عدم تعميق فجوة التنمية الاقتصادية والاجتماعية على المدى البعيد.

في المجمل، يعكس هذا التفاوت في توزيع الأضرار الحاجة إلى خطط تدخل تنموية واقتصادية، تستهدف المحافظات الأكثر تضررًا، مع التركيز على إعادة بناء القدرات الإنتاجية والبنية التحتية الأساسية لضمان تحقيق تعافٍ اقتصادي متوازن ومستدام لجميع محافظات القطاع.

3. تراجع الناتج المحلي الإجمالي

شهد قطاع غزة تراجعًا حادًا في الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 80 في المئة خلال الربع الرابع من عام 2023، مقارنةً بتراجع بلغ 18.6 في المئة في الضفة الغربية، كما يوضح الجدول (4). وتشير التقديرات إلى أن القطاع شهد خسارة تقدر بنحو 1.5 مليار دولار خلال الشهرين الأولين من الصراع، بمعدل خسارة يومية يصل إلى 25 مليون دولار. وجرى تدمير أو إلحاق الأضرار بنحو 82 في المئة من منشآت القطاع الخاص. وبلغت الخسائر في قطاع غزة، على مستوى المرافق التجارية، 83 في المئة. وهنا نشير إلى أن حصة القطاع من الناتج المحلي الإجمالي الفلسطيني شهدت تراجعًا حادًا عبر العقود الثلاثة الماضية؛ حيث بلغت 3 في المئة فقط في نهاية عام 2024، مقارنةً بنحو 37.6 في المئة عام 1994[7]. ويعود اختيار عام 1994 نقطةً مرجعية إلى أنه العام الذي أُسِّست فيه السلطة الفلسطينية، وشهد بداية مرحلة جديدة من الاستقلال الاقتصادي والإدارة الذاتية الفلسطينية؛ ما يجعله معيارًا ملائمًا وواضحًا لقياس الآثار الاقتصادية التراكمية الطويلة الأجل على قطاع غزة، بخلاف اختيار عام قريب مثل عام 2022، الذي لا يُظهر التغيرات الهيكلية بوضوح أو التأثير المتراكم للأحداث السياسية والاقتصادية عبر الزمن.

يوضح الجدول (4) أن تراجع الناتج المحلي استمر حتى آخر البيانات التي يوفرها الإحصاء الفلسطيني، حيث تراجع الناتج عام 2024 بنسبة 83.2 في المئة، مقارنة بعام 2024. إلا أن نسبة التراجع في الربع الرابع من عام 2024 بلغت 88.3 مليونًا، مقارنة بالربع الثالث لعام 2023 قبل الحرب. وإذا تم حساب خسارة الناتج المحلي لكل ربع من الربع الرابع لعام 2023 إلى الربع الثاني لعام 2025 (أي حتى نهاية حزيران/ يونيو) مقارنة بقيمة متوسط الأرباع الثلاثة الأولى لعام 2023 والتي تبلغ 672.2 مليون دولار، فإن إجمالي خسارة الناتج المحلي لقطاع غزة تبلغ 3741.5 مليون دولار.

ويؤكد مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية "الأونكتاد" أن اتجاه نمو الناتج المحلي الإجمالي لو استمر كما كان في الفترة 2007–2022 بمعدل نمو متوسط قدره 0.4 في المئة، "فسوف يستغرق الأمر من غزة 70 عامًا فقط لاستعادة مستويات الناتج المحلي الإجمالي لعام 2022، مع انخفاض نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بصفة مستمرة وسريعة نظرًا إلى زيادة معدل النمو السكاني"[8]. ويشير ذلك إلى عمق الخسائر وشدتها في الأنشطة الاقتصادية عمومًا، والناتج المحلي الإجمالي ونصيب الفرد منه خاصة.

(7) "الاقتصاد الفلسطيني في الربع الرابع 2024"، **المراقب الاقتصادي: العدد السنوي**، العدد 1 (2024)، ص 1.

(8) UN Trade and Development (UNCTAD), "Developments in the Economy of the Occupied Palestinian Territory," *TD/B/EX*, vol. 74, no. 2 (September 2023), accessed on 22/7/2025, at: https://tinyurl.com/ycx57vky

الجدول (4)

القيمة المضافة بحسب النشاط الاقتصادي والربع منذ عام 2023 (مليون دولار)

	2023				2024				2025
النشاط الاقتصادي	الربع 1	الربع 2	الربع 3	الربع 4	الربع 1	الربع 2	الربع 3	الربع 4	الربع1
الزراعة وصيد الأسماك	54.6	55.6	58.4	5.2	4	4	4	4	4
الصناعة والكهرباء والمياه	52.8	48.3	54.7	3.7	2.9	2.9	2.9	2.9	2.9
الإنشاءات	28.8	22.2	29.1	1.1	0.4	0.4	0.4	0.4	0.4
قطاع الخدمات	535.2	533.5	545.2	126.5	88.7	87.5	83.5	73	77
الناتج المحلي الإجمالي	671.4	659.6	687.2	136.5	96.0	94.8	90.8	80.3	84.3

المصدر: الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، **التقرير الصحفي للحسابات القومية الربعية (الربع الرابع) (2025)**، ص 15، شوهد في 2025/7/22، في: https://tinyurl.com/24h5uaun

4. تراجع مساهمة الأنشطة الاقتصادية في الناتج المحلي الإجمالي

تأثرت الأنشطة الاقتصادية في قطاع غزة تأثّرًا بالغًا، حيث اقتربت مساهمة العديد من القطاعات الحيوية من الصفر تقريبًا بفعل التدمير المباشر للأصول الإنتاجية والبنية التحتية، وتوقف سلاسل الإنتاج والإمداد بصفة شبه تامة. وتشير إحصاءات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني إلى أن مساهمة القطاع الزراعي في الناتج المحلي الإجمالي تراجعت من 7.2 في المئة عام 2023 إلى 4.4 في المئة عام 2024[9]. ثم ارتفعت قليلاً في الربع الأول لعام 2025 لتصل إلى 4.7 في المئة. بينما تراجعت مساهمة القطاع الصناعي من 6.5 إلى 3.3 في المئة للفترة نفسها. ونتيجة لضعف قطاع الإنشاءات قبل العدوان، فقد انخفضت مساهمته بشدة وبنسبة 87.5 في المئة، حيث انخفضت من 3.2 إلى 0.4 في المئة. والملاحظ أن قطاع الخدمات هو الوحيد الذي زادت نسبة مساهمته في الناتج المحلي حيث ارتفعت من 35 في المئة عام 2023 إلى 66.3 في عام 2024. ويرجع ذلك إلى استمرار جزئي في بعض أنشطته الفرعية الأساسية مثل الخدمات الصحية والتعليمية والنقل. فقد واصلت هذه الخدمات العمل ولو بالحد الأدنى، استجابةً للاحتياجات الإنسانية والاجتماعية الطارئة في

(9) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، **التقرير الصحفي للحسابات القومية الربعية (الربع الرابع)** (2025)، ص 18، شوهد في 2025/7/22، في: https://tinyurl.com/24h5uaun

أثناء العدوان وبعده؛ وهذا ساهم في التخفيف من حدة الصدمة الاقتصادية على القطاع. ويشير هذا الاستمرار الجزئي في تقديم الخدمات الأساسية إلى وجود مرونة نسبية في القطاع الخدمي مقارنةً بالقطاعات الأخرى، ويوضح الدور المحوري للخدمات العامة في تعزيز قدرة الاقتصاد المحلي على مواجهة الأزمات والتقليل من آثارها الاقتصادية والاجتماعية السلبية الممتدة.

5. سوق العمل ومعدلات البطالة

تأثر قطاع العمل كثيرًا بسبب الحرب الإسرائيلية؛ فقد حدثت خسائر فادحة في الوظائف والدخل؛ حيث انخفضت معدلات التوظيف في مختلف القطاعات، خاصة في القطاع الخاص. وأشارت الإحصاءات إلى أن 80 في المئة من العاملين في قطاع غزة أصبحوا عاطلين عن العمل في نهاية 2024[10]، باستثناء القطاعات الأساسية مثل الصحة والإغاثة الإنسانية. وفي سياق هذه الخسائر الضخمة، ارتفعت معدلات البطالة؛ فقد وصلت إلى 75 في المئة في الربع الرابع من عام 2023؛ ما يعني فقدان قرابة 200 ألف وظيفة في الأشهر الثلاثة الأولى من العدوان[11].

وشهد القطاع الخاص انخفاضًا كبيرًا في الأجور، حيث تراجعت الرواتب بنسبة 40 في المئة[12]. وفيما يتعلق بالخسائر الاقتصادية اليومية الناتجة من فقدان الوظائف، فقد بلغت نحو 25.5 مليون دولار يوميًا، وهذه الخسائر تتضمن أيضًا تأخيرات في دفع الأجور وانخفاض الدخل[13].

ويؤكد أحدث تقارير القوى العاملة الصادر عن الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني أنه بافتراض أن العمل يعادل التوظيف، وأن "البحث عن عمل" يعادل البطالة، فإن البيانات تشير إلى نسبة توظيف منخفضة جدًّا مقارنة بعدد السكان؛ إذ بلغت نحو 9.3 في المئة فقط، في حين بلغ معدل المشاركة في القوى العاملة نحو 30 في المئة ومعدل البطالة مرتفع كثيرًا نحو 69 في المئة[14]. وإذا ما اعتُبرت "الرغبة في العمل" جزءًا من "القوى العاملة المحتملة"[15]، وإضافتها بصفتها أحد أشكال استغلال القوى العاملة، فإن معدل نقص استغلال القوى العاملة يرتفع ليصل إلى قرابة 87 في المئة.

---

(10) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، **أداء الاقتصاد الفلسطيني 2024** (رام الله: 2025)، شوهد في 2025/7/22، في: https://tinyurl.com/ytasp5jv

(11) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، "علا عوض رئيسة الإحصاء الفلسطيني تستعرض الواقع العمالي في فلسطين لعام 2023 بمناسبة اليوم العالمي للعمال (الأول من أيار)"، 2024، شوهد في 2025/6/29، في: https://tinyurl.com/ykruuafw

(12) International Labour Organization & Palestinian Central Bureau of Statistics, *Impact of the War in Gaza on the Labour Market and Livelihoods in the Occupied Palestinian Territory: Bulletin No. 3* (Beirut, Lebanon: ILO Regional Office for Arab States, 18/3/2024), accessed on 7/7/2025, at: https://acr.ps/1L9GPzQ

(13) International Labour Organization, *Gaza Crisis: Impact on Labour Markets and Livelihoods in the Occupied Palestinian Territory* (Beirut: ILO Regional Office for Arab States, 2023), accessed on 22/7/2025, at: https://acr.ps/1L9GPYl

(14) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، **مسح القوى العاملة خلال العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: واقع وحقائق الدورة الأولى (تشرين الثاني – كانون الأول، 2025. تقرير النتائج الأساسية)** (رام الله: نيسان/ أبريل 2025)، شوهد في 2025/7/22، في: https://tinyurl.com/4r3wvznz

(15) وفقًا للمعايير الدولية لمنظمة العمل الدولية، فإن القوة العاملة المحتملة تشمل "الباحثين عن عمل المحبطين"؛ أي أولئك الذين لم يقوموا "بالبحث عن عمل" لأسباب تتعلق بسوق العمل.

6. الفقر

على الرغم من أن الفقر المتعدد الأبعاد يتأثر بأكثر من عشرين مؤشرًا تشمل مجالات مختلفة من المجتمع، فإنه يتأثر أكثر بالفقر النقدي. ووفقًا لمعهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني (ماس)، فإن الفقر النقدي في قطاع غزة كان المساهم الأكبر في مؤشر الفقر المتعدد الأبعاد بنسبة 45 في المئة، يليه التوظيف (11.7)، ثم ظروف السكن (11.7)، والتعليم (10.7)، أما أقل المساهمين فيه فهو الصحة بنسبة (4.4)[16]. من الجدير بالذكر أن اتساع حجم الخسائر والأضرار في المساكن والبنى التحتية والصحة والتعليم والتوظيف وغيرها، وتكرار حالات النزوح وتدني جودة الخدمات وقلتها، كلها عوامل تزيد من شدة الحرمان وتزيد من معدل الفقر المتعدد الأبعاد[17].

وبحلول بداية الأسبوع الثالث من الحرب، أصبح جميع سكان غزة تقريبًا يعيشون في فقر متعدد الأبعاد بنسبة 96 في المئة، وذلك استنادًا إلى الدليل الوطني للفقر المتعدد الأبعاد الذي يحسب أوجه الحرمان المتزامنة التي يعانيها السكان في سبعة أبعاد للرفاه، والذي يتضمن 22 مؤشرًا مصممًا خصوصًا ليلائم السياق الفلسطيني[18]. بعبارة أخرى، يعاني جميع الفلسطينيين المقيمين في القطاع تقريبًا، والبالغ عددهم 2.3 مليون نسمة، من الفقر المتعدد الأبعاد، فقد أثّر العدوان تأثيرًا كبيرًا ومتسارعًا في الأبعاد السبعة للدليل الوطني للفقر المتعدد الأبعاد في غزة في غضون 16 يومًا. ولتوضيح جسامة هذه النتائج، أشارت البيانات إلى أنه حتى بعد توقف الأعمال العدائية، ودخول المساعدات الإنسانية والمعونات الخارجية، سيظلّ أكثر من 69 في المئة من سكان غزة فريسة لهذا الفقر.

وقد تأثرت فئات الأسر كافة بالفقر، فقد انخفض استهلاك الطبقة المتوسطة بنسبة 35.6 في المئة بعد ستة أشهر من الحرب، فوفقًا لتوقعات تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والإسكوا، يُقدَّر معدل الفقر بنحو 57.2 في المئة، بعد ستة أشهر من الحرب. وهذا من شأنه أن يدفع نسبة كبيرة من الطبقة المتوسطة إلى ما دون خط الفقر؛ ما يزيد من عدد الأشخاص الذين يعيشون في فقر بنحو 1.86 مليون شخص[19].

7. تزايد معدل انعدام الأمن الغذائي

بناء على تقييمات برنامج الأغذية العالمي، فإن أكثر من ثلث السكان يعانون انعدام الأمن الغذائي قبيل العدوان الحالي، ويعاني 61 في المئة منهم انعدام الأمن الغذائي الشديد. وعلى الرغم من

(16) معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني (ماس)، "الفقر متعدد الأبعاد في قطاع غزة: ماذا يمكن للسياسات أن تفعل؟"، **ورقة خلفية: جلسة طاولة مستديرة رقم 4** (2025)، ص 6، شوهد في 2025/7/22، في: https://acr.ps/1L9GPnU

(17) المرجع نفسه، ص 7.

(18) الأمم المتحدة، الإسكوا، **الحرب على غزة: تداعيات مدمرة غير مسبوقة** (تشرين الأول/ أكتوبر 2023)، شوهد في 2025/7/22، في: https://acr.ps/1L9GP1t؛ لتقييم آثار الحرب الحالية، تستند هذه التقديرات إلى الدليل الوطني للفقر المتعدِّد الأبعاد في دولة فلسطين. وترتكز أدلّة الفقر المتعدد الأبعاد على مجموعة من المؤشرات لحساب معدل الفقر، وتأخذ في الاعتبار عمق الفقر الذي تعانيه الأسر المعيشية الفقيرة. ومن ثمّ، فإنّ طريقة القياس هذه أوسع نطاقًا من مقاييس الفقر النقدية والقائمة على الاستهلاك؛ لأنها ترصد أوجه الحرمان في الجوانب غير النقدية للرفاه.

(19) UNDP, ESCWA, "Gaza War: Expected Socioeconomic Impacts on the State of Palestine," *Policy Breif*, no. 2 (May 2024), accessed on 7/7/2025, at: https://acr.ps/1L9zPDv

خطورة الوصول إلى هذا المستوى من انعدام الأمن الغذائي، فإن تطورات هذا المؤشر غداة العدوان أصبحت أشد خطورة، فمع تراجع الدخول والارتفاع الكبير في الأسعار، إلى جانب تدمير أنظمة الغذاء، والتدفق المحدود للمساعدات الإنسانية والتوقف شبه الكامل للسلع التجارية، انخفضت كميات الغذاء المتوافر، وفقدت الأسر قدرتها على الوصول إلى الغذاء والإمدادات الغذائية. بمعنى آخر، إن عناصر الأمن الغذائي الرئيسة الثلاثة مفقودة في قطاع غزة، وهي توافر الغذاء والوصول إليه واستخدامه.

في الحصيلة، استطاع الاحتلال إبعاد الأراضي الزراعية عن دورها في المساهمة في تحقيق الأمن الغذائي، إما بعزلها تمهيدًا لضمها إلى المنطقة العازلة أو تدميرها وتجريفها، لتُدمر بذلك السلة الغذائية من الخضروات والفواكه واللحوم، إضافة إلى تدميره جميع مقومات إنتاج الغذاء المحلي الأخرى، بالتوازي مع منعه إدخال المواد الغذائية والمساعدات الإنسانية في إطار تكريسه للمجاعة في قطاع غزة، واستخدام التجويع سلاح حرب، ضمن جريمة الإبادة الجماعية[20].

8. ارتفاع الأسعار وتراجع القوة الشرائية

شهد الاقتصاد الفلسطيني خلال الربع الرابع من عام 2023 حالة من الركود التضخمي Stagflation؛ وهي حالة تتسم بتراجع النمو الاقتصادي أو نمو ضعيف يرافقه ارتفاع في معدلات التضخم. ويُعزى ذلك إلى انخفاض المعروض من السلع الأساسية ونقص السلع الاستهلاكية والواردات وارتفاع التكاليف الإنتاجية والتشغيلية؛ وذلك نتيجة العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، والتحديات التي فرضها الاحتلال على الطرق الخارجية الرابطة بين المدن الفلسطينية في الضفة الغربية[21]. فقد ارتفع مؤشر غلاء المعيشة الفلسطيني بنسبة 11 في المئة خلال ثلاثة أعوام؛ فأدى إلى تراجع القوة الشرائية بنسبة 10 في المئة، ومن ثمّ تآكل حاد في رواتب الأسر[22]. وقد أثر العدوان تأثيرًا بالغًا في مستويات الأسعار في قطاع غزة، حيث بلغ الرقم القياسي للأسعار في نهاية عام 2024 ما نسبته 238 في المئة، مدفوعًا بارتفاع أسعار كل المجموعات السلعية وخاصة مجموعة الغذاء (225)، ومجموعة المواصلات (203.28)، ومجموعة التبغ والسجائر (2760)[23].

تزايد الرقم القياسي لأسعار المستهلك خلال العام الجاري (2025)، حيث وصل في أيار/ مايو فقط إلى 43.2 في المئة. فقد أدى الاستمرار في إغلاق المعابر التجارية، من آذار/ مارس إلى 20 أيار/ مايو 2025،

(20) "غـزة: إسرائيل تستخدم تدمير الأراضـي الزراعية والسلال الغذائية كسلاح حرب وتجويع ضد المدنيين"، المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان، 2024/6/23، شوهد في 2025/7/22، في: https://acr.ps/1L9GPnz

(21) سلطة النقد الفلسطينية، "تقرير التضخم: الربع الرابع 2023"، دائرة الأبحاث والسياسة النقدية (شباط/ فبراير 2024)، شوهد في 2025/7/21، في: https://acr.ps/1L9GPEx

(22) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، "جدول الغلاء المعيشي لعام 2023"، 2024/1/4، شوهد في 2025/7/7، في: https://tinyurl.com/45tw9nd9

(23) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، "الأسعار والأرقام القياسية النشرة السنوية 2024" (2025)، شوهد في 2025/7/7، في: https://tinyurl.com/bcctwpd3

ومحدودية عدد الشاحنات التي سُمح لها بالدخول خلال الثلث الأخير من أيار/ مايو، إلى إحداث فقدان كبير في السلع المعروضة للبيع في الأسواق؛ ما دفع أسعارها نحو الاستمرار في الارتفاع[24].

ثانيًا: التعافي الاقتصادي

يرتبط التعافي الاقتصادي بالتعافي المبكر غداة الصراع والكوارث؛ ومن ثم فهو شرط لازم له وإن كان غير كافٍ. لذلك يتأثر التعافي الاقتصادي بمجمل الشروط والعوامل المؤثرة في التعافي المبكر، إضافة إلى العوامل الاقتصادية المباشرة. وبناء عليه، يقدم التقرير تعريفًا عامًّا لكليهما، تمهيدًا لاستعراض التحديات التي تواجه تحقيق التعافي الاقتصادي.

1. مفهوم التعافي الاقتصادي

يُركز نهج التعافي، وفقًا لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، على استعادة قدرة المؤسسات والمجتمعات الوطنية على التعافي من النزاعات أو الكوارث الطبيعية. وهو عملية متعددة الأبعاد، تبدأ في سياق إنساني، وتسعى للبناء على البرامج الإنسانية، وتحفيز فرص التنمية المستدامة. ويشمل ذلك استعادة الخدمات الأساسية، وسبل العيش، والمأوى الانتقالي، والحوكمة، والأمن وسيادة القانون، والبيئة، وغيرها من الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية، بما في ذلك إعادة إدماج السكان النازحين[25].

في سياق هذا المفهوم للتعافي المبكر، يمكن استعراض مفهوم التعافي الاقتصادي الذي يشير إلى الفترة التي تبدأ فيها الأنشطة الاقتصادية بالتحسن التدريجي، بعد فترة من الانكماش أو التباطؤ، و"تعد هذه العملية حيوية ليس فقط لاستعادة مستويات الإنتاج والتوظيف، بل أيضًا لتعزيز ثقة المستثمرين والمستهلكين، وتوفير البيئة الملائمة للابتكار والاستثمار"[26].

2. طبيعة التعافي الاقتصادي ومؤشراته

إن التعافي الاقتصادي المبكّر عملية سريعة تحتاج إلى أنشطة قصيرة المدى، لها تأثير إيجابي على المدى الطويل، ويجب أن يكون الهدف الرئيس لسياسات التعافي، خلال المدى القصير، منع تجدد الصراعات وتدعيم الاستقرار، وتدعيم هذه السياسات من الأطراف الفاعلة سواء المحلية أو الخارجية. وتقتضي طبيعة تحقيق التعافي الاقتصادي في الأجل القصير، باعتباره أولوية، توفير السلع والخدمات، خاصة الأساسية، وتوفير فرص العمل، من خلال برامج التوظيف السريعة، إضافة إلى توفير كل سبل الدعم لتمكين القطاع الخاص من ممارسة دوره في كل ما سبق.

(24) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، "الإحصاء الفلسطيني يعلن مؤشر غلاء المعيشة خلال شهر أيار" (أيار/ مايو 2025)، شوهد في 2025/7/22، في: https://acr.ps/1L9GP6k

(25) Cluster Working Group on Early Recovery (CWGER), *Guidance note on Early Recovery* (April 2008), accessed on 7/7/2025, at: https://acr.ps/1L9GPJJ

(26) "Economic Recovery: Definition, Process, Signs, and Indicators," *Investopedia*, 13/3/2025, accessed on 7/7/2025, at: https://acr.ps/1L9GP8t

تتمحور مؤشرات التعافي الاقتصادي عادة حول مؤشرات الحسابات القومية وخاصة الناتج المحلي الإجمالي مؤشرًا رئيسًا. يشير نمو الناتج المحلي الإجمالي السلبي لفصلين متتاليين إلى ركود اقتصادي. ومن المؤشرات الأخرى، التي يمكن أخذها في الاعتبار، ثقة المستهلك والتضخم[27]. ومن المؤشرات الرئيسة التغيرات الإيجابية في معدل الفقر المتعدد الأبعاد، الذي أصبح منتشرًا بين الأفراد والفئات كافة.

3. التحديات

سبقت الإشارة إلى ارتباط التعافي الاقتصادي بالتعافي المبكر، بصفتها مرحلة سابقة وموازية لعملية إعادة الإعمار. ولا شك في أن هذه المراحل المتداخلة، التي تشملها إعادة الإعمار، تواجه في قطاع غزة تحديات صعبة ومعقدة لتعقّد المشهد السياسي العام وغموضه. ذلك أن الرؤية السياسية لم تتضح بعد لإدارة القطاع، في سياق رفض الاحتلال الإسرائيلي وجود أي مكوّن فلسطيني في المرحلة اللاحقة لوقف العدوان، والتي تُسمّى "اليوم التالي". وبناءً عليه، يُعتبر استعراض التحديات التي تواجهها إعادة الإعمار بمراحلها المختلفة مدخلاً مهمًا ومناسبًا للحديث عن تحديات التعافي الاقتصادي[28].

أ. السياق السياسي

على الرغم من أن مفهوم السياق السياسي يتسع ليشمل طبيعة النظام الحاكم القادم وطبيعة العلاقة مع الاحتلال الإسرائيلي بخصوص السيطرة على المعابر والموارد والحصار والتدخلات والقيود، وكذلك طبيعة الدور الإقليمي والدولي وتمويل عملية إعادة الإعمار، فإن الملاحظ أن الجهود والخطط كافة تتركز الآن حول طبيعة الحكم لليوم التالي للإجابة عن السؤال الرئيس: من الذي سيدير قطاع غزة غداة توقف العدوان؟ وهو سؤال نشأ في ظل قيود الاحتلال حول استبعاد كل من السلطة وحركة المقاومة الإسلامية "حماس" عن المشهد.

هناك عدة سيناريوهات لطبيعة المرحلة المقبلة؛ منها: إعادة الحكم العسكري الإسرائيلي لجميع قطاع غزة أو لجزء منه، أو تشكيل حكومة/ إدارة محلية من شخصيات محلية مع وجود حاكم عسكري/ إداري إسرائيلي، أو إدارة خارجية أو دولية لقطاع غزة، أو استمرار العمل بلجنة العمل الحكومي التابعة لسلطة الأمر الواقع، أو حكومة بقيادة حركة حماس بالتحالف مع فصائل فلسطينية بقطاع غزة، أو إنشاء حكومة إنقاذ وطني[29].

---

(27) Ibid.

(28) تم الاستئناس في صياغة هذه التحديات بعدة مراجع منها:

World Bank, "Impacts of the Conflict in the Middle East on the Palestinian Economy," (April 2025); UN Trade and Development (UNCTAD), "Economic Costs of the Israeli Occupation for the Palestinian People: The Economic Impact of the Israeli Military Operation in Gaza from October 2023 to May 2024," 10/9/2024, accessed on 7/7/2025, at: https://acr.ps/1L9GPHu;

مازن العجلة ومحمود عيسى، "التداعيات الاقتصادية للحرب الإسرائيلية على قطاع غزة وكلفة إعادة الإعمار"، مركز فينيق للأبحاث والدراسات الحقلية (غزة: 2024)، شوهد في 2025/7/7، في: https://tinyurl.com/mrprycex

(29) المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الإستراتيجية (مسارات)، **سيناريوهات العدوان على غزة – تقرير استراتيجي**، مسودة أولية (آب/ أغسطس 2024)، شوهد في 2025/7/22، في: https://tinyurl.com/5h2j6ffe

وهناك أيضًا رؤى رسمية إسرائيلية؛ حيث نشر معهد الأمن القومي الإسرائيلي عدة مقالات[30] تتحدث عن مقترحات لليوم التالي. هذا فضلاً عن خطط أخرى لا تقل خطورة مثل وثيقة بعنوان "غزة 2035"[31]، وهي خطة إقليمية، تتحدث عن غزة 2035 على ثلاث مراحل متتالية. والوثيقة الأخرى الخطيرة[32]، تهدف إلى إنشاء "جزر" أو "فقاعات" جغرافية يمكن أن يعيش فيها الفلسطينيون غير المرتبطين بحماس، ضمن مأوى مؤقت، بينما يقوم الجيش الإسرائيلي بـ"تطهير ما تبقى من المتمردين".

وما ورد من تصريحات وخطابات رسمية فلسطينية يُمثل رؤية سياسية شاملة للدولة الفلسطينية حول المسؤولية السياسية والولاية القانونية على قطاع غزة، وضرورة إعادة بناء المؤسسات العامة والبنية التحتية المتضررة، بما يشمل الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية. إلا أن هذه الرؤية السياسية، على الرغم من وضوحها وأهميتها في تحديد التوجّه العام، تحتاج إلى أن تُترجم عمليًا، بخطة تنفيذية واضحة المعالم، تتضمن إجراءات ومراحل زمنية وتحديدًا دقيقًا للأدوار والمسؤوليات، والموارد الاقتصادية والمالية اللازمة، إضافة إلى آليات الرقابة والمتابعة والتقييم.

بمعنى آخر، تختلف الخطة الاقتصادية عن الرؤية السياسية، من حيث كونها مجموعة من الخطوات التنفيذية والإجراءات التفصيلية والواقعية التي يمكن تطبيقها على أرض الواقع، لتحقيق الأهداف الاقتصادية والتنموية المُعلنة؛ مثل إعادة الإعمار، وإنعاش القطاعات الاقتصادية المتضررة، وتطوير المؤسسات، وإعادة بناء الثقة الاقتصادية، وتأمين فرص العمل، ودعم النمو الاقتصادي الطويل الأمد. وفي حين أن الرؤية السياسية هي موقف استراتيجي عام، يحدد الغايات العليا والتوجه السياسي، فإن الخطة الاقتصادية توضح كيفية تحقيق هذه الغايات وآليته، من خلال برامج ومشروعات اقتصادية واضحة وقابلة للتطبيق، وضمن جدول زمني واضح ومحدد.

وعلى الرغم من تنوع المقترحات الخاصة باليوم التالي، فإنه لا تتوافر رؤية محددة تمثّل إطارًا سياسيًّا يدير قطاع غزة بعد العدوان. ويمثل هذا الوضع التحدي الأكبر لعمليتَي الإغاثة والتعافي المبكر وإعادة الإعمار، فكيف يمكن البدء بهاتين العمليتين مع هذا الغموض؟

(30) INSS, "An Alternative Civilian Entity to Administer the Gaza Strip—Urgently Needed," *INSS Insight*, no. 1862 (June 2024), accessed on 7/7/2025, at: https://tinyurl.com/5yutsw55; Udi Dekel, "'The Day After' Hamas's Rule in Gaza: Time to Sober Up from the Illusions," Special Publication, INSS, 17/3/2024, accessed on 7/7/2025, at: https://tinyurl.com/4zw5edyx; Kobi Michael, "Enhancing the Palestinian Authority by Building Cities as Part of a New Regional Architecture," *INSS Insight*, no. 1875, 8/7/2024, accessed on 21/7/2025, at: https://tinyurl.com/mr2psktz; Udi Dekel, "The Day After": The Development of the War Requires Brave Decisions," INSS, 12/4/2024, accessed on 22/7/2025, at: https://acr.ps/1L9GPqW; Kobi Michael, "Internal Palestinian Rivalry Pushes Israel toward Temporary Military Administration in Gaza," INSS *Insight*, no. 1837, 20/3/2024, accessed https://tinyurl.com/mw3ekw97

(31) Daniel Jonas Roche, "Gaza 2035: Israel Prime Minister Benjamin Netanyahu unveils regional plan to build a 'massive free trade zone' with rail service to NEOM," *The Architect's Newspaper*, 21/5/2024, accessed on 23/7/2025, at: https://acr.ps/1L9GPuX

(32) Rory Jones, Anat Peled & Dov Lieber, "The Postwar Vision That Sees Gaza Sliced into Security Zones," *The Wall Street Journal*, 29/6/2024, accessed on 22/7/2025, at: https://acr.ps/1L9GP7W

ب. خطورة حجم الخسائر الناجمة عن التدمير

تُقدَّر الأضرار التي لحقت بالبنية التحتية المادية، والخسائر الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن العدوان الإسرائيلي، بنحو 29.9 مليار دولار و19.1 مليار دولار على التوالي، ليصل الإجمالي إلى 49 مليار دولار، بحسب تقرير البنك الدولي[33]. ويعكس هذا الأمر شدة دمار البنى التحتية ومدى الشلل الذي أصاب الأنشطة الاقتصادية في جميع مجالاتها وقطاعاتها. ذلك أن تدمير الأصول يؤدي إلى توقف الإنتاج أو تخفيضه إلى أدنى المستويات. ويمثل هذا الحجم الكبير من الدمار وما يتطلبه من زمن طويل وموارد كبيرة، وتمويل ضخم لإعادة الإعمار، وما يترتب عليه من تعقيد لعملية إعادة الإعمار ومرحلة الإغاثة والتعافي المبكر، تحديًا كبيرًا آخر في قائمة التحديات التي تتزايد، كلما طال أمد الحرب. هذا إضافة إلى تحديات أخرى ترتبط بالخسائر، مثل تكاليف إزالة الأنقاض والمخلفات ومخاطرها والمدة الزمنية اللازمة لذلك.

ج. الضعف الاقتصادي وتهافت الهياكل الإنتاجية

سبق أن أشرنا إلى حجم الخسائر الاقتصادية، وهي في حقيقتها جزء من التدمير الشامل للأصول والمرافق والهياكل في المجتمع، ومن ثم فهي تمثل عبئًا على عملية إعادة الإعمار، التي تسعى، ضمن أهدافها، لإعادة الحياة للبنى الاقتصادية، ودعم القطاع الخاص وبناء الأصول الإنتاجية التي فقدها. ويشمل ذلك تطوير واسع النطاق للمهارات والتدريب المهني، وكل هذه التدخلات لدعم الاقتصاد ستساهم بزيادة حجم التمويل[34]. ثمّ إن العوامل الاقتصادية التي تدعم إعادة الإعمار تفقد دورها المطلوب في هذه العملية.

د. حجم التمويل المطلوب وتدخلات المانحين

يعتبر حجم التمويل المطلوب أحد أهم أوجه التحدي؛ حيث قدّرت الأمم المتحدة حجم التمويل بنحو 40–50 مليار دولار[35] وذلك في نهاية نيسان/ أبريل 2025. وقدّرَ تقييمٌ مؤقت للأضرار والاحتياجات مشترك بين البنك الدولي والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة مؤخرًا احتياجات التعافي وإعادة الإعمار بمبلغ 53.2 مليار دولار؛ أي أكثر من ثلاثة أضعاف الناتج المحلي الإجمالي السنوي المجمع للضفة الغربية وغزة[36]. بينما يرى وزير الإسكان الفلسطيني أن هناك "تقديرات من مؤسسات دولية، بخصوص تكلفة إعادة الإعمار [...] بنحو 60 مليار دولار فما فوق"[37].

---

(33) World Bank, "Impacts of the Conflict in the Middle East on the Palestinian Economy," (April 2025).

(34) العجلة وعيسى، ص 118.

(35) "UN: Reconstructing Gaza could cost $50 Billion," *VOA*, 2/5/2024, accessed on 22/7/2025, at: https://acr.ps/1L9GPvo

(36) World Bank, The European Union & The United Nations, *Gaza Strip Interim Damage Assessment Summary Note* (March 2024), accessed on 22/7/2025, at: https://tinyurl.com/ymwvnc2v

(37) "وزير الأشغال لـ'الأيام': خطة متكاملة لإعادة الإعمار"، **الأيام**، 2024/9/24، شوهد في 2025/7/22، في: https://acr.ps/1L9GPqy

تعني هذه التقديرات أن التمويل اللازم لإعادة الإعمار سيكون كبيرًا، وغالبًا، ستعتمد على التمويل الدولي خلال عقود من الزمن، وإرادة من المجتمع الدولي لتمويل إعادة إعمار غزة بعشرات المليارات من الدولارات[38]. لذلك، فإن جهود إعادة الإعمار ستكون ضخمة جدًّا، وسيكون العبء المالي أيضًا كبيرًا جدًّا. ومن ثمّ، فإن التساؤل الرئيس حيال الجهة التي سوف تتحمل نصيب الأسد، وتدفع القسم الأكبر من التمويل، سيكون مشروعًا. لكن يبدو أن الإجابة عن هذا التساؤل الملحّ ليست بالأمر السهل، إذا أخذنا في الاعتبار أن قضية تمويل المساعدات وإعادة الإعمار في غزة، وبقية الأراضي الفلسطينية المحتلة بصفة عامة، دائمًا ما كانت تتسم ببعدها السياسي. وغالبًا ما يتم الربط بين التمويل والإطار السياسي؛ فالاتحاد الأوروبي ليس لديه مشكلة في التمويل مع حل سياسي واضح وحاسم، ينهي الصراع مثل حل الدولتين، والكثير من الجهات المانحة سوف ترغب في وجود بعض الضمانات حيال المستقبل السياسي في غزة قبل إرسال أموال مرة أخرى.

هذه بعض أوجه التحديات التي ستواجه إعادة الإعمار، بما فيها التعافي المبكر والتعافي الاقتصادي؛ الأمر الذي يعكس صعوبة التنفيذ وأهميته في وقت نفسه. فلا يمكن الحديث عن إعادة إعمار ناجحة مع تباطؤ التعافي الاقتصادي أو فشله، خاصة أن الأخير يواجه تحديات أخرى نستعرضها فيما يلي:

- **تحديات الضعف الاقتصادي قبل العدوان**

كان الوضع الاقتصادي في قطاع غزة هشًّا وضعيفًا؛ من حيث تدنّي معدلات النمو الاقتصادي، وانخفاض نصيب الفرد من الناتج المحلي، وتزايد معدلات البطالة والفقر. ولعل هذه المؤشرات وحدها تعكس ضعف البنية الاقتصادية، وتناقص مساهمة القطاعات الإنتاجية، والتركيز على أنشطة قطاع الخدمات منخفضة القيمة المضافة. وذلك كله بسبب الممارسات الإسرائيلية الاستعمارية، من حصار، ومنع الوصول إلى الموارد، وصعوبة التنقل وغيرها.

لذلك سيعتمد الحكم على الوضع الاقتصادي لقطاع غزة في المستقبل، على طبيعة الترتيبات السياسية والأمنية التي ستسود في اليوم التالي للحرب؛ وهي ترتيبات ما زالت غير معلنة، ولم يتم الاتفاق عليها حتى الآن، إضافة إلى الترتيبات التي ستنظّم العلاقة الاقتصادية بين القطاع والضفة الغربية والعالم الخارجي. والأمر هنا مرتبط بتوافر عدة شروط، فضلاً عن البعد الزمني المطلوب؛ فتوافر الرؤية والخطط والتمويل الدولي اللازم، لا يعني توافر القدرة الاقتصادية للقطاع على التبلور مجددًا، كما أن العودة إلى الوضعية الصعبة التي كان عليها قبل 7 تشرين الأول/ أكتوبر ستتطلب عقودًا طويلة من الزمن[39].

(38) "Planning for the Reconstruction and Recovery of the Gaza Strip after the War," *UN News*, 6/4/2024, accessed on 22/7/2025, at: https://tinyurl.com/47vxzy7u

(39) حازم رحاحلة ومريم هاني، "الهدف الخفي للحرب الإسرائيلية على قطاع غزة: تدمر مقومات النهوض والبقاء"، **أوراق اقتصادية**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2024/10/31، ص 7، شوهد في 2025/7/22، في: https://acr.ps/1L9GPxw

وتشير الآفاق السياسية والاقتصادية والأمنية التي يمكن استنتاجها من خلال التدمير الممنهج، والإجراءات والتصريحات الصادرة عن المسؤولين والسياسيين الإسرائيليين، إضافة إلى الدعم الأميركي والغربي، والغياب التام للقانون الإنساني والدولي، إلى أن القطاع سيكون أمام واقع أكثر مرارة وتقييدًا، وأن هذه الحرب تتجاوز في أهدافها كل ما هو معلن، فهي تهدف إلى جعل القطاع بقعة جغرافية تفتقر إلى أبسط مقومات العيش والحياة[40].

وهناك جملة من التحديات السابقة للعدوان ما زالت ماثلة حتى بعد آثار العدوان المدمرة، نستعرضها فيما يأتي:

- يعاني الاقتصاد الفلسطيني في قطاع غزة، منذ عام 2007، نتيجة الصدمات الثلاث المستمرة حتى الآن، وهي صدمة الانقسام الفلسطيني، وصدمة خمس حروب إسرائيلية، وصدمة الحصار منذ عام 2008. وهذه الصدمات جعلت الاقتصاد الفلسطيني يعيش حالة عدم اليقين؛ وهي أخطر الحالات التي يمكن أن يتعرض لها أي اقتصاد. ويُطلق أيضًا على حالة الاقتصاد الفلسطيني "اقتصاد الفقاعة"؛ فبعض السنوات يحدث فيها نمو ظاهري، لكنه لا ينعكس على الوضع الاقتصادي للمواطنين، وهذا يعود إلى التشوهات والصدمات المتكررة.

- إن الاقتصاد الفلسطيني في قطاع غزة يعتمد على المشاريع الصغيرة والمتوسطة بنسبة كبيرة، بحسب الإحصاءات الرسمية للجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني. وهو كذلك اقتصاد استهلاكي، والمشكلة تكمن في غياب القيمة المضافة للقطاعات السلعية؛ الصناعية والزراعية، والتي لها دور رئيس في تنمية الاقتصاد المحلي، بل إن اقتصاد القطاع هو اقتصاد خدمي، حيث بلغت مساهمة القيمة المضافة لقطاع الخدمات في الربع الثالث من عام 2023، 29 في المئة من الناتج المحلي في قطاع غزة، في حين بلغت مساهمة القطاعَين الزراعي والصناعي مجتمعَين 16 في المئة فقط في الفترة نفسها (بناء على بيانات الجدول 4).

- وبما أن الاقتصاد الفلسطيني هو اقتصاد استهلاكي، ولديه ضعف في القطاعات السلعية، فمن المفترض أن تزداد الواردات سنويًّا باطراد مع زيادة عدد السكان. ولكن يحدث العكس؛ حيث بلغت الواردات في عام 2023 ما قيمته 1219 مليون دولار، بينما بلغت في عام 2022 ما قيمته 1508.7 ملايين[41]، وهذا مؤشر واضح دال على ترهل هذا الاقتصاد قبيل العدوان.

- وقبيل العدوان، عانت المشاريع الصغيرة والمتوسطة ضعف الحركة الشرائية، إضافة إلى ارتفاع التكاليف التشغيلية، نتيجة الانقطاع المتكرر للكهرباء، والحاجة إلى شراء سولار للمولدات الخارجية، وارتفاع تكاليف الاستيراد كثيرًا. كل هذه العوامل أثقلت كاهل المشاريع الصغيرة

(40) المرجع نفسه.

(41) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، "الإحصاء الفلسطيني وسلطة النقد الفلسطينية يستعرضان: الحصاد الاقتصاد الفلسطيني للعام 2024، والتنبؤات الاقتصادية لعام 2025"، ص 40، 2024/12/31، شوهد في 2025/7/22، في: https://tinyurl.com/mujkxvwn

والمتوسطة؛ ما أدى إلى العجز عن سداد التزاماتها المالية سواء أكانت شيكات أم قروضًا للبنوك، وهو ما انعكس على عدد القضايا المرفوعة نتيجة عدم القدرة على السداد.

- لوحظ انخفاض القدرة الشرائية للمواطن باعتباره المستهلك الرئيس بسبب الفقر وانخفاض الأجور في القطاع الخاص، وعدم استقرار نسبة صرف الرواتب في القطاع العام. وهذا ينعكس على اضطراب الاستهلاك النهائي بصفته أحد المؤشرات المهمة للحسابات القومية، وحافزًا مهمًّا للقطاع الخاص.

- اقتصار الحركة التجارية والاستيراد من الجانب المصري، عن طريق شركة أبناء سيناء المصرية، التي كانت تتحكم بنسبة كبيرة في التجار الغزيين؛ وهذا يسمى في علم التمويل، "التركز"، ذلك أن حركة الاستيراد تعتمد فقط على مصدر واحد وهو الشركة المصرية.

هذه بعض الأسباب التي جعلت الاقتصاد الفلسطيني في قطاع غزة ينهار في الشهر الثاني من العدوان، ولك أن تتخيل أن غالبية المحال التجارية قد نفدت بضائعها مع نهاية ذلك الشهر.

• تحديات التعافي الاقتصادي بعد العدوان

تزايدت حدة التحديات التي تواجه التعافي الاقتصادي بعد العدوان؛ فمع تدمير البنية التحتية الاقتصادية والسكنية المتواصل، يصبح - كما يشير رجا الخالدي - "الحديث عن 'خسائر' في الجانب الاقتصادي، كما في جولات سابقة، غير واقعي وغير مجدٍ وغير مفيد. لذلك فإن هدف إعادة اقتصاد قطاع غزة إلى ما كان عليه قبل عام 2023 ليس كافيًا؛ ومفهوم 'التعافي' الاقتصادي لا ينطبق هنا أصلاً"[42]، والرؤية هنا ليست مستحيلة، لكن ترتبط بشرط "تلبية الاحتياجات الإنسانية غير المحسوبة لإطعام وإيواء ورعاية أكثر من مليونَي فلسطيني مشرد ونازح وجريح ومصدوم في قطاع غزة المنكوب والمتردي إلى أبعد حد منذ عام 2007"[43]. وهو شرط مهمّ وواقعي ولا يمكن تجاوزه بأي حال.

لذلك يستعرض التقرير فيما يلي التحديات التي تواجه التعافي الاقتصادي، أملاً في وضع الحلول لتجاوزها من خلال خطة الإعمار بمراحلها المختلفة.

- إن أبرز التحديات التي تواجه التعافي الاقتصادي، فضلاً عما سبق من تحديات مشتركة، هي طبيعة العلاقة مع الاحتلال. ذلك أن استمرارها كما كانت، بما تشتمل عليه من تحكم في المعابر وحصار وقيود ومنع من الوصول إلى الموارد ومنع التنقل واعتماد كلي على الاحتلال في توفير الطاقة والمياه والاتصالات وغير ذلك كثير، يعني أن مسألة تحقيق خطة التعافي الاقتصادي وإنجازها ستكون صعبة ونتائجها محدودة وستظل مشكلات الاقتصاد تراوح مكانها.

(42) رجا الخالدي، "كيف نقرأ التداعيات الاقتصادية والاجتماعية للحرب على قطاع غزة؟"، **تقييم حالة**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023/11/9، ص 1، شوهد في 2025/7/22، في: https://acr.ps/1L9GPck

(43) المرجع نفسه.

– القطاع الخاص هو شريان رئيس في الاقتصاد الفلسطيني في قطاع غزة؛ فهو يمثّل 80 في المئة من اقتصاده. وهذا القطاع عانى كثيرًا خلال العدوان، وخسائره فاقت 8 مليارات دولار، من دون احتساب البنية التحتية، بحسب إحصاءات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني[44]، ومن دون النهوض بالقطاع الخاص وتقديم كل الدعم المادي والبشري له، لن يحصل تعافٍ في هذا الاقتصاد.

– تزايد الأولويات ذات الأهمية الاستراتيجية لحياة الناس أمام المسؤولين؛ فهناك حاجة ماسة إلى حل مشكلات البنية التحتية للسكن والكهرباء والمياه والتعليم والصحة والتلوث البيئي. وفي هذا السياق، تعتبر التدخلات لتحقيق التعافي الاقتصادي مهمة من أجل تحسين الحياة الاقتصادية وسبل العيش ودعم جهود الإعمار بصفة عامة.

هناك تحديات تتعلق بالسياسات الاقتصادية وطبيعة الإجراءات المتخذة للتدخلات؛ فمثلاً قد تُشكل الضغوط التضخمية خطرًا كبيرًا خلال فترة التعافي. فمع ازدياد الطلب على السلع والخدمات، تزداد احتمالية ارتفاع الأسعار؛ ما يؤثر في القوة الشرائية، وربما يُؤدي إلى تآكل القيمة الحقيقية للدخل.

– يمكن أن تُشكّل العوامل الخارجية (التوترات الجيوسياسية الإقليمية والعالمية، والنزاعات التجارية، وأزمات الصحة العامة) تحدياتٍ فريدة. ويعني الترابط في الاقتصاد العالمي أن الأحداث في منطقةٍ واحدة قد تُسفر عن عواقب بعيدة المدى[45]، خاصة في ظل إرهاصات الشرق الأوسط الجديد، والحروب التجارية بين الولايات المتحدة الأميركية ومنافسيها خاصة الصين.

– القطاع الأكثر تضررًا هو قطاع الإسكان؛ فما زالت عملية إزالة الركام وإعادة الإعمار غير واضحة، ولم تدخل حتى لحظة كتابة هذا التقرير أي معدات للبدء في هذه العملية. وهذا القطاع مهم للتعافي؛ ذلك أنه من دون بنية تحتية، لن يكون هناك حركة تجارية. ولا يزال انقطاع الكهرباء والإنترنت مستمرًا حتى اللحظة؛ ما يعقد من عملية بدء العودة إلى الحياة الطبيعية في قطاع غزة.

– أزمة السيولة والسوق السوداء وارتفاع ثمن إيجار الوحدات السكنية لم تنتهِ، بل على العكس، إن هذه الأزمات ما زالت تتسرب وتتوسع في قطاع غزة؛ فعلى سبيل المثال، ارتفع الإيجار الشهري للشقة السكنية في مدينة غزة إلى 1000 دولار في المتوسط، بعد أن كان قبيل العدوان 250 دولارًا. وما زالت نسبة السحب النقدي تراوح بين 25 و50 في المئة في كل عملية سحب، ومن دون حل هذه الأزمات، لن يثق المواطن الفلسطيني بعملية التعافي والبدء في حياة جديدة.

(44) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، "الإحصاء الفلسطيني يستعرض واقع مؤسسات القطاع الخاص والأهلي في فلسطين 2021"، 2022/10/27، شوهد في 2025/7/23، في: https://acr.ps/1L9GPVm

(45) "Economic Recovery: Definition, Process, Signs, and Indicators."

– توقف عدد كبير من الأيدي العاملة عن العمل، إما نتيجة الفصل من الخدمة، بسبب عدم قدرة المؤسسات على دفع الرواتب، أو ما زالت هذه المؤسسات لا تستطيع العودة إلى نشاطها. وهذا التحدي يرتبط بنشاط القطاع الخاص، إلى حد بعيد، وجودًا وعدمًا. فإن نجاح خطة التعافي الاقتصادي، المتعلقة بالقطاع الخاص، تساعد في حل مشكلة الأيدي العاملة المتوقفة عن العمل.

- **طبيعة التدخلات المطلوبة لتحقيق التعافي الاقتصادي**

على الرغم من التحديات السابقة، فلا بد من خطة عملية لتثبيت الفلسطينيين في أرضهم في قطاع غزة، تضمن إعادة إعماره ودعم صمودهم هناك. تبدأ بكسر الحصار على القطاع من الجانب العربي، من دون التنسيق أو انتظار الإذن ممن يمارس الإبادة ويخطط لتهجيرهم، والتركيز على دور رئيس للسلطة في سياق خطة الإصلاحات التي تنفذها الآن وإعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية والاستعداد لإدارة غزة، وتشكيل هيئة عربية أو عربية – إسلامية تضع خطط الإعمار، وتخصص لها الميزانيات اللازمة لتنفيذها. ومن الأهمية القصوى رفع دعاوى تعويض ضد إسرائيل[46]. وفكرة التعويض خطوة مهمة، وكما يشير نصر عبد الكريم، يقع على إسرائيل التزام أخلاقي بدفع تكاليف إعادة الإعمار؛ إذ تهدف التعويضات بعد الحرب إلى ردع إسرائيل عن أي أعمال عدوانية في المستقبل[47].

وينبغي تحديد تصوّر واضح لأهداف خطة التعافي الاقتصادي وآلياتها، والاسترشاد في ذلك بالمعايير الدولية التي تعتبر مبادئ توجيهية في هذا المجال، حتى يمكن الوصول إلى أوضاع اقتصادية جديرة بالمرحلة الجديدة في سياق إعادة الإعمار، فقد قدمت الإسكوا دليلاً خاصًا بالتعافي الاقتصادي ومنعة المدن، وما يهمنا هنا هو المعايير الرئيسة لتحقيق ذلك، ومن الأمثلة التي يمكن طرحها[48]:

– خطط الإنعاش الاقتصادي: تهدف إلى إدارة جهود إنعاش اقتصادي فعالة ومرنة وتنفيذها، وتحديد الأولويات، وتعبئة الموارد، وتنسيق الجهود بين مختلف الجهات الفاعلة.

– أدوات التشخيص والتخطيط: تساعد على تقييم وضع المدينة الاقتصادي، وتحديد نقاط القوة والضعف، ووضع خطط للتغلب على التحديات وتحقيق أهداف التعافي والمنعة.

– التكامل الاقتصادي: يساهم في تعزيز النمو الاقتصادي، وخلق فرص العمل، وزيادة الاستثمار، وتحسين قدرة المدن على التكيف مع التغيرات.

(46) "خطة ترامب لتهجير سكان قطاع غزة: أصل الفكرة، آفاقها، وتداعياتها"، **تقدير موقف**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2025/2/10، ص 4، شوهد في 2025/7/22، في: https://acr.ps/1L9GP3D

(47) نصر عبد الكريم، "تأثير الحرب في الاقتصاد الفلسطيني مع التركيز على الاقتصاد في قطاع غزة"، **ورقة سياسات**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، العدد 58 (شباط/ فبراير 2024)، ص 16، شوهد في 2025/7/22، في: https://tinyurl.com/4etardy6

(48) الإسكوا [وآخرون]، **التعافي الاقتصادي ومنعة المدن: أداة للتشخيص والتخطيط** (حزيران/ يونيو 2022)، شوهد في 2025/6/30، في: https://tinyurl.com/2uab7w9f

– الاستثمار في البنية التحتية: يساهم في تعزيز منعة المدن، وتحسين قدرتها على التكيف مع التغيرات، وتسهيل التعافي الاقتصادي.

– تنويع مصادر الدخل: يقلل من الاعتماد على قطاع واحد، ويزيد من قدرة المدينة على مواجهة الصدمات الاقتصادية.

من المهم جدًّا تأكيد أهمية المبادئ العامة لاستخدام السياسات مثل ضرورة توافر أسس الحوكمة في هذه التدخلات والشفافية والاستدامة والتكامل التام مع خطط التعافي المبكر وإعادة الإعمار، وكذلك متطلبات التمويل وحجمه وتوافره. وفي هذا السياق، يؤخذ في الاعتبار الفترة التي تحتاج إليها الأهداف للتحقق على المدى القصير والمتوسط والطويل.

خاتمة

يوضح هذا التقرير أن العدوان الإسرائيلي الأخير قد أدى إلى أضرار اقتصادية جسيمة على قطاع غزة، تجلّت في تدهور المؤشرات الاقتصادية الرئيسة، بما في ذلك انخفاض الناتج المحلي الإجمالي، وتراجع أداء القطاعات الإنتاجية الأساسية، وارتفاع معدلات البطالة، والفقر، وانعدام الأمن الغذائي. وقد اعتمد التقرير في قياس حجم هذه الأضرار على مؤشرات اقتصادية كمية، أبرزها مؤشر عدد الهجمات العسكرية، الذي يعكس بصفة مباشرة حجم الضرر الاقتصادي وانتشاره وتأثيره في القطاعات الاقتصادية المختلفة.

وبيّن التقرير تحديدًا الفارق الجوهري بين الرؤية السياسية العامة من جهة، وخطط التعافي الاقتصادي القابلة للتنفيذ العملي من جهة أخرى. وأوضح ضرورة تحويل التوجهات السياسية إلى إجراءات وبرامج اقتصادية تفصيلية، تُحدّد فيها المسؤوليات ومصادر التمويل وآليات التنفيذ والمتابعة على نحوٍ واضح وعملي.

وتناول التقرير أيضًا التحديات الهيكلية التي تواجه الاقتصاد الفلسطيني في مرحلة ما بعد العدوان، خاصة القيود التمويلية، واستمرار حالة الحصار، إضافةً إلى ضعف البنية الإنتاجية وتشتتها؛ ما يستوجب اعتماد سياسات اقتصادية أكثر وضوحًا وواقعيةً، من أجل تعزيز فرص استعادة النشاط الاقتصادي وإعادة الإعمار على نحو مستدام.

توصيات

يخلص هذا التقرير إلى مجموعة من التوصيات، وهي في مجملها سياساتية، تسعى لبلورة الخطوات اللازمة والمطلوبة لتحويل التعافي الاقتصادي إلى واقع ملموس. وتساعد متخذي القرار في تحويل الخطط إلى برامج وإجراءات.

1. فكرة الدخل الأساسي الطارئ: تتعلق بتقديم دعم مالي للأفراد في حالات الطوارئ، كما في غزة. وفقًا لتجارب دولية مشابهة، يتم توفير دخل أساسي متساوٍ لكل فرد بالغ بمبالغ متساوية، مع تقديم

مبالغ أقل للأطفال وإضافات إلى الأشخاص ذوي الإعاقات. الهدف من ذلك هو ضمان الأمان المالي للجميع من دون شروط للحصول على المعونة أو تحديد كيفية إنفاقها. يجب أن يكون هذا الدعم المالي لمدة عامين على الأقل، ويعتمد ذلك على توافر التمويل. من المستحسن إنشاء هيئة مستقلة لإدارة صندوق الإغاثة والإعمار وتوزيع الأموال المخصصة لذلك[49].

2. الاهتمام بالتعافي الاقتصادي وإعطاؤه الدور المناسب بالتوازي مع خطط الإنعاش المبكر وإعادة الإعمار، بما في ذلك توفير الموازنات اللازمة من خلال التمويل المتوافر لعملية الإعمار.

3. إعادة تنشيط القطاع الخاص المحلي والاقتصاد المحلي على نحو سريع، لدعم الإعمار، ودعم التدخلات المناسبة، لتفعيل دوره في إعادة تأهيل وحدات الإسكان المتضررة.

4. على المؤسسات البحثية الخاصة أن تضاعف جهودها في توفير المعلومات والدراسات والموازنات اللازمة لتتبع تطور آثار العدوان الاقتصادية والاجتماعية، وأن تهتم باستطلاعات الرأي الميدانية كلما كان ذلك ممكنًا.

5. يجب أن تبذل السلطة الوطنية الفلسطينية جهدها في أن تكون الفاعل الأساسي في هذا المجال؛ ما يعني أن تكون عملية إعادة الإعمار فلسطينية كلّها، مع توافر الأسباب السياسية اللازمة لنجاح العملية، وتشكيل الفرق الوطنية الفنية اللازمة لذلك، في سياق التوافق الوطني العام.

6. الحرص على بلورة اتفاقات جديدة مع الاحتلال الإسرائيلي لتصحيح طبيعة العلاقة الاقتصادية معه، والخروج من حالة التبعية إلى حالة تسمح بتوافر الأسس اللازمة للاستقلال الاقتصادي، مثل اتفاقية التجارة الحرة بدلاً من الاتحاد الجمركي غير المتكافئ.

7. إعطاء القطاع الخاص الدور الرئيس في عملية التنمية والتعافي الاقتصادي، من خلال السياسات الاقتصادية الملائمة والمحفزة، وفي سياق مبادئ التخطيط التأشيري.

المراجع References

العربية

الإسكوا [وآخرون]. **التعافي الاقتصادي ومنعة المدن: أداة للتشخيص والتخطيط** (حزيران/ يونيو 2022). في: https://tinyurl.com/2uab7w9f

الأمم المتحدة. الإسكوا. **الحرب على غزة: تداعيات مدمرة غير مسبوقة** (تشرين الأول/ أكتوبر 2023). في: https://acr.ps/1L9GP1t

(49) جاي ستاندنج، "دخل أساسي طارئ لفلسطين"، **ورقة خلفية: طاولة مستديرة (1)**، معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني (ماس) (شباط/ فبراير 2024)، شوهد في 2025/7/22، في: https://cutt.ly/krALs05s

الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني. "الإحصاء الفلسطيني يعلن مؤشر غلاء المعيشة خلال شهر أيار". (أيار/ مايو 2025). في: https://acr.ps/1L9GP6k

_____. "الأسعار والأرقام القياسية النشرة السنوية 2024" (2025). في:
https://tinyurl.com/bcctwpd3

_____. "جدول الغلاء المعيشي لعام 2023". 2024/1/4. في: https://tinyurl.com/45tw9nd9

_____. **أداء الاقتصاد الفلسطيني 2024** (رام الله: 2025). في: https://tinyurl.com/ytasp5jv

_____. **التقرير الصحفي للحسابات القومية الربعية (الربع الرابع)** (2025). في:
https://tinyurl.com/24h5uaun

_____. **مسح القوى العاملة خلال العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: واقع وحقائق الدورة الأولى (تشرين الثاني – كانون الأول، 2025. تقرير النتائج الأساسية)** (رام الله: نيسان/ أبريل 2025). في: https://tinyurl.com/4r3wvznz

الخالدي، رجا. "كيف نقرأ التداعيات الاقتصادية والاجتماعية للحرب على قطاع غزة؟". **تقييم حالة.** المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. 2023/11/9. في: https://acr.ps/1L9GPck

رحاحلة، حازم ومريم هاني. "الهدف الخفي للحرب الإسرائيلية على قطاع غزة: تدمر مقومات النهوض والبقاء". **أوراق اقتصادية.** المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. 2024/10/31. في:
https://acr.ps/1L9GPxw

ستاندنج، جاي. "دخل أساسي طارئ لفلسطين". **ورقة خلفية: طاولة مستديرة (1).** معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني (ماس) (شباط/ فبراير 2024). في: https://cutt.ly/krALs05s

سلطة النقد الفلسطينية. "تقرير التضخم: الربع الرابع 2023". دائرة الأبحاث والسياسة النقدية (شباط/ فبراير 2024). في: https://acr.ps/1L9GPEx

عبد الكريم، نصر. "تأثير الحرب في الاقتصاد الفلسطيني مع التركيز على الاقتصاد في قطاع غزة". **ورقة سياسات.** مؤسسة الدراسات الفلسطينية. العدد 58 (شباط/ فبراير 2024). في:
https://tinyurl.com/4etardy6

العجلة، مازن ومحمود عيسى. "التداعيات الاقتصادية للحرب الإسرائيلية على قطاع غزة وكلفة إعادة الإعمار". مركز فينيق للأبحاث والدراسات الحقلية (غزة: 2024). في: https://tinyurl.com/mrprycex

المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الإستراتيجية (مسارات). **سيناريوهات العدوان على غزة – تقرير استراتيجي.** مسودة أولية (آب/ أغسطس 2024). في: https://tinyurl.com/5h2j6ffe

معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني (ماس). "الفقر متعدد الأبعاد في قطاع غزة: ماذا يمكن للسياسات أن تفعل؟". **ورقة خلفية: جلسة طاولة مستديرة رقم 4** (2025). في:
https://acr.ps/1L9GPnU

الأجنبية

Cluster Working Group on Early Recovery (CWGER). *Guidance note on Early Recovery* (April 2008). at: https://acr.ps/1L9GPJJ

International Labour Organization & Palestinian Central Bureau of Statistics. *Impact of the War in Gaza on the Labour Market and Livelihoods in the Occupied Palestinian Territory: Bulletin No. 3*. Beirut, Lebanon: ILO Regional Office for Arab States, 18/3/2024. at: https://acr.ps/1L9GPzQ

International Labour Organization. *Gaza Crisis: Impact on Labour Markets and Livelihoods in the Occupied Palestinian Territory*. Beirut: ILO Regional Office for Arab States, 2023. at: https://acr.ps/1L9GPYl

UN Trade and Development (UNCTAD). "Economic Costs of the Israeli Occupation for the Palestinian People: The Economic Impact of the Israeli Military Operation in Gaza from October 2023 to May 2024." 10/9/2024. at: https://acr.ps/1L9GPHu

_____. "Developments in the Economy of the Occupied Palestinian Territory." *TD/B/EX*. vol. 74, no. 2 (September 2023). at: https://tinyurl.com/ycx57vky

UNDP. ESCWA. "Gaza War: Expected Socioeconomic Impacts on the State of Palestine." *Policy Breif*. no. 2 (May 2024). at: https://acr.ps/1L9zPDv

World Bank. "Note on the Impacts of the Conflict in the Middle East on the Palestinian Economy." *World Bank Economic Monitoring Report* (February 2024). at: https://tinyurl.com/yr64tbpd

_____. "Impacts of the Conflict in the Middle East on the Palestinian Economy." *World Bank Economic Monitoring Report* (April 2025). at: https://tinyurl.com/nzv5a75z

World Bank, The European Union & The United Nations. *Gaza Strip Interim Damage Assessment Summary Note* (March 2024). at: https://tinyurl.com/ymwvnc2v

صدر حديثًا

محمد بهضوض

ما بعد الحقيقة

العقل في مواجهة الجهل والتفاهة والتضليل

يقدم الكتاب دراسة معمقة لظاهرة "ما بعد الحقيقة"، وهو موضوع راهن يثير أسئلة مقلقة حول مفهومه، ومظاهره، ونتائجه، واستجابات الإعلام والجمهور وردّات الفعل الوطنية والدولية تجاهه، وآفاقه المستقبلية. ويتناول الكتاب إشكالية اللغة والمفاهيم، محلِّلاً القديمة منها كالكذب والحقيقة والتضليل، والحديثة، الأميركية النشأة مثل "ما بعد الحقيقة" و"الأخبار الزائفة" و"الوقائع البديلة"، ويسعى لتعريفها في سياقاتها المتبادلة. ويستنتج أن الحقيقة مرتبطة بالفلسفة ونظرية المعرفة، ويوضح علاقتها المركبة بالاتصال، حيث يمكن وسائل الإعلام أن تخدمها أو تتنكر لها.

ويتناول المؤلف الجانب التطبيقي، باستعراضه ستة أمثلة لتمظهرات ما بعد الحقيقة: السياسة (ارتباطها بالانتخابات الشعبوية وتراجع الديمقراطية)، والاقتصاد (اعتماد الرأسمالية على التضليل الإعلاني)، والعلاقات الدولية (الحروب المعنوية ونشر الأخبار الزائفة)، والعلم (التشكيك في الحقائق العلمية)، والثقافة (استغلال النسبيّة والتعددية ثقافيًا وسياسيًا)، والرقمنة (دور شبكات التواصل في نشر الأخبار الزائفة).

مراجعات الكتب
Book Reviews

سقف أحمر، 120×110 سم، مواد مختلطة على قماش (2025).
Red roof, 120x110 cm, mixed media on canvas (2025).

عُمران omran
المعرّف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/XFEG2402

رشيد جرموني | Rachid Jarmouni*

مكة في المغرب: تمثلات الحج الإسلامي في الحياة اليومية المغربية

Mecca in Morocco: Articulations of Muslim Pilgrimage in Moroccan Everyday Life

عنوان الكتاب:	**مكة في المغرب: تمثلات الحج الإسلامي في الحياة اليومية المغربية.**
عنوان الكتاب في لغته:	*Mecca in Morocco: Articulations of Muslim Pilgrimage in Moroccan Everyday Life.*
المؤلفة:	خلود العجارمة Kholoud Al–Ajarma.
الناشر:	إدنبرة: مطبعة جامعة إدنبرة Edinburgh University Press.
سنة النشر:	2024.
عدد الصفحات:	328.

* أستاذ علم الاجتماع في جامعة مولاي إسماعيل بالمغرب، وأستاذ زائر في برنامج علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بمعهد الدوحة للدراسات العليا.

Professor of Sociology at Moulay Ismail University, Morocco, and Visiting Professor in the Sociology and Anthropology Program at the Doha Institute for Graduate Studies. Email: r.jarmouni@umi.ac.ma

مقدمة

راكم حقل سوسيولوجيا وأنثروبولوجيا الأديان في المغرب عدداً كبيرًا من الدراسات، وطوّر نماذج تفسيرية نظرية ومؤشرات كمّية في رصد الظاهرة الدينية[1]، لكنّ الاهتمام بدراسات ميكرو-أنثروبولوجية في فهم طقوس الدين، كالصلاة والزكاة والصوم والحج، بقي محدودًا جدًّا[2]. وفي سياق هذا "العطش الإبستيمولوجي"، يتنزل كتاب خلود العجارمة **مكة في المغرب: تمثلات الحج الإسلامي في الحياة اليومية المغربية** ليبحث طقس الحج عبر منهج إثنوغرافي، ويتساءل: كيف يعمل هذا الطقس على إنتاج قيم دينية وهوياتية ووطنية، ومن ثم ترسيخها وإعادة إنتاجها؟ وكيف يتمظهر هذا الطقس في حياة المغاربة اليومية؟[3] وكيف تنعكس نظرتهم إلى الحج في ممارساتهم اليومية والعادية وعبر شبكاتهم الاجتماعية الأوسع؟ وكيف يعكس هذا الطقس التراتبيات الاجتماعية والعلاقات بين الجنسين؟ وما التفاوضات التي يقيمها الممارسون لهذا الطقس بين الديني والدنيوي؟ وما السرديات الاجتماعية التي بُنيت حول هذا الطقس في حياة المغاربة؟ للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، تضمّن الكتاب عشرة فصول، إضافةً إلى مقدمة وخاتمة.

في الإجابة عن سؤال: لماذا دراسة طقس الحج في المغرب؟ توضح المؤلفة أن ذلك نابع من أنها لم تجد دراسات حول الموضوع، وثانيًا لأن الدراسات الأنثروبولوجية عن المغرب، بقيت منحصرة في ثيمات تقليدية كدراسة الأولياء والزوايا والتدين الشعبي والتصوف والقبيلة والسلطة، باستثناء بعض الدراسات القليلة والنادرة، التي ركزت على الطقوس الدينية. وبطبيعة الحال، سوف يلاحظ الباحث المتخصص في سوسيولوجيا الأديان، وفي أنثروبولوجيا الأديان أيضًا، أن المؤلفة، بحكم أنّها خارجية من حيث الموضعة، ربما ليست لها دراية كافية بالكثير من الدراسات التي نُشرت في السنوات الأخيرة حول "الخريطة"

(1) ينظر:

André Adam, *Une enquête auprès de la jeunesse musulmane du Maroc*, Série travaux et mémoires 28 (Rabat: Publications des Annales de la Faculté des lettres, 1963); Mohamed Tozy, "Champ et Contre Champ Politico–Religieux au Maroc," Thèse D'Etat, Université Aix–Marseille III, 1984; Rahma Bourqia, Mokhtar El Harras et Driss Bensaid, *Jeunesse estudiantine Marocaine: Valeurs et stratégie,* Faculté des lettres et des sciences humaines de Rabat (Casablanca: EDDIF, 1995); Mohamed Chekroun, *Jeux et Enjeux culturels au Maroc* (Rabat: Édition Okad, 1990); Mohamed Ababou, *Changement et Socialisation de l'identité Islamique* (Fès: Éditions du Ministère de l'Enseignement Supérieur de la formation des cadres de la recherche scientifique du Maroc, 2001); Mohamed El Ayadi, Hassan Rachik & Mohamed Tozy, *L'islam au quotidien: Enquête sur les valeurs et les pratiques religieuses au Maroc*, Religion et société, Mohamed–Sghir Janjar (Coord.) (Casablanca: Editions Prologues, 2007);

رشيد جرموني، **الدين والإعلام: في سوسيولوجيا التحولات الدينية**، ط 2 (الرباط: دار القرويين للنشر والتوزيع، 2022).

(2) في المقابل، راكم الباحثون من خارج السياق العربي – الإسلامي العديدَ من الدراسات في هذا الحقل. ينظر:

Rémy Delage, "Le pèlerinage contemporain en sciences sociales: Moments, bifurcations, nouveaux horizons," *Archives de sciences sociales des religions*, vol. 180 (2017), pp. 155–167; Ian Reader, "Breaking Barriers, Eroding Hegemony: Reflections on the Importance of Multilingual Studies of Pilgrimage beyond the Anglophone World," in: Dionigi Albera & John Eade (eds.), *New Pathways in Pilgrimage Studies: Global Perspectives* (London: Routledge, 2017); Simon Coleman & John Eade (eds.), *Contesting the Sacred: The Anthropology of Christian Pilgrimage* (London/ New York: Routledge, 1991); Simon Coleman & John Eade (eds.), *Reframing Pilgrimage: Cultures in Motion* (London: Routledge, 2004).

(3) يُقصد بالمغاربة في هذه المراجعة أهل المملكة المغربية، وليس إقليم المغرب العربي.

التدينية بالمغرب وتحوّلها، سواء تلك الصادرة عن مؤسسات جامعية أو عن مراكز أبحاث أو على صيغة مقالات وكتب فردية وجماعية، لا سيّما المنشورة منها بالعربية أو الفرنسية[4].

أولاً: الإطار النظري والمفهومي والمنهج البحثي

عرضت المؤلفة في الفصل الأول، على نحوٍ مكثف، مختلف المناقشات النظرية والرؤى المنهجية المعالجة لتجربة الحج. وكشفت في هذا السياق عن كثافة توظيف مفهوم "الطقوس"، الذي يعود تجذيره في حقلَي السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا إلى إميل دوركهايم Émile Durkheim. بيد أنها أحالت على الباحثَين أرنولد فان جينب Arnold van Gennep وفيكتور تورنر Victor Turner، اللذين طوّرا هذا المفهوم/ الإطار النظري ليبحثا في "طقوس العبور"، ولتبرز إمكانية فهم "الحج بوصفه انتقالاً من البنية المألوفة والحياة اليومية إلى حياة مميزة بطقوس عالية التنظيم، تتميز بـ"اللاهيكلية" أو "غياب الهيكلة" (ص 16). وهذا يعني أنّ الحجّاج عندما يدخلون تجربة الحج، ينسلخون من الحياة اليومية الروتينية ومن كل الروابط العادية، متطلّعين إلى القدسي والمتعالي، وهو ما يجعل طقوسه تجسّد "طقس العبور" في صورة جلية. كما استدعت المؤلفة مفهوم ممارسة الحياة اليومية The Practice of Everyday Life، بالاعتماد خصوصًا على ميشيل دو سيرتو Michel De Certeau، ومن ثمّ تطويره في صيغة مفهوم "الإسلام اليومي" Lived Religion ليتسنى لها التركيز على أشكال التدين كما هي ممارسة في الحياة اليومية؛ وبما يشمل الأقوال والأفعال والممارسات والطقوس والكلام والتعبيرات والرموز والصور والتمثلات، وما إلى ذلك (ص 22).

من جهةٍ أخرى، انشغلت المؤلفة، في سعيها لبناء إطار البحث النظري، بحالة السفر للقيام بالحج وما تولّده من إحساس بالهامشية، ينتج منه "شعورٌ بالوحدة والتآخي" مع الآخرين، موضحةً أنّ هذا المنوال النظري واجه العديد من الانتقادات، من بينها القول إن تجارب الحج واختلاف بيئاتها السوسيوثقافية والسوسيوتاريخية، تُظهر أن أشكالاً أخرى من العلاقات الاجتماعية تنبني في سياقه، كالتنافس والصراع. فرغم أن الحج يعني التشبع بقيم السلم والإخاء والتسامح، فإن هذه النظرة "المثالية" تصطدم بواقع مخالف. وتحيل المؤلفة في هذا النقاش على جون إيد John Eade وميشيل سالنو Michael Sallnow، اللذَين يقترحان "نظرية بديلة للحج بوصفه حقلاً للخطابات المتنافسة التي ينبغي تحليلها في سياقات اجتماعية محددة وفقًا لمعانٍ تاريخية وثقافية محددة" (ص 17). ومن خلال مراجعة هذا التراكم النظري الذي يعود في أغلبه إلى السياق الأوروبي والغربي المستند إلى مرجعية مسيحية كاثوليكية، خلصت المؤلفة إلى منظور يتأسس على المزج بين مفهومَي الجماعوية Communitas والاحتجاج Contestations؛ إذ أكدت أن "من خلال جميع التحليلات النظرية المعقدة الموجودة في الأدبيات، يمكن استنتاج أن الحجّ يمثّل تجربة فردية واجتماعية، تاريخية

(4) تجدر الإشارة إلى أن الباحثة وهي تشير إلى هذه الدراسات، لم تستحضر الدراسات التي أعدّها باحثون مغاربة من الداخل، ينظر على سبيل المثال:

Mohammed Ababou, Reida Ababou & Abderrahman El Maliki, "Le jeûne du Ramadan au Maroc: Un dilemme pour les patients diabétiques et les soignants," *Sciences sociales et santé*, vol. 26, no. 2 (2008), pp. 79–104.

ومعاصرة، دينية ودنيوية، ويشمل جوانب من الجماعوية والاحتجاج" (ص 20–21). وهذا يعني أن الباحثة استخلصت، من خلال مراجعتها للعديد من الأطر النظرية والمفهومية التي وظفت في دراسة طُقس الحج، أنه لا يمكن فهم هذا الطقس بالتركيز على الجوانب المضيئة فيه فحسب، كقيم التضامن والتآخي أو ما سمّته بمفهوم "الجماعوية"، التي تعني القيم الجماعية التي توحّد الكل في بوتقة واحدة، بل وجب أن ينظر إليه، باعتباره أيضًا طقسًا يحضر فيه التوتر والصراع والخيبة والقلق، وكل القيم المضادة لمعانيه السمحة، وذلك ما يميز هذه التجربة التدينية المتكوّنة من ممارسات ومواقف وسلوكات واتجاهات مشروطة بالتجربة التاريخية البشرية والنسبية وما يخترقها من تناقضات وتوترات معلنة حينًا ومخفية حينًا آخر.

أما بخصوص المنهج البحثي، فقد استندت المؤلفة إلى المنهج الإثنوغرافي، باعتماد تقنية الملاحظة بالمشاركة، على اعتبار أن ذلك كفيل، في نظرها، بمعالجة الممارسات التديّنية عند الحجاج، وتقديم فهم "عميق لحياة الناس بوصفهم أفرادًا، وفي نفس الوقت يتيح للمراقب تقييم التفاعلات التي تحدث في عالمهم الاجتماعي" (ص 27).

ميدانيًا، استغرق البحث ثلاثة مواسم حج؛ ما مجموعه ثمانية عشر شهرًا في المغرب بين صيف 2015 وشتاء 2017، حيث تمكنت المؤلفة من مقابلة أزيد من مئة مشارك ومشاركة في البحث، وجمعت ما يناهز خمسمئة صفحة من المعطيات الإثنوغرافية، علاوةً على زيارة مكّة المكرمة استغرقت أسبوعين، حتى تشهد كيف يُمارَس طَقسا الحج والعمرة. وهناك انتهجت الملاحظة بالمشاركة للتمكّن من الغوص في استكشاف تمثلات الحج لدى المغاربة، وكيف تُبنى السرديات الاجتماعية لطقس الحج. وقد زارت خلال عملها الميداني العديد من المدن المغربية، وهي: الدار البيضاء، والرباط، والمحمدية، وفاس، وآسفي، ووزان، والحسيمة، ومكناس، ومولاي إدريس زرهون، ومراكش، وورزازات، والجديدة.

ثانيًا: ما قبل الحج وأثناءه وما بعده

بما أن الفرد المسلم الراغب في الحج لا يفعل ذلك إلا مرة واحدة طوال حياته في الغالب، ونظرًا إلى التعقيدات الإدارية التي تفرضها المملكة العربية السعودية على الوافدين عليها للحج بتخصيص نسبة محددة لكل بلد من مجموع الحجاج، صار هذا الطقس، أكثر من أي وقتٍ مضى، محاطًا بهالة من القداسة والاستيهاماتِ والتمثلات الاجتماعية، التي يمتزج فيها ما هو معقول بما هو غير معقول. دعا ذلك المؤلفة إلى تخصيص الفصول الثلاثة الأولى من القسم الأول من الكتاب، للوقوف عند مرحلة ما قبل الحج (الفصل الأول)، وهي مرحلة الاستعدادات النفسية والاجتماعية والمالية وغيرها، ما يشكّل أولى العقبات التي يكون على المقبلين على الحج أن يمروا بها. ولعل أهم ما توصلت إليه، في هذه المرحلة الأولى من مراحل الاستعداد للحج، أن طقس الحج مترسخ في البنى العميقة للمجتمع، بحيث تصاحبه العديد من الطقوس مثل تنظيم الحفلات والولائم لتوديع الحاجّ والحاجّة، مع ما تتأسس عليه من تراتبيات اجتماعية وطبقية وفئوية وجندرية تعيد إنتاج بنى المجتمع. بمثل هذه الممارسات، ورغم أن طقس الحج واحد

وأنه يدخل في إطار المقدس، فإن الديناميات الاجتماعية تجعله يقع ضمن منطقة التفاوض بين الديني والدنيوي.

أما الفصل الثاني، فقد خصصته المؤلفة، لاستجلاء التجربة المباشرة في ممارسة الحج في الديار المقدسة، وقد مثّل هذا الفصل واسطة العقد في الكتاب كلّه، لأنه انتبه إلى أن تجربة الحج هي تجربة حسية تمرّ عبر الحواس الخمس، من لمس وذوق وشم وبصر وسمع، برعت المؤلفة في استجماع معطيات مباشرة تحيل عليها، مما يتلفظه الحجاج ويحسونه ويلمسونه ويرونه ويتذوقونه. وفي روايات الحجاج حول تجاربهم الطقسية تمتزج حواسّهم كلّها. فرؤية الكعبة أول مرة تثير كثيرًا من المشاعر الفياضة، كالبكاء والشوق والحنين. أما زيارة قبر الرسول محمد فهي لحظة مفعمة بالعواطف الجياشة والأحاسيس المرهفة، في حين أن شرب ماء زمزم، وتذوّقه على أنه ماء مقدس يشفي من كل العلل، بحسب ما يعتقده الحجاج، يمثّلان لحظة فارقة في تتبّع تجارب الحجاج التطهرية تحيل على معنى الولادة الجديدة. في هذا الصدد، تشير المؤلفة إلى أنّ "المشاعر المقدسة والحسية التي تثير العواطف تتداخل في علاقة معقدة، وهذا ما يؤكده الحجاج، الذين غالبًا ما يدّعون أن تجربة الحج نفسها تتجاوز الكلمات، إن لم تكن تتجاوز الفهم" (ص 98).

وخصصت المؤلفة الفصل الثالث لمرحلة العودة من الحج، وما يكتنفها من توترات بين المثال التديّني والواقع المعيش. فبعد تجربة روحية مكثفة، يعود الشخص إلى بلده، حاملاً لقب "الحاجّ" أو "الحاجّة"، وهو لقب يضفي عليه هالة اجتماعية وتمييزًا أخلاقيًا ودينيًا. بيد أنه، مثلما كشفت تصريحات المشاركات والمشاركين في البحث، يعيش توتّرًا على وقع مفارقات الطهارة الروحية و"التدنّس" الدنيوي الذي لا يستطيع الانفكاك منه. وفي هذا السياق، عملت المؤلفة على العودة إلى إطارها النظري الذي انطلقت منه في بداية دراستها، والذي انبنى على التوتر بين التآخي والروحانية التي تجتاح الحاجّ في مساره الطقوسي الذي يعبر به من حال إلى حال، وعلى التوتر الذي يخترق الحياة الاجتماعية، من جرّاء سلوكيات الحاجّ ومواقفه في الحياة اليومية، وما قد ينتج منها من مخالفة لـ"الصفاء الروحي" الذي كان قد توشّح به قبل عودته من مكة.

ثالثًا: الحج: الهوية الوطنية والتدبير السياسي والجندر

لم يكن طقس الحج في يوم من الأيام معزولاً عن الأنساق السياسية والاجتماعية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي يندرج فيها، فهذا الركن الأعظم في الإسلام، يمثّل عنصرًا مُبَنِينًا لكل الحقول الاجتماعية، من خلال علاقة الديني بالسياسي، وبالتدبيري (بالمعنى الاقتصادي)، والروحاني بالسياحي في إطار ما صار يُعرف بالسياحة الدينية، وعلاقة الهيمنة بين السلطة الأبوية والسلطة السياسية. فكيف عالج الكتاب هذه الثنائيات؟

يقرّبنا الفصل الرابع، وهو الأول من القسم الثاني، من كيفية استدعاء القيم الوطنية خلال الحج، عبر الارتباط بالدولة، خصوصًا أن من يرأسها في المغرب أميرٌ للمؤمنين. فالحج

مسألة حساسة عند المخزن[5] (كناية عن الدولة). لذلك، سعى للتحكم في تنظيمه وتأطيره عبر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، التي تعدّ من وزارات السيادة، بمعنى أنها خارج التداول الحزبي والانتخابي. لذلك، نفهم السبب الذي يجعل الملك يوجّه كل سنة رسالة إلى موكب الحجيج المغربي مع أول رحلة من الرحلات التي تحملهم إلى السعودية، حاثًّا إياهم على أن يكونوا سفراء للمغرب في الديار المقدسة. ورغم أن اللباس المغربي يبقى مميزًا للحجاج المغاربة، فإن حمل العلم الوطني ونصب الخيام المزيّنة به، ووجود المرشد الديني الذي يدعو للملك في كل أركان الحج التي يؤدونها وهم في خشوع وتذلل للرحمن، أعمال تدل كلّها على منزع هوياتي – ديني وطني بالغ الأهمية (ص 113). في المقابل، بينت المؤلفة، من خلال إجابات بعض الحجاج والحاجات، خصوصًا من الفئة العمرية الشابة والمتعلمة، أنهم يوجهون انتقادات حادة للتدبير الحكومي المغربي لملف الحج[6]، سواء كان ذلك بسبب الأثمان الباهظة التي تُثقل كاهل الحجاج خصوصًا من الفئات المتوسطة، أو بسبب تنظيم عملية الإيواء والمرافقة والمواصلات، وما إلى ذلك من الإجراءات التي أثارت شكاوى واحتجاجات وغضبًا وتوترًا، ما لبث أن انفجر كلّه في شبكات التواصل الاجتماعي اليوم[7].

وارتباطًا بنفس ثيمة علاقة السياسي بالديني في تدبير طقس الحج، استطلعت المؤلفة آراء أفراد العيّنة في تدبير السعودية لهذا الطقس. وقد كشفت أنهم غير راضين عن التغييرات التي شملت العديد من المآثر التاريخية والقبور والمساكن والمجالات التي كان يعيش فيها الرسول أو صحابته. وقد عبّروا أيضًا عن سخطهم إزاء فرض "الإسلام الوهابي" باعتباره رؤية وحيدة وموحّدة للنص الديني، وخصوصًا فرض نوعٍ من اللباس على النساء ومنعهن من التبرك – كما اعتدن ضمن الثقافة الدينية المغربية – بمسجد الرسول وغيره من الأماكن المقدّسة. ومن مثالب الحج لدى المغاربة بحسب المؤلفة عدد الضحايا في كل موسم؛ بسبب التدافع أو بسبب أشغال التوسعة وما إلى ذلك، على الرغم من إقرارها بوجود آراء متناقضة بخصوص الموت في مكة، بين اعتباره ميزة لا يحظى بها إلا من أحسن "النية" إلى الله، وبين عدّه دليلاً على الفشل في تدبير الحج وتيسير حركية الحجاج (ص 109).

ويبدو مما عرضته المؤلفة أن التمييز الجندري بين الرجال والنساء بيّنٌ أثناء الحج. وهو ما يظهر

(5) يعود توظيف هذا المفهوم إلى الإرث الأنثروبولوجي الكولونيالي الذي عمل على الاشتغال على الثنائيات المتعارضة (المخزن/ السيبة، والشرع/ العرف، واللغة العربية/ اللغة الأمازيغية). ينظر:

Robert Montagne, *Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc, Essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires (Groupe Chelouh)* (Paris: F. Aclan, 1930).

(6) يحكي عبد الله حمودي أنه اضطر إلى تقديم رشوة كي يتمكن من تسجيل اسمه في قوائم/ لوائح المترشحين للحج. وهي رواية تدل على جرأة الباحث وشجاعته، وتكشف، من جهة أخرى، عن كيفية تحوّل الحج إلى مجال لانتعاش زبونية ومسلكيات لاأخلاقية. يقول حمودي: "استطعت أن أتسجّل في لوائح الحج بمساعدة عون من الرتبة الدنيا. هذا الأخير جعل نفسه في خدمتي مقابل قدر معين من المال اتفقنا على تسميته 'صَدَقة'. كان يخاطبني سلفًا باللقب العظيم للحاج، ويسمي 'بركة' كدفعة من الحساب أؤديها له". عبد الله حمودي، **حكاية حج: موسم في مكة**، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي (بيروت: دار الساقي، 2010)، ص 30.

(7) من بين التحديات البحثية التي رشحت في الآونة الأخيرة، خصوصًا مع الانفجار التكنولوجي، كيفية رصد الباحثين في حقل الأنثروبولوجيا للعديد من الظواهر التدينية في علاقتها بالإنترنت. ولعل في بلورة تقنية "النيتنوغرافيا" الحديثة في دراسة التفاعلات التي تقع في عالم الإنترنت، ما يفيد منهجيًا الموجة الجديدة من البحث في هذه الثيمات.

في السلوكات والمواقف والاتجاهات التي ما زالت تهيمن على الحجاج الرجال على نحو يشكّل، بتعبير بيير بورديو Pierre Bourdieu، "هابيتوسًا" لم تؤثر فيه التعديلات القانونية التي بدأت السعودية العمل بها من حيث إسقاط قانون حرمان النساء اللّواتي لم تتجاوز أعمارهن 45 سنة من الحج من دون محرم. وما زالت المرأة وهي تمارس هذا الطقس الكبير، يُنظر إليها على أنها "حُرمة". في المقابل، توصلت المؤلفة إلى أن النساء بعد تجربة الحج الروحية، استطعن أن يستعدن جزءًا من هيمنتهن على الحقل الأسري والديني والاجتماعي، بفضل ما حققه لهن من اكتساب رساميل اجتماعية وثقافية ودينية ورمزية، وما بوّأهن من مكانة داخل المجتمع الصغير (الأسرة) أو الكبير، وما أكسبهن من حظوة اجتماعية (ص 115).

رابعًا: الحج غير الرسمي: حج "المسكين" والسرديات المغربية للطقس الحجي

قدّم القسم الثالث من الكتاب بفصوله السابع والثامن والتاسع، نظرةً أنثروبولوجية تتعلق بالسرديات التي شكّلها المخيال الاجتماعي المغربي حول الطقس الحجي. ويظهر ذلك من خلال خلق مجالات للحج "المحلي" في بعض المناطق المغربية. من جهةٍ أخرى، كشف هذا القسم عن وجود تراث فنيٍ غنائي تطوّر عبر الزمن للتغني بطقس الحج ومميزاته وبالتمثلات والاستيهامات التي أُلصقت به. كما أنّ مكانة الحج في قلوب المغاربة، أنتجت تشكيل سرديات أسطورية (مثل رؤية أحد الإسكافيين الفقراء من جانب بعض الحجاج في مكة رغم أنه لم يذهب إلى الحج)، تتناقلها الأجيال. ضمن هذا السياق، تنقلنا المؤلفة إلى "حج المسكين"، فماذا تقصد به؟ وما القراءات الممكنة لهذا النوع من الحج "المحلي"؟ وما دلالاته الأنثروبولوجية؟

حاولت الباحثة استجلاء أجوبة لهذه الأسئلة عبر رحلة استكشافية لمنطقتين في المغرب، الأولى تقع بالساحل الأطلسي قرب مدينة آسفي، حيث يوجد بالقرب من الشاطئ ضريح "سيدي شاشكال"، الذي يؤمّه العديد من الفقراء الذين لا يجدون ما يمكّنهم من أداء الحج "الرسمي" إلى مكة، وكأن لسان حالهم يقول: إذا كنّا سنعبد الله ونحج إلى بيته، فـ"النّيّة أبلغ من العمل". وهذا يعني أن الحج يمكن أن يكون في أي مكان، ما دامت النية صادقة. هكذا قال بعض المشاركين في البحث تبريرًا لاختيار هذا النوع من الحج. أما القراءة الثانية فتُخبرنا أن هذا الحج المحلي نوع من التعبير الاحتجاجي عن التدبير السعودي لطقس الحج، الذي بالغ، موسمًا بعد آخر، في الترفيع في تكاليفه الإدارية والمالية، ما حرم العديد من الفقراء منه (ص 197).

أمّا الحج إلى الموقع الثاني "سيدي بوخيار" الواقع في الشمال الشرقي للمملكة المغربية الذي يُعرف في التداول اللغوي المغربي بـ"الريف"، والذي يقام تحت عنوان "حج المسكين"، فقد توصلت المؤلفة إلى أنه صار يقام سنويًا للتعبير الاحتجاجي والسياسي، عبر إشهار الأعلام الأمازيغية في الأقمصة، وإبراز الهوية الأمازيغية (عاش الريف) في تناغم مع مجريات الطقس الديني الواجبة، حيث اعتبر أحد المستجيبين هذا الحج حجًا مقدسًا (ص 205).

لم يسلم حج "المسكين" من نقض من جانب مستجيبين آخرين في البحث، اعتبروه حجًّا "حرامًا" أو "بدعةً" أو من الـ"شركيات". ولهذا،

فهو لا يحظى بإجماع لدى المغاربة. وعلى الرغم من هذه الاعتراضات على حج المسكين، بينت المؤلفة أن في إقامته سنويًا دلالة على وجود مفاوضة اجتماعية بين المعايير الدينية الرسمية (التديّن الأرثوذكسي) وأخرى غير رسمية (التدين الشعبي). وعلى الرغم من تموقع هذا التديّن الشعبي على هامش المجتمع، فإنّه يظلّ مؤثّرًا فيه، عبر نسج سرديات تبريرية تُنتَج ويعاد إنتاجها عبر الأجيال المتعاقبة (ص 208).

خاتمة

لا شك في الفائدة البالغة لكتاب الباحثة الفلسطينية خلود العجارمة حول الحج، خصوصًا في مستوى المقاربة والمنهج الإثنوغرافي، اللذين مكّناها من التعمّق في تجربة الطقوسية، وكيفية بَنْيَنَتِه للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإدارية والفردية والجماعية في المغرب. وفي هذا الكتاب، لم يظهر طقس الحج عند المغاربة معطًى دينيًا محضًا يتغيّا الخلاص الفردي والجماعي والتماس الفضائل الدينية، بل ظهر مجالاً للتوترات اليومية ومسرحًا لـ"خيبة الأمل، أو الشعور بالقلق، جراء الخلافات والجدالات وعدم الرّضا على بعض جوانب تجربة الحج" (ص 255). وقد سبق لحمودي في كتابه **حكاية حج** أن أظهر هذا التوتر الذي يسود تجربة الحج، وأنه ليس تجربة مقدسة كما يعتقد العديد من المسلمين.

ولكن هل يصحّ على الكتاب قول مؤلفته إنّه "أول دراسة إثنوغرافية للحج في بلد واحد، سواء من حيث الأداء أو أهميته في الحياة اليومية للمغرب" (ص 26)، وإنها أول باحثة تتطرق إلى هذا الموضوع (ص 30)؟ وهل قدّمت بالفعل إطارًا نظريًا جديدًا في حقل أنثروبولوجيا الإسلام؟

يمكن تفنيد ادّعاء المؤلفة الأول باستحضار كتاب حمودي **حكاية حج** الذي يُعدّ دراسة إثنوغرافية في رصد ظاهرة الحج عبر الوقوف عند تجربة باحث أنثروبولوجي مغربي تشابكت مع البناءات الاجتماعية والسوسيو-أنثروبولوجية لطقس الحج في المجتمع المغربي. وتجدر الإشارة إلى أن المؤلفة، قد أحالت على هذا الكتاب في متن كتابها أكثر من مرّة. ويمكن استحضار دراسة عبد الرحيم العطري، التي تُعدُّ حفرًا أنثروبولوجيًا في طقس الحج باعتماد تقنية الملاحظة بالمشاركة، التي مكّنت الباحث من الوقوف على دلالاته عند المغاربة، وعلى كيفية فهم هذا الطقس في علاقته ببقية الأنساق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية للمجتمع المغربي[8]. ورغم أن الدراسة صدرت حديثًا، فإنّ المؤلفة لم تُشر إليها.

أمّا الإطار النظري الموظّف في الدراسة، فلم يخرج عن الأطر النظرية التي أُنتجت في سياقات سوسيوثقافية مختلفة عن السياق العربي – الإسلامي، حيث ركّزت على ما توصّل إليه تورنر وفان جينب وغيرهما في صياغة مفاهيم "الولادة الجديدة" أو "طقوس العبور" أو "الهامشية التي تولّد معاني الجماعوية والاحتجاج أو التوتر"، أو من خلال التركيز على مفهوم "الإسلام اليومي" أو "الإسلام المعيش"، من دون بذل جهد حتى لو كان ضئيلاً في الوقوف على مسافة نقدية من تبنّي هذه المفاهيم والنظريات. وعلى الرغم من محاولة المؤلفة إكساب الإطار

(8) عبد الرحيم العطري، **أنثروبولوجيا الحج الإسلامي: من التجربة الدينية إلى النقد المنفتح** (تطوان: منشورات باب الحكمة، 2021).

النظري الذي استندت إليه صبغة إجرائية تناسب رصد الظاهرة المدروسة، فإنها لم تَبْن تصوّرًا نظريًا أصيلاً في حقل أنثروبولوجيا الإسلام؛ خصوصًا أنها ترى أنّ كتابها لم يكن مخصصًا لطقس الحج فحسب، وأنه دراسة أشمل في أنثروبولوجيا الإسلام (ص 20).

من خلال ما سبق من ملاحظات نقدية، أرى أن الكتاب، رغم أنه يشكّل من خلال مقاربته المنهجية وإطاره النظري، مجهودًا مهمًّا في دعم مراكمة دراسات من هذا النوع في حقل أنثروبولوجيا الإسلام، فإنه لم ينجح في الاندراج ضمن المجهود الإبستيمولوجي المطلوب لبناء أنثروبولوجيا حوارية تجمع ما بين المفاهيم والأطر النظرية التي تشكّلت في السياق الغربي، ونقلها إلى السياق العربي – الإسلامي، مع مراعاة الانتباه إلى ضرورة توطينها على نحو مطابق للسياق الذي توظَّف فيه.

المراجع

References

العربية

جرموني، رشيد. **الدين والإعلام: في سوسيولوجيا التحولات الدينية**. ط 2. الرباط: دار القرويين للنشر والتوزيع، 2022.

حمودي، عبد الله. **حكاية حج: موسم في مكة**. ترجمة عبد الكبير الشرقاوي. بيروت: دار الساقي، 2010.

العطري، عبد الرحيم. **أنثروبولوجيا الحج الإسلامي: من التجربة الدينية إلى النقد المنفتح**. تطوان: منشورات باب الحكمة، 2021.

الأجنبية

Ababou, Mohamed. *Changement et Socialisation de L'Identité Islamique*. Fès: Éditions du Ministère de l'Enseignement Supérieur de la formation des cadres de la recherche scientifique du Maroc, 2001.

Ababou, Mohammed, Reida Ababou & Abderrahman El Maliki. "Le jeûne du Ramadan au Maroc: Un dilemme pour les patients diabétiques et les soignants." *Sciences sociales et santé*. vol. 26, no. 2 (2008).

Adam, André. *Une enquête auprès de la jeunesse musulmane du Maroc*. Série travaux et mémoire 28. Rabat: Publications des Annales de la Faculté des lettres, 1963.

Albera, Dionigi & John Eade (eds.). *New Pathways in Pilgrimage Studies: Global Perspectives*. London: Routledge, 2017.

Bourqia, Rahma, Mokhtar El Harras & Driss Bensaid. *Jeunesse estudiantine Marocaine: Valeurs et stratégie*. Faculté des lettres et des sciences humaines de Rabat. Casablanca: EDDIF, 1995.

Chekroun, Mohamed. *Jeux et Enjeux culturelles au Maroc*. Rabat: Édition Okad, 1990.

Coleman, Simon & John Eade (eds.). *Reframing Pilgrimage: Cultures in Motion*. London: Routledge, 2004.

Delage, Rémy. "Le pèlerinage contemporain en sciences sociales: Moments, bifurcations, nouveaux horizons." *Archives de sciences sociales des religions*. vol. 180 (2017).

Eade, John & Michael J. Sallnow (eds.). *Contesting the Sacred: The Anthropology of Christian Pilgrimage*. London/ New York: Routledge, 1991.

El Ayadi, Mohamed, Hassan Rachik & Mohamed Tozy. *L'islam au quotidien: Enquête sur les valeurs et les pratiques religieuses au Maroc*. Religion et société. Mohamed–Sghir Janjar (Coord.). Casablanca: Editions Prologues, 2007.

Montagne, Robert. *Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc, Essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires (Groupe Chelouh)*. Paris: F. Aclan, 1930.

Tozy, Mohamed. "Champ et Contre Champ Politico–Religieux au Maroc." Thèse D'Etat. Université Aix–Marseille III, 1984.

عُمران omran
المعرّف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/DCZS6999

مجاهد الدومة | Mujahid Eldouma*

فيروز والشتات العربي:
الموسيقى والهوية في المملكة المتحدة وقطر

Fairouz and the Arab Diaspora: Music and Identity in the UK and Qatar

عنوان الكتاب:	فيروز والشتات العربي: الموسيقى والهوية في المملكة المتحدة وقطر.
عنوان الكتاب في لغته:	*Fairouz and the Arab Diaspora: Music and Identity in the UK and Qatar*.
المؤلفة:	ديما عيسى Dima Issa.
الناشر:	لندن: أي بي توريس I.B. Tauris.
سنة النشر:	2023.
عدد الصفحات:	232.

* باحث، حاصل على الماجستير في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا من معهد الدوحة للدراسات العليا.
Researcher. He Received a Master's in Sociology and Anthropology from the Doha Institute for Graduate Studies.
Email: mko001@dohainstitute.edu.qa

مقدمة

يستهل راناجيت غُها مقالته "زمن المهاجر" بعبارة: "أن تنتمي إلى شتات [...]"، ومن بعدها تتحوّل المداخلة في المقالة إلى تأملٍ وتفكيرٍ حول مأزق وضعية الشتات التي يعيشها المهاجر؛ ذلك الانزياح من ماضٍ تركه خلفه بما هو فقدان، إلى حالة شتاتية يستعصي الاندماج فيها وفك مغاليقها، ويتأكّد التساؤل حول إمكانية الانتماء إليها[1]. في هذا السياق، تضيف ديما عيسى في كتابها **فيروز والشتات العربي: الموسيقى والهوية في المملكة المتحدة وقطر** مستويين جديدين بتعقيد لا تقل صعوبة الإمساك بهما عن صعوبة الإمساك بمفهوم الشتات: الموسيقى بوصفها تجربة فنية تنبني تجربة الاستماع إليها بصورةٍ متجدّدة في كل مرة، والهوية التي هي الأخرى في حالة حركة وإعادة تشكّل مستمرة. وبذلك، فإن هذه العناصر الثلاثة (الشتات، والموسيقى، والهوية) تتركب مع بعضها لتشكّل قوام الكتاب والمساهمة الثرية التي يقدمها، في مقاربته موسيقى المطربة اللبنانية فيروز (1934–) باعتبارها مادّةً تدخل في بناء الهويات الثقافية الفردية والجماعية لأفراد الشتات العربي. وذلك من خلال توظيف منهج كيفي استقصائي، اعتمدت المؤلفة فيه على إجراء مقابلات معمّقة مع تسع وخمسين من المشاركات والمشاركين في لندن والدوحة، في سبيل فهم حيوات هؤلاء الذين يستمعون إلى فيروز ويشعرون بالانتماء إليها، والتمثلات التي تنشأ لديهم عن هذه التجربة السماعية في مختلف مناحي معيشهم اليومي. بذلك، يقدّم الكتاب منظورًا مختلفًا عن الأدبيات السابقة التي تناولت فيروز وأغانيها، من خلال دراسة سيرتها الذاتية أو تحليل كلمات أغانيها[2]، أو تحليل تجربتها عبر مناظير تاريخية أو فنية، أو باعتبارها رمزًا قوميًا لبنانيًا[3].

يتكون الكتاب من سبعة فصول، تستهل المؤلفة الأول منها، وعنوانه "الفردي والاجتماعي والشتاتي وموسيقى فيروز"، بتجربتها السماعية الشخصية، وانفتاحها على فيروز وموسيقاها خلال سنوات طفولتها الباكرة، عن طريق والديها اللذين يحفظان أغاني فيروز عن ظهر قلب، وكيف كانت تمنحهما شعورًا بالانتماء وعدم الانتماء في الآن ذاته. بعدها، تُوسّع المؤلفة عدسات المشاهدة لتنتقل من هذا المستوى الضيق لأسرتها إلى المستوى الاجتماعي الأوسع، لتبيّن كيف تحضر فيروز عند العرب في أوطانهم أو خارجها في أزمنة الأفراح والأعياد والحب، وكذلك في أزمنة الأوبئة والثورات والحروب والمآسي، ومنها مثلاً حادثة تفجير برج التجارة العالمي يوم 11 أيلول/ سبتمبر 2001، الذي أعقبه صعود للخطاب المعادي للعرب والمسلمين في الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا، أو مأساة انفجار ميناء بيروت يوم 4 آب/ أغسطس 2020 الذي تحوّلت معه أجزاء كبيرة من المدينة إلى ركام. في كل هذه المناسبات، كانت فيروز وموسيقاها حاضرتين لتقديم العزاء والمواساة.

علاوةً على ذلك، تحضر فيروز يوميًا في حيوات

(1) راناجيت غُها، "زمن المُهاجر"، ترجمة ثائر ديب، **عمران**، مج 6، العدد 24 (ربيع 2018)، ص 73–79.

(2) منها مثلاً: مجيد طراد وربيع محمد خليفة، **فيروز: حياتها وأغانيها** (طرابلس، لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب، 1999).

(3) ينظر:

Christopher Stone, *Popular Culture and Nationalism in Lebanon: The Fairouz and Rahbani Nation* (London: Routledge, 2008).

أفراد الشتات؛ إذ تؤدي دور وسيط الذاكرة نحو أوطانهم التي غادروها، وتخلق مساحةً للحنين وبديلاً ممّا يرتبطون به خارجها. في الفصل الثاني بعنوان "هالة فيروز والشتات العربي"، تدخل المؤلّفة في حوار مع وجهة النظر التي تموضع فيروز وتجربتها ضمن مشروع قومي لبناء دولة ما بعد الاستعمار في لبنان، أو تلك التي تحصرها مناطقيًا في مدينتها بعلبك، فترى أنه لا يمكن اختزالها في ربطها بسياق مكاني أو زماني محدد. وفي سبيل ذلك، تناقش المؤلفة مفهوم الهالة الفنية لوالتر بنيامين. فبينما يرى هو، في سياق مقاله الذي يتناول مسألة إعادة إنتاج العمل الفني في عصر التقنية، أنّه يفقد هالته Aura عندما يعاد إنتاجه بعيدًا عن سياقَيه الأصليين زمانًا ومكانًا، تحاجّ المؤلفة من خلال التجربة السماعية لفيروز بأن "هالة" فيروز، تكبر وتكتسب أهميةً مضاعفةً كلّما ابتعدت عن سياقها.

لاستكشاف هالة فيروز، تعالج المؤلفة في الفصل الثالث بعنوان "الهويات العاطفية: العروبة والهجنة والالتزام بين السياقات"، الأشكال التي يُعرّف بها المشاركون مسألة الانتماء وتقاطعاتها مع مفاهيم "العروبة" والالتزام" والهوية الوطنية، وكيف تتكون في سياق الشتات. وتستدعي هنا مفهوم "الهابيتوس" لبيير بورديو، الذي يشير إلى الاستعدادات التي يكتسبها الأفراد عبر تنشئتهم الاجتماعية وتجاربهم الحياتية، ومن ثم تتحول إلى بنى ناظمة للسلوك والممارسات ومنظمة لها[4]. وفي حين لا يتوفّر مفهوم بورديو على بعد مكاني يساهم في فهم حالة الشتات وما تنطوي عليه، تضيف المؤلّفة هذا البعد، عبر إغناء الهابيتوس ببُعدين اثنين؛ "الميتا-هابيتوس" وهو المستوى الأوسع نطاقًا الذي تبنيه الأنظمة والظروف المشتركة التي تؤثر في الناس، و"المايكرو-هابيتوس" وهو المستوى الأكثر ارتباطًا بالمسارات والخيارات الفردية الأكثر خصوصيةً، بما ينتج تمايزات بين الأفراد أنفسهم. ويتفاعل هذان المستويان في صياغة سردية الذات حول ذاتها وعنها في الفضاءات الشتاتية، بما يفتح الفضاء للتفكير في الكيفية التي تبرز من خلالها موسيقى فيروز في هذه التباينات السياسية والثقافية والجنسانية، باعتبارها وسيلة ووسيطًا لخلق الشعور بـ"العروبة" والوطن والحنين إليه، وتعزيزهما.

أولاً: فيروز هنا، ليست فيروز هناك

يميز الكتاب بين التجربة الشتاتية في سياقَي الدوحة ولندن، ويشير بوضوح إلى التعارض بينهما؛ ما بين تجربة تؤطرها قوانين الدولة التي تجعل المهاجر في قطر تجربةً مؤقتةً مرتبطةً بالعمل، ولا تمنحه فيها إقامة دائمة، وتجربة المهاجر في لندن الذي يملك الحق في الإقامة الدائمة والحصول على الجنسية ما لم يقرر هو غير ذلك. إلا أن العنصر الغائب هنا، خاصةً فيما يتعلق بتحليل التجربة الشتاتية هو المستوى المقارن الذي يُشبّك حالة الشتات مع الخصوصيات الاجتماعية للمجتمع المستضيف، وتأثيرها في تشكّل الهوية ومفاهيم الالتزام والعروبة والهوية والوطن، حيث تبرز أهمية خصوصية السياق الاجتماعي، وما يفتحه أو لا يفتحه من إمكانية بناء العلاقة مع ذلك المجتمع[5]، بل في

(4) Bourdieu Pierre, *Outline of a Theory of Practice*, Richard Nice (trans.) (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), pp. 72, 95.

(5) Shivam Singh, "The Conceptual Understanding of Diaspora: A Sociological Perspective," *International Journal of Applied Research*, vol. 5, no. 1 (2019), pp. 384–387.

بناء المساحة العاطفية التي تُسمع فيها فيروز والتأويلات التي يمنحها المشاركون لهذه التجربة (ص 79). ويتمظهر هذا الاختلاف فيما قاله أحد المشاركين عن استماعه إلى فيروز خلال وجوده في الدوحة مقارنةً باستماعه إليها خلال وجوده في لندن: "يختلف الأمر بالكامل في بريطانيا عن هنا (الدوحة). أعتقدُ أنّه عندما تستمع إليها في أوروبا أو بعيدًا عن البلدان العربية، فإنك تشعر أنها تتحدث إليك، إليك وحدك" (ص 86). يؤثر هذا الاختلاف، كما يشير غُها، حتى في كفاح المهاجر/المغترب وبحثه عن هويته الشتاتية[6]. وبذلك، فإن الفضاء العاطفي، الذي يدخل في بناء تجارب الأفراد في استماعهم إلى فيروز – وما ينطوي عليه من أمكنة/ فضاءات حميمية وشخصية وفردية وجماعية، والتي تتطور لتشمل أجزاءً مختلفة من المواقف الجسدية والنفسية، تُراوح بين ما هو فردي وما هو مشترك – والذي تعالجه المؤلفة في الفصل الرابع بعنوان "فيروز والفضاء العاطفي والمهُجَرّون"، يكتسب بعدًا مهمًّا في تشكيل الذات، لا سيّما أن المؤلفة تشير إلى أن الاستماع إلى فيروز هو تجربة مكانية (ص 79)؛ ما يفتح المجال لإعادة النظر في التجربة السماعية والتفكير فيها، ومن ثم التفكير في الطريقة التي تتشكل بها هالة فيروز نفسها في سياق الشتات.

ثانيًا: الهالة الفنية فضاءً للقاء

ثمة إشكال في الطريقة التي عالجت بها المؤلفة مفهوم الهالة كما تطرق إليه بنيامين، مبعثه إغفالها أنّ موسيقى فيروز، سواء أكانت تُسمع في لبنان أم خارجه، تظل عملاً فنيًا مُعادًا إنتاجه تقنيًا في الأساس. إن المعنى الذي يقصده بنيامين يكمن في أن هذه العملية ترتبط بدخول الآلة في إعادة إنتاج العمل الفني ونسخه وتوزيعه: "إذ ينتقل النشيد من الصالة أو الفضاء المفتوح الذي كان يؤدّى فيه، ليُسمع في فضاء مغاير مثل غرفة الرسم"[7]. وبحسب هذا التعريف، فإن أغاني فيروز التي تذاع في كل مكان (في البيوت من خلال أجهزة المذياع، أو في صالات المطارات، أو في السيارات)، سواء داخل لبنان حيث سجلت الأغاني، أو في أيّ مكان آخر بما في ذلك دول الشتات المشار إليها في هذا الكتاب، تدخل في شروط إعادة الإنتاج التقنية.

وبناء عليه، وعلى الرغم من مساهمة الكتاب المهمة في توظيف مفهوم بنيامين ونقاشه، فإنه لم يطوّر محاجته على نحو كافٍ. وهذه الملاحظة جديرة بالذكر؛ ففي حين ينظر الكتاب إلى فيروز على أنها "تسافر عبر عوالم الزمان والمكان وتتحول إلى مجموعات لا مثيل لها من المشاعر والمعاني" (ص 3)، ومن ثم يُموضعها بوصفها مُنتجةً للهالة الفنية، من الضروري التعامل مع التجربة السماعية نفسها بوصفها تجربة لإعادة إنتاج الهالة نفسها، انطلاقًا من التعامل مع العمل الفني والنظر إلى أهمية كل عنصرٍ فيه في إكسابه هو نفسه إمكانيات جديدة، وبحيث تكون التجربة السماعية جزءًا منه ومن إمكانياته[8]. ويُضاف إلى ذلك أنّ هذا الانفتاح يأتي من التعامل مع تلقي العمل الفني على أنّه تجربة "لقاء"، يعيد فيها المستمعون/ المشاركون الالتقاء مع فيروز،

(6) غُها، ص 75.

(7) Walter Benjamin, "The Work of Art in the Age of Mechanical Reproduction," in: Hannah Arendt (ed.), *Illuminations*, Harry Zohn (trans.) (New York: Schocken Books, 1969 [1935]), pp. 217–251.

(8) مارتن هايدغر، **أصل العمل الفني**، ترجمة أبو العيد وديدو (كولونيا: منشورات الجمل، 2003)، ص 92.

ومن ثم يعيدون خلق الهالة نفسها وتشكيلها (أو عدم تشكيلها)، كما يظهر في ملاحظة جانبية حول تجربة أحد المشاركين، الذي كانت زوجته اللبنانية لا توافق على تشغيل موسيقى فيروز في السيارة ولا تستمع إليها فيها. وتثبت هذه الملاحظة أن التعامل مع مسألة الهالة، بطريقة أكثر رحابةً وحريةً من طريقة أو طرائق أخرى، يجعل من السماع تجربة تأويلية فاعلة، يدخل خلالها المستمعون في خلق تلك الهالة نفسها وتشكيلها، بدلاً من أن تكون كأنها موجودة هناك سلفًا ولا يفعل المستمعون شيئًا إلا التقاطها. تجعل هذه المداخلة النقاش المهم الذي يخوض فيه هذا الكتاب، وخاصةً في تأسيسه الكثيف على مفهوم الهالة، ينزلق بعيدًا عن الهدف المعلن عنه والمتمثل في دراسة الكيفية التي تتشكل بها الهويات عبر تجربة الاستماع إلى فيروز، ليكون متمركزًا حول فيروز وهالتها، وتتحول كل المفاهيم والمداخلات الأخرى إلى دعامات لهذا الاتجاه. وإذا ما قُرئت التجربة السماعية بوصفها تجربة التقاء فاعلة، ذات أهمية بقدر أهمية المسموع ذاته (موسيقى فيروز في هذه الحالة)، انفتح مجال تأويلي مهمٌّ لكيفية تشكل هالة الفنان من خلال تجربة الاستماع إليه.

بالعودة إلى غُها مرةً أخرى، نرى أنّ الحالة الشتاتية هي في الأساس وجود في زمنية أخرى؛ مضطربة وغير مستعادة، كما يظهر في ما عبّرت عنه إحدى المشاركات في الكتاب. فعلى الرغم من عودتها إلى لبنان وسماعها فيروز هناك، بَكَت، لأنه ذكّرها بحالتها الشتاتية في لندن (ص 113). وفي هذا المثال يظهر اضطراب الزمنية نفسها، بوصفها مقولة مغايرة لما تطرحه المؤلفة. فقد "عادت" التجربة السماعية لفيروز إلى مكانيتها التي انطلقت منها في البدء، ولكن ما تغير هو زمنية المستمعة وحالتها، ليكون ما انتقل هنا زمانيًا ومكانيًا ليس موسيقى فيروز أو مستمعيها فحسب، بل في الأصل ذلك الفضاء الذي حدث فيه اللقاء، والذي صار موجوداً وفق شروطٍ جديدة.

ثالثًا: فيروز حالةً موسيقية تراكمية

يحضر الوطن في مداخلة الكتاب على نحوٍ جلي، عبر مفهومَي الحضور والغياب في الفصل الخامس بعنوان "الموسيقى والهجرة والحضور والغياب" عبر مفهمة تتجاوز الحدود المكانية وتظهرهما بوصفهما هوية متخيلة ومعيشة في آن معًا. وتفحص المؤلفة في الفصل السادس بعنوان "تجسيد الوطن العربي والتوطين والحركة وهندسة القوى" والطريقة التي تساهم بها فيروز وموسيقاها في تجسيد تمثلات الوطن وهويته، وفي إعادة رسم الصورة المتخيلة لذلك الوطن المشتهى، وذلك عبر تقديم موسيقى فيروز لمساحة أخرى؛ وطن عاطفي يتجاوز فكرة المكاني ويعتمل داخل ذوات المستمعين الشتاتيين، وذلك عن طريق تكثيف التجربة السماعية العاطفية، وتحوّل الأغاني نفسها إلى رموز وبدائل من الوطن المرتبط بالذاكرة الجمعية والتجربة الثقافية المشتركة. وتبيّن المؤلفة في الفصل السابع بعنوان "فيروز والزمن والتسلسل الجيلي والخيال التحفيزي" أنّ هذه التجربة ليست حصرًا على جيلٍ بعينه، بل تتبيّن بوصفها وسيطًا وناقلاً للتراث الثقافي عبر أجيالٍ مختلفة. ويتجاوز مفهوم الخيال التحفيزي هنا مهمّة الذاكرة في استحضار الماضي، ليذهب أبعد من ذلك في كيفية تخيّل ذلك الماضي وربطه باللحظة الراهنة، وهو ما يعكس الطريقة التفاعلية القائمة في ما يكون بين الذاكرة والخيال.

توظّف المؤلفة مفهوم الخيال التحفيزي من خلال تحليل تجارب المستمعين لفيروز، وتبيّن كيف تتحول هذه التجارب إلى جسورٍ تربط حاضرهم بماضيهم، فضلاً عن استشراف المستقبل عبر منحهم مساحة لتخيل أوطانهم، علاوةً على ربط الأجيال المختلفة بعضها ببعض، وتمكين الجديدة منها من التواصل مع السابقة وفهم تجاربها، كما في حالة المشاركة تينا التي تعرّفت إلى فيروز وأحبتها عن طريق جدّها (ص 164–165). وتبرز فيروز هنا ضمن ما تسمّيه المؤلفة الاستمرارية الموسيقية، ولكن التحدّي الذي يواجه هذه الاستمرارية نفسها يكمن في سياق نشوء أطفال هذا الجيل الشتاتي نفسه، بلُغته وثقافته المختلفة وعوالمه الخاصة، والذي يظهر في تلك الحالة السماعية "الإجبارية" التي يفرضها آباؤهم وأمهاتهم عليهم. ومثال ذلك حالة فيفيان التي تعيش في لندن مع أطفالها الذين تصفهم بأنهم "أشبه بالأجانب" (ص 165). وهو يؤكّد ما سبق الخوض فيه في هذه المراجعة حول ضرورة النظر إلى تأثير المجتمع المضيف للشتات واختلاف سياقاته ما بين لندن والدوحة، وكيفية عمل ذلك التأثير، وخلقه للهالة الفنية نفسها. فبينما تُخلق الهالة عند فيفيان "إجباريًا"، وتتجاوز فكرة موسيقى فيروز مجرد كونها فنًا وعنصرًا تتشكل من خلالهما الهوية، يطلب أطفال قمر التي تقيم في الدوحة منها تشغيل موسيقى فيروز (ص 168).

تأتي مداخلة العوالم المختلفة، التي يتحرك ضمنها الأطفال في الشتات ومحاولات ذويهم خلق هذا الجسر مع الوطن الأم من خلال فيروز، مدخلاً نقديًا لمقاربة الكتاب لها ولموسيقاها. فعلى امتداد فصوله، يأتي تناول المؤلفة لفيروز كأنها حالة غير متصلة بتجارب ومشارب سماعية مختلفة ضمن تجارب المشاركين وتشكيل هوياتهم. وهو أمر لافت، خاصةً أن أغلبهم يأتون من خلفيات شهدت حروبًا أو لديهم ماضٍ يحنّون إليه، وذاكرة جمعية ينعكس الكثير من تفاصيلها في سياق ما قالوه أثناء المقابلات. إلا أن تجارب استماعهم الأخرى إلى مغنياتٍ ومغنين آخرين غير حاضرة في الكتاب الذي ركّز على ما تؤديه فيروز من دورٍ في تشكيل الهويات الشتاتية؛ وهي التجربة غير المنبتّة أو المنفصلة عن التجارب السماعية الأخرى، كتجربة أم كلثوم (1898–1975) مثلاً، والتي تدخل في تشكيل هذه الهويات. وفضلاً عن هذا الإغفال، كان في إمكان الاشتغال على هذا السياق المقارن نفسه أن يتحول إلى مرآة تنعكس فيها تجربة فيروز بصورة أكثر جلاءً.

ولئن أفاد استخدام الإطار النظري للخيال التحفيزي، بما فتحه من آفاق في رؤيتنا لتمثلات فيروز الحاضرة وتشكيلها للهوية وربطها بين الأجيال، فإنه كان في إمكان فتح الإطار النظري على حقل دراسات الذاكرة الجمعية أن يهبنا عدسةً يمكن توسلها في فحص ذاكرة التجربة السماعية نفسها والفضاء الاجتماعي الذي تتحرك ضمنه. تلك "الذاكرة الجمعية"، كما يعرفها آموس فنكنشتاين، تبرز وسيطًا في تشكيل هوية الجماعة وتوجهاتها الثقافية والسياسية، وتعين المجتمعات في تفسير حاضرها عبر ما تراكمه من وعي تاريخي بالماضي، وخاصة في المجتمعات التي مرّت بتجارب صادمة مثل الحروب[9]. وقد كان في مقدور توظيف مفهوم الذاكرة الجمعية أن يضع فيروز وموسيقاها ضمن سياق تاريخي يأخذ في الاعتبار التجارب الموسيقية المختلفة التي شكّلت الوعي التاريخي للمشاركين، ومن ثم

(9) Amos Funkenstein, "Collective Memory and Historical Consciousness," *History and Memory*, vol. 1, no. 1 (1989), pp. 5–26.

يموضع فيروز بصورة علائقية في سياق اجتماعي وثقافي أكبر من السياق الذي عرضها فيه.

خاتمة

يُقدم كتاب ديما عيسى **فيروز والشتات العربي: الموسيقى والهوية في المملكة المتحدة وقطر** مساهمةً جديدة مهمة في مقاربة الموسيقى عمومًا، وموسيقى فيروز خصوصًا. فمن خلال المقابلات المعمقة التي أجرتها في الدوحة وقطر، لا تُبرز المؤلفة تجارب استماع المشاركين إلى فيروز فحسب، بل تُبين السياق الشامل للحالة الشتاتية وأنساق تشكلها في المملكة المتحدة وقطر، وتُعيد النظر في أفهام الانتماء والوطن والعروبة والتاريخ الاجتماعي لدى أفراد الشتات. كل ذلك جعل البحث يمثّل تجربة معرفية تفتح أبوابًا جديدة للنظر في علاقة الموسيقى بتشكيل الهوية والانتماء في سياق مجتمعات الشتات العربية، ودخولها وسيطًا يعزّز الروابط الاجتماعية والثقافية، من خلال فتح الظاهرة الشتاتية على فضاء تعدّدي جديد، وموضعة فيروز وموسيقاها في سياق يتعدّى الأدبيات السابقة التي حصرتها قوميًا في كونها مغنية لبنانية، لتدخُل وسيطًا في صيرورة تشكّل حياة أجيال الشتات المختلفة، وذلك من خلال بناء إطار نظري مُركّب يعتمد على مفاهيم الذاكرة والهابيتوس وما يفيد به حقل الدراسات الثقافية؛ ما يجعل الكتاب ملهمًا لمزيدٍ من الدراسات المشابهة في سياقات أخرى، وهو ما أشارت إليه المؤلفة في توصياتها، لا سيّما مع التحولات التي يشهدها العالم يوميًا.

المراجع

References

العربية

طراد، مجيد وربيع محمد خليفة. **فيروز: حياتها وأغانيها**. طرابلس، لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب، 1999.

غُها، راناجيت. "زمن المُهاجر". ترجمة ثائر ديب. **عمران**. مج 6، العدد 24 (ربيع 2018).

هايدغر، مارتن. **أصل العمل الفني**. ترجمة أبو العيد وديدو. كولونيا: منشورات الجمل، 2003.

الأجنبية

Arendt, Hannah (ed.). *Illuminations*. Harry Zohn (trans.). New York: Schocken Books, 1969 [1935].

Funkenstein, Amos. "Collective Memory and Historical Consciousness." *History and Memory*. vol. 1, no. 1 (1989).

Pierre, Bourdieu. *Outline of a Theory of Practice*. Richard Nice (trans.). Cambridge: Cambridge University Press, 1977.

Singh, Shivam. "The Conceptual Understanding of Diaspora: A Sociological Perspective." International Journal of Applied Research. vol. 5, no. 1 (2019).

Stone, Christopher. *Popular Culture and Nationalism in Lebanon: The Fairouz and Rahbani Nation*. London: Routledge, 2008.

صدر حديثًا

الأخضر قريسي

مدخل إلى المنطق الرياضي

هذا الكتاب هو امتداد لكتاب **مدخل إلى المنطق التقليدي**، الصادر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، يتتبّع فيه المؤلف تطوّر المنطق في مرحلته المعاصرة الرّياضيّة، بغرض الإجابة عن إشكاليّة: "ما المنطق الرّياضي؟". ولتحقيق هذا الهدف جرى تفريع هذه الإشكاليّة لتتقاسم وظيفةَ إبراز موضوع المنطق الرّياضي ومباحثه الأساسيّة، وخصائصه المميّزة، وعلاقته بالمنطق التّقليدي، بوصفه نقدًا أو نقضًا، أو امتدادًا أو تعديلاً له، أو إضافة جديدة. اعتمد المؤلف التتبع التاريخي للنشأة والتّطوّر والروّاد، كمدخل للكتاب حتّى يُمكن تعقّب المفاهيم الأساسيّة للمنطق الجديد في نشأتها وتطوّرها. ويتوزّع الكتاب في قسمين، يحيطان بالمباحث الأربعة لهذا المنطق، تضمن القسم الأوّل فصلين: حساب القضايا وحساب المحمولات، كما ضمّ القسم الثّاني فصلين أيضًا: حساب الفئات وحساب العلاقات. وبكونه "مدخلاً"، جرى تقديم كلّ المضامين بمقاربة بيداغوجيّة بأيسر المناهج وأقصد السبل، وأوضح المفاهيم وأبسطها، تسندها وفرة شروح العمليات والأمثلة، والتّطبيقات والتمارين، في كلّ خطوة تعلّميّة.

عروض الكتب
Featured Books

مطاردة الأفق، 150×40 سم، مواد مختلطة على قماش (2025).
Chasing horizons, 150x40 cm, mixed media on canvas (2025).

بانوراما، 180×50 سم، مواد مختلطة على قماش (2025).
Panorama, 180x50 cm, mixed media on canvas (2025).

المعرّف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/KIRI9052

عنوان الكتاب: مناطق الحدود الاستعمارية: المجتمع والاقتصاد والهوية (حالة الناظور/ مليلية).

المؤلف: عز الدين الفرّاع.

الناشر: الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

سنة النشر: 2025.

عدد الصفحات: 416.

استناداً إلى جهد إثنوغرافي وتنقيب تاريخي، يُقدّم الكتاب تحليلاً سوسيولوجيًا لمناطق الحدود الاستعمارية من خلال دراسة حالة الناظور/ مليلية، بوصفها نموذجًا كاشفًا لتقاطعات الديناميات الاجتماعية والاقتصادية والرمزية التي أطلقها الاستعمار الإسباني في المغرب. ينطلق المؤلف من إشكالية مركزية تتعلق بكيفية تشكّل الحدود الاستعمارية واشتغالها بوصفها نتاجًا لنظام كولونيالي ممتد، يُنتج تفاوتات معولمة، ويعيد إنتاجها في المجتمعات المحلية، وخصوصًا في المناطق الحدودية. يقع الكتاب في ثلاثة أقسام رئيسة. يناقش القسم الأول الأطر النظرية والمنهجية المعتمدة في الكتاب، مشدداً على أهمية الإثنوغرافيا المتعددة المواقع والمقارنة التاريخية. أما القسم الثاني، فيدرس السياقات التاريخية والتفاوتات التي بلورتها العلاقات المغربية – الإسبانية، ويُبرز كيف تحولت مليلية إلى رمز لتقاطعات الاستعمار والهجرة والهوية. ويُقدّم القسم الثالث قراءة سوسيولوجية للممارسات اليومية في المناطق الحدودية، مثل التهريب "المعيشي"، والهجرة غير النظامية، ومقاومة الحدود، مع التركيز على الفئات المهمّشة، لا سيّما النساء والشباب.

يمكن عدّ الكتاب مساهمة لافتة في الأدبيات العربية حول سوسيولوجيا الحدود والهجرة، من خلال ربط المحلي بالكوني، وتحليل أثر السياسات الكولونيالية في تشكيل اقتصاديات العبور وتصوّرات الهوية والانتماء. فكما يصفه المؤلف، يجسد نموذج الناظور/ مليلية، "منطقة بينية" تشتبك فيها قضايا السيادة والهيمنة والعيش اليومي. ويتميّز الكتاب أيضًا بمقاربته النقدية للأنساق المعرفية السائدة في دراسة الحدود؛ إذ يسعى لتجاوز الفصل التقليدي بين علوم التاريخ والاجتماع والأنثروبولوجيا، عبر استخدام مقاربة عابرة للتخصصات. وبذلك أبرز أن ممارسات التهريب والهجرة ليست مجرد استجابات ظرفية للأزمات الاقتصادية، بل استراتيجيات مقاومة ضمنية لحدود فُرضت قسرًا، وتعيد المجتمعات المحلية من خلالها التفاوض على مكانتها وهويتها داخل نسق عالمي غير عادل.

عنوان الكتاب: ألان تورين وإحباط السوسيولوجيا.

المؤلف: حسن قرنفل.

الناشر: الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.

سنة النشر: 2025.

عدد الصفحات: 249.

ينخرط الكتاب في مراجعة نقدية للتحولات النظرية والفكرية في أعمال السوسيولوجي الفرنسي ألان تورين Alain Touraine (1925–2023)، عبر تتبّع التحول المعرفي الذي مرّ به في مراحل متأخرة من إنتاجه، وانتهى به إلى تفكيك أحد أكثر المفاهيم رسوخًا في الحقل السوسيولوجي، وهو مفهوم "المجتمع". ولا يستعرض هذا التحول، بوصفه انحرافًا شخصيًا أو تراجعًا تأمّليًا متأخرًا، بل علامة على لحظة ارتياب أوسع داخل السوسيولوجيا ذاتها، تُحيل إلى ما يسميه "إحباط السوسيولوجيا"؛ أي بلوغها نقطة وعي مأزقي تدرك فيه أنها – وهي تسعى لتفسير العالم – أسهمت عن قصدٍ أو من دونه في إعادة إنتاج أنماط السيطرة الخطابية التي ابتكرتها النخب السياسية لتطويع الجماهير. وعبر قراءة نقدية موسّعة لأهم مؤلّفات تورين، يكشف الكتاب كيفية تحول السوسيولوجيا، من دون أن تقصد، من أداة نقدية إلى أداة شرعنة، مساهمةً في إنتاج خطاب يبرر الضبط الاجتماعي والتحكم السلطوي تحت مسميات حفظ النظام والاستقرار.

يتوزع الكتاب على سبعة فصول تتتبّع مسار تورين الفكري، وموقفه من السوسيولوجيا وتركيزه على الفعل الاجتماعي، ومعالجته للمجتمع ما بعد الصناعي، ودراسته للحركات الاجتماعية ومقاربة "التدخل السوسيولوجي" التي اقترحها لبحث هذه الحركات، وصولاً إلى نقده الحداثة وفكرة المجتمع. وعلى أساس هذه المراجعة المستفيضة، يناقش الكتاب التناقضات التي أفضت إلى ما يصفه المؤلف بـ "إحباط السوسيولوجيا". وبذلك، تبرز أهمية الكتاب من خلال ربطه بين هذه النقاشات وتحديات البحث السوسيولوجي المعاصر، لا سيّما ما يتعلق بعلاقة المعرفة بالسلطة، وضرورة إعادة تأسيس السوسيولوجيا بوصفها حقلاً معرفيًا نقديًا يعي إشكالياته الذاتية.

عنوان الكتاب: كنيس الخراب: الصهيونية والاستيطان والعمارة.

المؤلف: أحمد حمدي عبد العظيم.

الناشر: الجيزة: مدارات للأبحاث والنشر.

سنة النشر: 2024.

عدد الصفحات: 439.

يناقش الكتاب العلاقة الوظيفية بين العمارة والمشروع الاستيطاني الصهيوني، متقصيًا أبعادها التاريخية والسياسية والثقافية. وينطلق من فرضية مفادها أن العمارة أدّت دورًا تأسيسيًا في تمكين المشروع الصهيوني من السيطرة على الأرض، وإعادة تشكيل الهوية والمكان في فلسطين المحتلة. يركّز الكتاب على تتبّع الأنماط المعمارية والاستيطانية، بدءًا من نماذجها في مناطق الشتات اليهودي في أوروبا خلال القرن الثامن عشر، مرورًا بنموذج "الكيبوتس"، ووصولاً إلى مستوطنات غلاف غزة. ويبيّن كيف ارتبطت هذه الأنماط بالأجندة السياسية والاجتماعية الصهيونية، خاصة في توظيفها أداةً فعّالة في احتلال المكان والسيطرة على الفضاء. ويحاجّ الكتاب بأن العمارة الصهيونية لم تقتصر على بناء المساكن والمنشآت العسكرية فحسب، بل أسهمت في إنتاج بيئة استعمارية حاضنة لفكرتي التفوق والتوسع أيضًا، متتبّعًا كيف شُرعنت عملية الاستيطان عبر تقديم أنماط سكنية تعاونية توحي بالاستدامة والاستقرار.

يتوزع الكتاب على ثمانية فصول. يناقش الأول تاريخ الشتات اليهودي في أوروبا، والمسألة اليهودية، ونشأة الحركة الصهيونية، ويدرس الثاني التطبيقات الأولى لمشروع المستوطنات اليهودية في فلسطين، ويتناول الثالث نشأة نموذج "الكيبوتس"، ودوره في احتلال الأرض، ويبحث الرابع في مسألة الهوية وعلاقتها بالطراز الحداثي كما تجسد خصوصًا في "تل أبيب"، ويركّز الخامس على القدس وسياسات التقسيم والتهويد وإعادة تشكيل المدينة، ويدرس السادس مشاريع الاستيطان الصحراوي، ويعرض السابع أبرز النماذج المعمارية الحكومية، كالمتاحف والكنيست، ودورها في تشكيل الهوية اليهودية، ويختم الثامن بتحليل عمارة المتدينين اليهود ودورها في فرض الهيمنة الأمنية على الفلسطينيين في الضفة الغربية.

عنوان الكتاب: دليل الأسرة في دول الخليج العربي.

عنوان الكتاب في لغته: *Handbook of Families in the Arab Gulf States*.

المحررون: محمد ميزان الرحمن Md Mizanur Rahman وكلثم الغانم Kaltham Al–Ghanim وزيارات حسين Ziarat Hossain وشريك عمر Sharique Umar.

الناشر: سنغافورة: سبرنغر Springer.

سنة النشر: 2025.

عدد الصفحات: 785.

يُقدم هذا الكتاب الجماعي، الذي يضمّ 39 فصلاً، دراسة موسوعية تحليلية شاملة عن التحولات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها الأسرة الخليجية في العقود الأخيرة. وهو يمثّل مساهمة مرجعية في السوسيولوجيا التي تتناولها، بما يمكّن من فهم التحوّلات التي طرأت على بنيتها ضمن سياقات معقدة تتقاطع فيها السياسات الريعية، والحراك الديموغرافي، والعولمة، وتبدلات أنماط العمل والتعليم. وبذلك، لا يعيد الكتاب الاعتبار للأسرة، بوصفها وحدة تحليل اجتماعي فحسب، بل بوصفها كذلك مفتاحًا منهجيًا لفهم أنماط السلطة، وإنتاج الهويات، وتحوّلات المجال الاجتماعي والسياسي في المنطقة.

يتوزع الكتاب على خمسة أقسام رئيسة، تتناول جوانب مختلفة من حياة الأسرة في الخليج العربي. يناقش القسم الأول تكوين الأسرة والزواج والأدوار الجندرية في أثناء التحولات المجتمعية والاقتصادية، في حين يركز القسم الثاني على دور التكنولوجيا ووسائط التواصل الاجتماعي في إعادة تشكيل الروابط الأسرية، مستعرضًا التحديات الجديدة التي تواجه الأسر بسبب هذه التحولات الرقمية. ويُعنى القسم الثالث بأبحاث الأسرة التي تحلل السياسات الأسرية، حيث يناقش القوانين الاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر في رفاهها واستقرارها. أما القسم الرابع، فيتناول أنظمة الدعم المؤسسي والاجتماعي للأسرة، ويبرز أهمية الأطر المؤسسية والرسمية وغير الرسمية في تعزيز الاستقرار والتماسك الأسريَّين. وأخيرًا، يقدّم القسم الخامس دراسات حول الأسر المهاجرة في دول الخليج، متناولاً التحديات التي تواجهها في سياق التفاعل الثقافي والاجتماعي والاقتصادي في المنطقة.

عنوان الكتاب: المسلمون البريطانيون في الإمبراطورية النيوليبرالية: المقاومة والتشافي والازدهار في العصر الميتا-كولونيالي.

عنوان الكتاب في لغته: *British Muslims in the Neoliberal Empire: Resisting, Healing, and Flourishing in the Metacolonial Era.*

المؤلف: وليام باريلو William Barylo.

الناشر: نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد Oxford University Press.

سنة النشر: 2025.

عدد الصفحات: 240.

يرصد الكتاب أنماط تموقع المسلمين البريطانيين داخل منظومة سياسية واجتماعية يصفها بـ"الميتا-كولونيالية"؛ وهي مرحلة استعمارية جديدة تندمج فيها النيوليبرالية بالرواسب التاريخية للهيمنة الأوروبية التقليدية. ويركّز على تحليل آليات الهيمنة من خلال دراسة الممارسات المؤسسية، مثل سياسات التعليم والأمن والإعلام، التي تسعى لإعادة تشكيل المسلمين عبر إنتاج نموذج "المواطن الصالح" أو "المسلم النموذجي". ويجادل بأن هذه المنظومة لا تستخدم القمع المباشر فحسب، بل تلجأ كذلك إلى أدوات ناعمة، مثل الضغط الاجتماعي وتوجيه السلوك، من أجل إخضاع الأفراد وتكييفهم وفق نماذج اجتماعية وسياسية مفروضة. ويقدّم، باعتماده منهجًا إثنوغرافيًا، إطارًا تحليليًا يجمع بين الدراسات ما بعد الكولونيالية والاقتصاد السياسي النقدي وعلم الاجتماع الديني؛ فيستعرض ممارسات اجتماعية وثقافية وروحية، طوّرها مسلمون بريطانيون من أجل التشافي وإعادة بناء المعنى والهوية، خارج إطار المقاومة التقليدية أو الاندماج التام في البنى السائدة.

تتناول فصول الكتاب الثمانية نماذج من المبادرات الشبابية والمجتمعية، تشمل العمل التطوعي، والفنون الإسلامية، والممارسات الروحانية، والتعليم البديل، بوصفها مساحات تفاوضية مستمرة مع أنظمة السيطرة، وليست مجرد ردود أفعال سلبية أو احتجاجية. ويخلص الكتاب إلى أن المسلمين البريطانيين، من خلال هذه الممارسات، يتحدّون النموذج المهيمن، عبر ابتكار استراتيجيات بديلة للعيش والبقاء، ويساهمون بذلك في صياغة تعريفات جديدة للذات وللوجود الاجتماعي. ولا يهدف الكتاب، من وراء ما يخوض فيه، إلى تقديم توصيات معيارية، بل يتغيّا رصد العلاقة المركّبة بين السلطة والتجربة الذاتية وتحليلها، موضحًا كيف تتقاطع هذه العلاقة مع السياقات التاريخية والسياسية الأوسع التي تشكّل الحياة اليومية للمسلمين في أوروبا المعاصرة.

عمران للعلوم الاجتماعية دورية محكّمة تصدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. تحمل الرقم الدولي المعياري (p-ISSN: 2305-2473)، والرقم الدولي المعياري الإلكتروني (e-ISSN 2789-3286). وقد صدر عددها الأوّل في صيف 2012. وهي دورية فصلية محكّمة تصدر مرة واحدة كلّ ثلاثة أشهر، ولها هيئة تحرير علمية أكاديمية مختصة وهيئة استشارية دولية فاعلة تشرف على عملها، وتستند إلى ميثاق أخلاقي لقواعد النشر وللعلاقة بينها وبين الباحثين. كما تستند إلى لائحة داخلية تنظّم عمل التحكيم، وإلى لائحة معتمدة بالقراء (المحكّمين) في الاختصاصات كافة.

يستوحي اسم الدورية مفهوم "العمران" الخلدونيّ بمدّخراته الأصيلة وإشعاعاته المتجددة. وقد ولدت فكرتها من أسئلة وإشكاليات المأزق المنهجي والوظيفي الذي تواجهه العلوم الاجتماعية والإنسانية العربيّة في مرحلة التغيّرات الاجتماعية الكبرى الجارية في الوطن العربيّ. وتندرج الدورية في سلسلة دوريات العلوم الاجتماعية والإنسانية في الوطن العربيّ والعالم، وتعمل على بلورة هوية أساسية لها بوصفها دوريةً/ مشروعًا، مستعيدةً تقاليد المجلات والدوريات التي أنتجت اتجاهات وحركات ومدارس علمية وفكرية. وهي تطمح في ذلك إلى أن تمثّل نقلةً نوعية في مجالات هذه العلوم، تقوم على مقاربة اختصاصات العلوم الاجتماعية ومناهجها بوصفها وحدة متكاملة في ما هو قريب من "المنهج التكاملي" العابر للاختصاصات في إطار الغاية العليا للعلوم الاجتماعية وهي "الحرية" بصفتها جوهر التفكير الذي هو جوهر الإنسان.

تعتمد **عمران** في انتقاء محتويات أعدادها المواصفات الشكلية والموضوعية للدوريات الدولية المحكّمة، وفقًا لما يلي:

- **أولًا:** أن يكون البحث أصيلًا معدًّا خصيصًا للدورية، وألّا يكون قد نشر جزئيًا أو كليًا أو نشر ما يشبهه في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، أو قدّم في أحد المؤتمرات العلمية من غير المؤتمرات التي يعقدها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، أو إلى أيّ جهة أخرى.
- **ثانيًا:** أن يرفق البحث بالسيرة العلمية (C.V.) للباحث باللغتين العربية والإنكليزية.
- **ثالثًا:** يجب أن يشتمل البحث على العناصر التالية:

1. عنوان البحث باللغتين العربية والإنكليزية، وتعريف موجز بالباحث والمؤسسة العلمية التي ينتمي إليها.
2. الملخّص التنفيذي باللغتين العربية والإنكليزية في نحو 100 كلمة، والكلمات المفتاحية (Keywords) بعد الملخّص، ويقدّم الملخص بجمل قصيرة ودقيقة وواضحة إشكالية البحث الرئيسة، والطرائق المستخدمة في بحثها، والنتائج التي توصّل إليها البحث.
3. تحديد مشكلة البحث، وأهداف الدراسة، وأهميتها، والمراجعة النقدية لما سبق وكُتب عن الموضوع، بما في ذلك أحدث ما صدر في مجال البحث، وتحديد مواصفات فرضية البحث أو أطروحته، ووضع التصوّر المفهومي وتحديد مؤشّراته الرئيسة، ووصف منهجية البحث، والتحليل والنتائج، والاستنتاجات. على أن يكون البحث مذيّلًا بقائمة المصادر والمراجع التي أحال إليها الباحث، أو التي يشير إليها في المتن. وتذكر في القائمة بيانات البحوث بلغتها الأصلية (الأجنبية) في حال العودة إلى عدة مصادر بعدة لغات.
4. أن يتقيد البحث بمواصفات التوثيق وفقًا لنظام الإحالات المرجعية الذي يعتمده المركز (ملحق 1: أسلوب كتابة الهوامش وعرض المراجع).
5. أن يقع البحث في مجال أهداف الدورية واهتماماتها البحثية بالمعنى الواسع للعلوم الاجتماعية شاملًا الدراسات الاقتصادية والسكانية والبيئية، وما شاكل ذلك.
6. تهتم الدورية بنشر مراجعات نقدية للكتب المهمة التي صدرت حديثًا في مجالات اختصاصها بأيّ لغة من اللغات، شرط ألّا يكون قد مضى على صدورها أكثر من ثلاث سنوات، وألّا يتجاوز عدد كلماتها 2800 – 3000 كلمة. ويجب أن يقع هذا الكتاب في مجال اختصاص الباحث أو في مجال اهتماماته البحثية الأساسية، وتخضع المراجعات إلى ما تخضع له البحوث من قواعد التحكيم.
7. تفرد الدورية بابًا خاصًا للمناقشات لفكرة أو نظرية أو قضية مثارة في مجال العلوم الاجتماعية لا يتجاوز عدد كلمات المناقشة 2800 – 3000 كلمة، وتخضع المناقشات إلى ما تخضع له البحوث من قواعد التحكيم.
8. يراوح عدد كلمات البحث، بما في ذلك المراجع في الإحالات المرجعية والهوامش الإيضاحية، وقائمة المراجع وكلمات الجداول في حال وجودها، والملحقات في حال وجودها، بين 6000 – 8000 كلمة، وللدورية أن تنشر، بحسب تقديراتها وبصورة استثنائية، بعض البحوث والدراسات التي تتجاوز هذا العدد من الكلمات، ويجب تسليم البحث منضّدًا على برنامج وورد (Word)، على أن يكون النص العربي بنوع حرف واحد وليس أكثر من نوع، وأن يكون النص الإنكليزي بحرف (Times New Roman) فقط، أي أن يكون النص العربي بحرف واحد مختلف تمامًا عن نوع حرف النص الإنكليزي الموحد.
9. في حال وجود صور أو مخططات أو أشكال أو معادلات أو رسوم بيانية أو جداول، ينبغي إرسالها بالطريقة التي استغلت بها في الأصل بحسب برنامجَي اكسل (Excel) أو وورد (Word)، كما يجب إرفاقها بنوعية جيدة (High Resolution) كصور أصلية في ملف مستقل أيضًا.

- **رابعًا:** يخضع كلّ بحث إلى تحكيم سري تام، يقوم به قارئان (محكّمان) من القراء المختصين اختصاصًا دقيقًا في موضوع البحث، ومن ذوي الخبرة العلمية بما أنجز في مجاله، ومن المعتمدين في قائمة القرّاء في المركز. وفي حال تباين تقارير القراء، يحال البحث إلى قارئ مرجّح ثالث. وتلتزم الدورية موافاة الباحث بقرارها الأخير؛ النشر/ النشر بعد إجراء تعديلات محددة/ الاعتذار عن عدم النشر، وذلك في غضون شهرين من استلام البحث.
- **خامسًا:** تلتزم الدورية ميثاقًا أخلاقيًا يشتمل على احترام الخصوصية والسرية والموضوعية والأمانة العلمية وعدم إفصاح المحرّرين والمراجعين وأعضاء هيئة التحرير عن أيّ معلوماتٍ بخصوص البحث المحال إليهم إلى أيّ شخصٍ آخر غير المؤلّف والقراء وفريق التحرير (ملحق 2).

1. يخضع ترتيب نشر البحوث إلى مقتضيات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث.
2. لا تدفع الدورية مكافآتٍ ماليّة عن المواد – من البحوث والدراسات والمقالات – التي تنشرها؛ مثلما هو متَّبَعٌ في الدوريات العلمية في العالم. ولا تتقاضى الدورية أيّ رسوم على النشر فيها.

(الملحق 1)
أسلوب كتابة الهوامش وعرض المراجع

1- الكتب

اسم المؤلّف، **عنوان الكتاب**، اسم المترجم أو المحرّر، الطبعة (مكان النشر: الناشر، تاريخ النّشر)، رقم الصّفحة.

– نبيل علي، **الثقافة العربية وعصر المعلومات**، سلسلة عالم المعرفة 265 (الكويت: المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، 2001)، ص 227.

– كيت ناش، **السوسيولوجيا السياسية المعاصرة: العولمة والسياسة والسلطة**، ترجمة حيدر حاج إسماعيل (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013)، ص 116.

ويُستشهد بالكتاب في الهامش اللاحق غير الموالي مباشرةً على النّحو التالي مثلاً: ناش، ص 117.

أما إن وُجد أكثر من مرجع واحد للمؤلّف نفسه، ففي هذه الحالة يجري استخدام العنوان مختصرًا: ناش، **السوسيولوجيا**، ص 117.

ويُستشهد بالكتاب في الهامش اللاحق الموالي مباشرةً على النّحو التالي: المرجع نفسه، ص 118.

أمّا في قائمة المراجع فيرد الكتاب على النّحو التالي:

– ناش، كيت. **السوسيولوجيا السياسية المعاصرة: العولمة والسياسة والسلطة**. ترجمة حيدر حاج إسماعيل. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013.

وبالنسبة إلى الكتاب الذي اشترك في تأليفه أكثر من ثلاثة مؤلفين، فيُكتب اسم المؤلف الرئيس أو المحرر أو المشرف على تجميع المادة مع عبارة "وآخرون". مثال:

– السيد ياسين [وآخرون]، **تحليل مضمون الفكر القوميّ العربيّ**، ط 4 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991)، ص 109.

ويُستشهد به في الهامش اللاحق كما يلي: ياسين [وآخرون]، ص 109.

أمّا في قائمة المراجع فيكون كالتالي:

– ياسين، السّيد [وآخرون]. **تحليل مضمون الفكر القوميّ العربيّ**. ط 4. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991.

2- الدوريات

اسم المؤلّف، "عنوان الدّراسة أو المقالة"، **اسم المجلّة**، المجلّد و/أو رقم العدد (سنة النّشر)، رقم الصّفحة. مثال:

– محمد حسن، "الأمن القوميّ العربيّ"، **إستراتيجيات**، مج 15، العدد 1 (2009)، ص 129.

أمّا في قائمة المراجع، فنكتب:

– حسن، محمد. "الأمن القوميّ العربي". **إستراتيجيات**. مج 15. العدد 1 (2009).

3- مقالات الجرائد

تكتب بالترتيب التالي (تُذكر في الهوامش فحسب، ومن دون قائمة المراجع). مثال:

– إيان بلاك، "الأسد يحثّ الولايات المتحدة لإعادة فتح الطّرق الدبلوماسية مع دمشق"، **الغارديان**، 2009/2/17.

4- المنشورات الإلكترونية

عند الاقتباس من مواد منشورة في مواقع إلكترونية، يتعين أن تذكر البيانات جميعها ووفق الترتيب والعبارات التالية نفسها: اسم الكاتب إن وجد، "عنوان المقال أو التقرير"، **اسم السلسلة** (إن وُجد)، اسم الموقع الإلكتروني، تاريخ النشر (إن وُجد)، شوهد في 2016/8/9، في: http://www.....

ويتعين ذكر الرابط كاملًا، أو يكتب مختصرًا بالاعتماد على مُختصِر الروابط (Bitly) أو (Google Shortner). مثل:

– "ارتفاع عجز الموازنة المصرية إلى 4.5%"، **الجزيرة نت**، 2012/12/24، شوهد في 2012/12/25، في: http://bit.ly/2bAw2OB

– "معارك كسر حصار حلب وتداعياتها الميدانية والسياسية"، **تقدير موقف**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016/8/10، شوهد في 2016/8/18، في: http://bit.ly/2b3FLeD

(الملحق 2)

أخلاقيات النشر في دورية عمران

1. تعتمد دورية عمران قواعد السرية والموضوعية في عملية التحكيم، بالنسبة إلى الباحث والقراء (المحكّمين) على حدّ سواء، وتُحيل كل بحث قابل للتحكيم على قارئين معتمديْن لديها من ذوي الخبرة والاختصاص الدقيق بموضوع البحث، لتقييمه وفق نقاط محددة. وفي حال تعارض التقييم بين القراء، تُحيل الدورية البحث على قارئ مرجّح آخر.
2. تعتمد دورية عمران قُراء موثوقِين ومجرّبِين ومن ذوي الخبرة بالجديد في اختصاصهم.
3. تعتمد دورية عمران تنظيمًا داخليًا دقيقًا واضح الواجبات والمسؤوليات في عمل جهاز التحرير ومراتبه الوظيفية.
4. لا يجوز للمحرّرين والقراء، باستثناء المسؤول المباشر عن عملية التحرير (رئيس التحرير أو من ينوب عنه) أن يبحث الورقة مع أيّ شخص آخر، بما في ذلك المؤلّف. وينبغي الإبقاء على أيّ معلومةٍ متميّزة أو رأي جرى الحصول عليهِ من خلال القراءة قيد السرّية، ولا يجوز استعمال أيٍّ منهما لاستفادةٍ شخصيّة.
5. تقدّم الدورية في ضوء تقارير القراء خدمة دعم فنّي ومنهجي ومعلوماتي للباحثين بحسب ما يستدعي الأمر ذلك ويخدم تجويد البحث.
6. تلتزم الدورية بإعلام الباحث بالموافقة على نشر البحث من دون تعديل أو وفق تعديلات معينة، بناءً على ما يرد في تقارير القراءة، أو الاعتذار عن عدم النشر، مع بيان أسباب الاعتذار.
7. تلتزم دورية عمران بجودة الخدمات التدقيقية والتحريرية والطباعية والإلكترونية التي تقدمها للبحث.
8. احترام قاعدة عدم التمييز: يقيّم المحرّرون والمراجعون المادّة البحثية بحسب محتواها الفكري، مع مراعاة مبدأ عدم التمييز على أساس العرق أو الجنس الاجتماعي أو المعتقد الديني أو الفلسفة السياسية للكاتب، أو أي شكل من أشكال التمييز الأخرى، عدا الالتزام بقواعد ومناهج ولغة التفكير العلمي في عرض وتقديم الأفكار والاتجاهات والموضوعات ومناقشتها أو تحليلها.
9. احترام قاعدة عدم تضارب المصالح بين المحررين والباحث، سواء كان ذلك نتيجة علاقة تنافسية أو تعاونية أو علاقات أخرى أو روابط مع أيّ مؤلّف من المؤلّفين، أو الشركات، أو المؤسّسات ذات الصّلة بالبحث.
10. تتقيد دورية عمران بعدم جواز استخدام أيّ من أعضاء هيئتها أو المحررين المواد غير المنشورة التي يتضمنها البحث المُحال على الدورية في أبحاثهم الخاصة.
11. حقوق الملكية الفكرية: يملك المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات حقوق الملكية الفكرية بالنسبة إلى المقالات المنشورة في مجلاته العلمية المحكّمة، ولا يجوز إعادة نشرها جزئيًّا أو كلّيًا، سواءٌ باللغة العربية أو مترجمة إلى لغات أجنبية، من دون إذنٍ خطي صريح من المركز العربي.
12. تتقيد دورية عمران في نشرها لمقالات مترجمة تقيّدًا كاملًا بالحصول على إذن الدورية الأجنبية الناشرة، وباحترام حقوق الملكية الفكرية.
13. المجانية: تلتزم دورية عمران بمجّانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلّفين من جميع رسوم النشر.

(Annex II)
Ethical Guidelines for Publication in *Omran*

1. The editorial board of Omran upholds the confidentiality and the objectivity the peer review process. The peer review process is anonymized, with editors selecting referees for specific manuscripts based on a set of pre–determined, professional criteria. In where two reviewers cannot agree on the value of a specific manuscript, a third peer reviewer will be selected.
2. *Omran* relies on a network of experienced, pre–selected peer reviewers who are current in their respective fields.
3. *Omran* adopts a well–defined internal organization with clear duties and obligations to be fulfilled by the editorial board.
4. Disclosure: With the exception of the editor in charge of the editing process (normally the Editor–in–Chief or designated deputies), neither the editors, nor the peer reviewers, are allowed to discuss the manuscript with third parties, including the author. Information or ideas obtained in the course of the reviewing and editing processes and must be treated in confidence and must never be used for personal financial or other gain.
5. When deemed necessary based on the reviewers' reports, the journal may offer researchers methodological, technical and other assistance in order to improve the quality of their submissions.
6. The editors of *Omran* are committed to notifying the authors of all submitted pieces of the acceptance or otherwise of their manuscripts for publication. In cases where the editors of *Omran* reject a manuscript, the author will be informed of the reasons for doing so.
7. *Omran* is committed to providing quality professional copy editing, proof reading and online publishing services.
8. Impartiality: The editors and the reviewers evaluate manuscripts for their intellectual and academic merit, without regard to race, ethnicity, gender, religious beliefs or political views of the authors.
9. Conflicts of interest: Editors and peer reviewers should not consider manuscripts in which there is a conflict of interests resulting from competitive, collaborative or other relationships or connections with any of the authors, companies, or institutions connected to the papers.
10. Confidentiality: Unpublished data obtained through peer review must be kept confidential and cannot be used for personal research.
11. Intellectual property and copyright: The ACRPS retains copyright to all articles published in its peer reviewed journals. The articles may not be published elsewhere fully or partially, in Arabic or in another language without an explicit written authorization from the ACRPS.
12. The editorial board of *Omran* fully respects intellectual property when translating and publishing an article published in a foreign journal, and will seek the right to translate and publish any work from the copyright holder before proceeding to do so.
13. *Omran* does not make payments for manuscripts published in the journal, and all authors and researchers are exempt from publication fees.

– Michael Pollan, *The Omnivore's Dilemma: A Natural History of Four Meals* (New York: Penguin, 2006), pp. 99–100.

– Gabriel García Márquez, *Love in the Time of Cholera*, Edith Grossman (trans.) (London: Cape, 1988), pp. 242–55.

In quotes not immediately following the reference: Pollan, p. 31.

Where there are several references by the same author, add a short title: Pollan, *Omnivore's Dilemma*, p. 31.

In quotes immediately following the reference: Ibid., p. 32.

The corresponding bibliographical entry:

– Pollan, Michael. *The Omnivore's Dilemma: A Natural History of Four Meals*. New York: Penguin, 2006.

For books by three or more authors, in the note, list only the first author, followed by et al.:

– Michael Gibbons et al., *The New Production of Knowledge: The Dynamics of Science and Research in Contemporary Societies* (London: Sage, 1994), pp. 220–221.

In later quotes: Gibbons et al., p. 35.

The corresponding bibliographical entry:

– Michael Gibbons et al. *The New Production of Knowledge: The Dynamics of Science and Research in Contemporary Societies*. London: Sage, 1994.

II– Periodicals

Author's name, "article title," *journal title*, volume number, issue number (Month/season Year), page numbers.

– Joshua I. Weinstein, "The Market in Plato's Republic," *Classical Philology*, no. 104 (2009), p. 440.

The corresponding bibliographical entry:

– Weinstein, Joshua I. "The Market in Plato's Republic." *Classical Philology*. no. 104 (2009).

III– Articles in a Newspaper or Popular Magazine

N.B. Cited only in footnotes, not in the references/bibliography. Example:

– Ellen Barry, "Insisting on Assad's Exit Will Cost More Lives, Russian Says," *The New York Times*, 29/12/2012.

IV– Electronic Resources

When quoting electronic resources on websites, please include all the following: Author's name (if available), "The article or report title," *series name* (if available), website's name, date of publication (if available), accessed on 9/8/2016, at: http://www... The full link to the exact page should be included. Please use an URL Shortener (Bitly) or (Google Shortner). Example:

– John Vidal, "Middle East faces water shortages for the next 25 years, study says," *The Guardian*, 27/8/2015, accessed on 31/10/2015, at: http://bit.ly/2k97Wxw

– Policy Analysis Unit–ACRPS, "President Trump: An Attempt to Understand the Background," *Assessment Report*, The Arab Center for Research and Policy Studies, accessed on 10/11/2016, at: http://bit.ly/2j36v5S

iv. All research papers submitted for consideration must adopt the referencing guidelines adopted by the Arab Center for Research and Policy Studies (See Appendix I for a complete guide to the reference style used across all of our journals).

v. All submitted works must fall within the broad scope of *Omran*, including economics, demographics, and environmental science.

vi. Book reviews of between 2,800 and 3,000 words in length will be considered for submission to the journal, provided that the book covers a topic which falls within the scope of the journal and within the reviewer's academic specialization and/or main areas of research. Reviews are accepted for books written in any language, provided they have been published in the previous three years. Book reviews are subject to the same quality standards which apply to research papers.

vii. *Omran* carries a special section devoted to discussions of a specific theme which is a matter of current debate within the social sciences. These essays must be between 2,800 and 3,000 words in length. They are subject to the same refereeing standards as research papers.

viii. All submissions are to be between 6,000 and 8,000 words in length, inclusive of a bibliography, footnotes, appendices and the caption texts on images. The editors retain the right to publish longer pieces at their discretion. Research papers should be submitted typed on "Word". The Arabic text should be in the same font and not several fonts, and the English text should only be in "Times New Roman" font. Accordingly, the Arabic text should be in one single font totally different from the unified English font.

ix. All diagrams, charts, figures and tables must be provided in a format compatible with either Microsoft Office's spreadsheet software (Excel) or Microsoft Office's word processing suite (Word), alongside high–resolution images. Charts will not be accepted without the accompanying data from which they were produced.

4. The peer review process for *Omran* and for all journals published by the ACRPS is conducted in the strictest confidence. Two preliminary readers are selected from a short list of approved reader–reviewers. In cases where there is a major discrepancy between the first two readers in their assessment of the paper, the paper will be referred to a third reviewer. The editors will notify all authors of a decision either to publish, publish after modifications, or to decline to publish, within two months of the receipt of the first draft.

5. The editorial board of *Omran* adheres to a strict code of ethical conduct, which has the clearest respect for the privacy and the confidentiality of authors (cf. Annex II).

   i. The sequencing of publication for articles accepted for publication follows strictly technical criteria.

   ii. *Omran* does not make payments for articles published in the journal, nor does it accept payment in exchange for publication.

(Annex I)
Footnotes and Bibliography

I– Books

Author's name, *Title of Book*, Edition (Place of publication: Publisher, Year of publication), page number.

Omran is a quarterly, peer reviewed academic journal dedicated to the social sciences and published by the Arab Center for Research and Policy Studies (ISSN: 2305–2473). First published in the summer of 2012, *Omran* is overseen by an academic editorial board composed of experts as well as an actively engaged board of international advisers. Publication in *Omran* is governed by a strict code of ethics which guides the relationship between the editorial staff and contributors.

The name of the journal evokes Ibn Khaldun's concept of *ilm al Omran*, often viewed as a precursor to the social sciences. Born out of the perceived methodological and functional crises faced by the social sciences and humanities during an era of massive social transformations sweeping through the Arab region, *Omran* aims to establish for itself a distinct identity among prominent Arab journals and periodicals, as a journal/project aspiring to build new intellectual trends and schools of thought. It thus seeks to bring about a qualitative leap in its multidisciplinary field (encompassing anthropology, sociology, social history, political science, political economy, population sciences, environment, and development studies), espousing in this an integrated interdisciplinary approach. It views freedom as the guiding principle and ultimate goal of the social sciences, since freedom is the essence of thought, which is also the essence of humanity.

Submission to and publication in *Omran* is governed by the following guidelines:

1. Only original work which is submitted exclusively for publication within the journal is accepted. No work which has been previously published fully or in part will be considered for publication in *Omran*. Similarly, no work which substantially resembles any other work published in either print or electronic form, or submitted to a conference other than the conferences held by the ACRPS will be considered for publication.
2. Submissions must be accompanied by a curriculum vitae (CV) of the author, in both Arabic and English.
3. All submissions must include the following elements:
    i. A title in both Arabic and English together with the author's institutional affiliation.
    ii. An abstract, ranging between 100 words in length, in both Arabic and English as well as a list of keywords. The abstract must explicitly and clearly spell out the research problematic, the methodologies used, and the main conclusions arrived at.
    iii. The research paper must include the following elements: specification of the research problematic; significance of the topic being studied; statement of thesis; a review of literature emphasizing gaps or limitations in previous analysis; a description of the research methodology; hypothesis and conceptual framework; bibliography.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

The Arab Center for Research and Policy Studies is an independent social sciences and humanities institute that conducts applied and theoretical research seeking to foster communication between Arab intellectuals and specialists and global and regional intellectual hubs. The ACRPS achieves this objective through consistent research, developing criticism and tools to advance knowledge, while establishing fruitful links with both Arab and international research centers.

The Center encourages a resurgence of intellectualism in Arab societies, committed to strengthening the Arab nation. It works towards the advancement of the latter based on the understanding that development cannot contradict a people's culture and identity, and that the development of any society remains impossible if pursued without an awareness of its historical and cultural context, reflecting its language(s) and its interactions with other cultures.

The Center works therefore to promote systematic and rational, scientific research–based approaches to understanding issues of society and state, through the analysis of social, economic, and cultural policies. In line with this vision, the Center conducts various academic activities to achieve fundamental goals. In addition to producing research papers, studies and reports, the center conducts specialized programs and convenes conferences, workshops, training sessions, and seminars oriented to specialists as well as to Arab public opinion. It publishes peer–reviewed books and journals and many publications are available in both Arabic and English to reach a wider audience.

The Arab Center, established in Doha in autumn 2010 with a publishing office in Beirut, has since opened three additional branches in Tunis, Washington and Paris, and founded both the Doha Historical Dictionary of Arabic and the Doha Institute for Graduate Studies. The ACRPS employs resident researchers and administrative staff in addition to hosting visiting researchers, and offering sabbaticals to pursue full time academic research. Additionally, it appoints external researchers to conduct research projects.

Through these endeavours the Center contributes to directing the regional research agenda towards the main concerns and challenges facing the Arab nation and citizen today.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات مؤسسة بحثية فكرية مستقلة، مختصة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، في جوانبها النظرية والتطبيقية، تسعى، عبر نشاطها العلمي والبحثي، إلى خلق تواصل في ما بين المثقفين والمتخصصين العرب في هذه العلوم، وبينهم وبين قضايا مجتمعاتهم، وكذلك بينهم وبين المراكز الفكرية والبحثية العربية والعالمية، في عملية تواصل مستمرة، من البحث، والنقد، وتطوير الأدوات المعرفية.

يتبنى المركز رؤية نهضوية للمجتمعات العربية، ملتزمة بقضايا الأمة العربية، والعمل على رقيها وتطوّرها، انطلاقًا من فهم أنّ التطور لا يتناقض مع الثقافة والهوية، بل إنّ تطوّر مجتمعٍ بعينه، بفئاته جميعها، غير ممكنٍ إلا في ظروفه التاريخية، وفي سياق ثقافته، وبلغته، ومن خلال تفاعله مع الثقافات الأخرى.

ومن ثمّ، يعمل المركز على تعزيز البحث العلمي المنهجي والعقلانية في فهم قضايا المجتمع والدولة، بتحليل السياسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الوطن العربي. ويتجاوز ذلك إلى دراسة علاقات الوطن العربي ومجتمعاته بمحيطه المباشر، وبالسياسات العالمية المؤثّرة فيه، بجميع أوجهها.

وفي ضوء هذه الرؤية، يعمل المركز على تحقيق أهدافه العلمية الأساسية، عن طريق نشاطاته الأكاديمية المختلفة، فهو ينتج أبحاثًا ودراسات وتقارير، ويصدر كتبًا محكّمةً ودوريات علميةً، ويبادر إلى مشاريع بحثية، ويدير عدة برامج مختصة، ويعقد مؤتمرات، وورش عمل وتدريب، وندوات أكاديمية، في مواضيع متعلقة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، وموجّهة إلى المختصين، والرأي العام العربي أيضًا، ويساهم، عبر كل ذلك، في توجيه الأجندة البحثية نحو القضايا والتحديات الرئيسة التي تواجه الوطن والمواطن العربي. وينشر المركز جميع إصداراته باللغتين العربية والإنكليزية.

تأسّس المركز في الدوحة في خريف 2010، وله فرع يعنى بإصداراته في بيروت، وافتتح ثلاثة فروع إضافية، في تونس وواشنطن وباريس. ويشرف على المركز مجلس إدارة بالتعاون مع مديره العام المؤسّس.

أسّس المركز مشروع المعجم التاريخي للغة العربية، وما زال يشرف عليه بالتعاون مع مجلسه العلمي، كما أسّس معهد الدوحة للدراسات العليا، وهو معهد جامعي تشرف عليه إدارة أكاديمية ومجلس أمناء مستقل يرأسه المدير العام للمركز.

يعمل في المركز باحثون مقيمون، وطاقم إداري. ويستضيف باحثين زائرين للإقامة فيه فترات محددة من أجل التفرّغ العلمي، ويكلّف باحثين من خارجه للقيام بمشاريع بحثية، ضمن أهدافه ومجالات اهتمامه.

DOHA INSTITUTE
FOR GRADUATE STUDIES

معهد الدوحة للدراسات العليا

معهد الدوحة للدراسات العليا مؤسّسة أكاديميّة مستقلّة للتعليم العالي والأبحاث في العلوم الاجتماعية والإنسانية والإدارة العامّة واقتصاديات التنمية.

يهدف المعهد من خلال برامجه الأكاديمية ونشاطات أساتذته البحثية إلى تحقيق رسالته المتمثلة في المساهمة في تكوين جيلٍ جديد من الأكاديميين والباحثين المستقلين فكريًا والمتمكّنين من المعايير العلمية العالميّة والأدوات البحثية المنهجية الحديثة القائمة على مبدأ تداخل التخصصات، ومن القادة المهنيين القادرين على الدفع قُدُمًا بالمعرفة الإنسانية والاستجابة إلى حاجات المنطقة العربية في سبيل التطوّر الفكري والاجتماعي والمهني.

ويسعى المعهد لتأسيس نواة لصرح فكري يفيد العالم العربي على نحو خاص. ويدعم المعهد البحوث العلمية التي تهتم بالقضايا العربية، في جوّ من الحرية المؤسسية والفكرية.

يعمل المعهد بالتعاون مع المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ومعجم الدوحة التاريخي للغة العربية على فتح المجال لطلبته وأعضاء هيئته التدريسية للبحث في أهم القضايا الراهنة التي تتعلق بالعالم العربي والمجتمع الدولي. ويعتبر إشراك الطلبة في أهم المشاريع البحثية في صلب اهتمامات المعهد.

يعتمد المعهد اللغة العربية أداةً للبحث العلمي، ولغةً رسمية في الخطاب العام، ولغةً أساسية للتعليم والبحث. وتُعدّ اللغة الإنكليزية لغةً مرافقة في التعلّم والبحث العلمي. وتستعمل اللغتان في طرح المواضيع المختلفة ودراستها.

The Doha Institute for Graduate Studies (DI) is an independent institute for learning and research in the fields of Social Sciences, Humanities, Public Administration and Development Economics in Doha.

Through its academic programs and the research activities of its professors, the DI aims to achieve its mission of contributing to the formation of a new generation of academics and intellectually independent researchers who are proficient in international scholarship standards and modern interdisciplinary research methodologies and tools, and leading professionals who can advance human knowledge and respond to the needs of the Arab region, resulting in social, cultural and intellectual development.

The institute seeks to establish an intellectual hub that will benefit the Arab region in particular. The Institute supports academic research that deals with Arab issues, in an atmosphere of institutional and intellectual freedom.

The Institute works in cooperation with the Arab Center for Research and Policy Studies and the Doha Historical Dictionary of Arabic Language to facilitate its students and faculty members in their research of the most important current issues related to the Arab world and the wider international community. The involvement of students in the most important research projects is at the heart of the Institute's interests.

The Institute adopts Arabic as its official and primary language for education and research. English serves as an accompaniment to Arabic, with both languages used in presenting and research.

دعوة للكتابة

ترحب دورية "عمران" للعلوم الاجتماعية بنشر الأبحاث والدراسات المعمقة ذات المستوى الأكاديمي الرصين، وتقبل للنشر فيها الأبحاث النظرية والتطبيقية المكتوبة باللغة العربية. وتفتح الدورية صفحاتها لمراجعات الكتب، وللحوار الجاد حول ما ينشر فيها من موضوعات. وسيتضمن كل عدد من "عمران" أبحاثًا ومراجعات كتب، ومتابعات مختلفة... وجميعها يخضع للتحكيم من قبل زملاء متخصصين.

ترسل كل الأوراق الموجهة للنشر باسم رئيس التحرير على العنوان الإلكتروني الخاص بالدورية

qa.edu.dohainstitute@omran

عنوان الاشتراكات:
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research and Policy Studies
جادة الجنرال فؤاد شهاب – بناية الصيفي ١٧٤ – مار مارون
ص.ب.: ٤٩٦٥–١١ رياض الصلح ٢١٨٠–١١٠٧ بيروت – لبنان
البريد الإلكتروني: distribution@dohainstitute.org
هاتف: ٨/ ٧/ ٩٩١٨٣٦ ١ ٩٦١+ فاكس: ٩٩١٨٣٩ ١ ٩٦١+

عنوان التحويل البنكي:
Arab Center for Research and Policy Studies
Societe General de Bank au Liban sal.
Mazraa - Al Mama Street - SGBL Bldg. - Beirut - Lebanon
Account Number: 010 666 504 002 840 (For US Dollars)
IBAN Number:
LB19 0019 0000 0010 6665 0400 2840 (For US Dollars)
Swift Code: SGLILBBX

عمران omran

فصلية محكّمة تُعنى بالعلوم الاجتماعية

قسيمة اشتراك

الاسم: .....

العنوان البريدي: .....

.....

الهاتف: .....

البريد الإلكتروني: .....

عدد النسخ المطلوبة: .....

طريقة الدفع: ☐ شيك لأمر المركز ☐ تحويل بنكي

يمكنكم اقتناء أعداد الدورية ورقيًا أو إلكترونيًا في المكتبة الإلكترونية من خلال التسجيل في الموقع:

www.bookstore.dohainstitute.org

طريقة الدفع: أدوات الدفع الإلكتروني

المـركز العـربي للأبحـاث ودراسة السيـاسات
Arab Center for Research & Policy Studies

يُعلن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات عن بدء استقبال طلبات المشاركة في الدورة الحادية عشرة لمؤتمر العلوم الاجتماعية والإنسانية، موضوعها:

"العلوم الاجتماعية والإنسانية في البلدان العربية والذكاء الاصطناعي: الجدوى والإشكاليات والتحديات"

(ربيع 2027)

يتطلع المؤتمر إلى مشاركة أبحاث من مختلف اختصاصات العلوم الاجتماعية والإنسانية، وأبحاث عابرة لها، وألّا تقتصر على العلوم السياسية وعلم الاجتماع وعلوم الإعلام والاتصال، التي تبدو الأقرب إلى الموضوع؛ فالإحاطة به تقتضي أيضًا مقارباتٍ ورؤًى نقديةً من حقول الفلسفة، وعلم النفس، والاقتصاد، واللسانيات، والقانون، وغيره. ويوجه المؤتمر أيضًا دعوة خاصة للمشاركة إلى الباحثين العرب في علوم الحوسبة، Computer Science، وتكنولوجيا المعلومات IT، وتحليل البيانات Data Analysis، والذكاء الاصطناعي AI، ممّن لديهم دراية ملائمة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، وإلى المختصين في حقل الإنسانيات الرقمية Digital Humanities، وفي حقل العلوم والتكنولوجيا والمجتمع STS، ممّن يهتمون بالأبعاد الفلسفية والسياسية والاجتماعية والثقافية المرتبطة بتطوّر الذكاء الاصطناعي واستخداماته في السياقات العربية.

للمشاركة في هذا المؤتمر، يمكن إرسال طلب المشاركة خلال فترة تمتدّ إلى 30 أيلول/ سبتمبر 2025.

لمزيد من المعلومات، يرجى مراجعة الموقع الإلكتروني للمركز www.dohainstitute.org

المـركز العـربي للأبحـاث ودراسة السيـاسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الاشتراكات السنوية

(أربعة أعداد)

لبنان	35 $	للأفراد	45 $	للمؤسسات
الدول العربية وأفريقيا	60 $	للأفراد	80 $	للمؤسسات
الدول الأوروبية	100 $	للأفراد	120 $	للمؤسسات
القارة الأميركية وأستراليا	120 $	للأفراد	160 $	للمؤسسات

عنوان الاشتراكات:
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research and Policy Studies
جادة الجنرال فؤاد شهاب - بناية الصيفي 174 - مار مارون
ص.ب.: 4965-11 رياض الصلح 2180-1107 بيروت - لبنان
البريد الإلكتروني: distribution@dohainstitute.org
هاتف: 8/7/991836 1 961+ فاكس: 991839 1 961+

عنوان التحويل البنكي:
Arab Center for Research and Policy Studies
Societe General de Bank au Liban sal.
Mazraa - Al Mama Street - SGBL Bldg. - Beirut - Lebanon
Account Number: 010 666 504 002 840 (For US Dollars)
IBAN Number:
LB19 0019 0000 0010 6665 0400 2840 (For US Dollars)
Swift Code: SGLILBBX

من إصدارات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

- للحصول على منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،
يرجى الاطلاع على قائمة موزّعي الكتب والمجلات على موقعنا الإلكتروني: www.dohainstitute.org
- بالنسبة إلى البلاد التي لا يوجد فيها موزعون إلى الآن، يرجى الاتصال مباشرة بقسم التوزيع في مكتب بيروت:
هاتف: 837 991 1 961+ أو على البريد الإلكتروني: distribution@dohainstitute.org

في هذا العدد أيضًا

تقارير

صلاح الدين العجلة

تداعيات العدوان الإسرائيلي على الاقتصاد الفلسطيني في قطاع غزة وتحديات التعافي الاقتصادي

مراجعات الكتب

خلود العجارمة

مكة في المغرب: تمثلات الحج الإسلامي في الحياة اليومية المغربية

مراجعة: رشيد جرموني

ديما عيسى

فيروز والشتات العربي: الموسيقى والهوية في المملكة المتحدة وقطر

مراجعة: مجاهد الدومة

عروض الكتب

جميع الحقوق محفوظة لمعهد الدوحة للدراسات العليا
والمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
شارع الطرفة – منطقة 70 – وادي البنات – ص.ب. 10277 – الدوحة – قطر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

DOHA INSTITUTE
FOR GRADUATE STUDIES

ISSN 2305-2473
53
9 772305 247008

يمكنكم اقتناء أعداد الدورية ورقيًا أو إلكترونيًا في المكتبة الإلكترونية من خلال التسجيل في الموقع:
www.bookstore.dohainstitute.org

سعر النسخة

قطر	30 ريالًا	العراق	5000 دينار	الجزائر	250 دينارًا
السعودية	30 ريالًا	تونس	5 دنانير	المغرب	30 درهمًا
الإمارات	30 درهمًا	سورية	200 ليرة	موريتانيا	700 أوقية
البحرين	3 دنانير	لبنان	300,000 ليرة	ليبيا	5 دنانير
الكويت	ديناران	الأردن	ديناران	فلسطين	3 دولارات
عُمان	3 ريالات	اليمن	400 ريال	الصومال	3500 شلن
مصر	20 جنيهًا	السودان	20 جنيهًا		